ستيبانوفا

فريدريك انجلس





F Engels

ستيبانوف

فريدريك أنجلس



دار التقدم
موسكو

Е. Степанова

ФРИДРИХ ЭНГЕЛЬС

На арабском языке

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب، وشكل عرضه، وطباعته، واعربتم لها عن رغباتكم.

العنوان: زوبوفسكى بولفار، ٢١
موسكو — الاتحاد السوفييتى

١

طفولة انجلس وشبابه

ولد فريدريك انجلس فى اليوم الثامن والعشرين من شهر نوفمبر – تشرين الثانى – من عام ١٨٢٠ فى مدينة بارمن، فى أسرة ربها صاحب معمل للنسيج. وقد كان اقليم رينانيا من مملكة بروسيا، حيث ولد انجلس، أكثر مناطق المانيا تطورا فى ذلك الحين من الناحية الصناعية. فقد كانت تظهر فيه اولى الماكنات وتبرز المعامل بينما ما تزال المشاغل والحرف الصغيرة والعمل اليدوى تسيطر على سائر البلاد. وكانت رينانيا أول اقليم فى المانيا، شقت منه الصناعة الرأسمالية الكبيرة التى ولدت فى انكلترا، طريقها المظفر.

وسبب ذلك هو الثروات الطبيعية الجوفية من طمائر الفحم والحديد التى يسرت نهوض الصناعة – هذا من جهة؛ ومن جهة اخرى، كانت الثورة البرجوازية فى فرنسا عام ١٧٨٩ قد أحدثت هنا تأثيرات أعظم مما فى سائر مناطق المانيا اذ قضت على القنانة والاقطاع فى ضفة الراين اليسرى. وقد حدد تقدم الصناعة الرأسمالية الكبيرة تكوين طلائع البروليتاريا الصناعية كما اخذت التناقضات بين البرجوازية

والطبقة العاملة، الملازمة بالمجتمع الرأسمالى، تبرز فى اقليم رينانيا اكثر فاكثر.

وكان نظام الانتاج الرأسمالى يحمل للجماهير الكادحة بلايا وخيمة جديدة كما كان يشدد بؤسها واستثمارها. فكانت الماكينات تتيح لارباب العمل استخدام عمل النساء والاولاد على صعيد لم ير له مثيل حتى ذلك العهد، وكانت مزاحمة هذه الايدى العاملة البخسة الاجر تزيد من انخفاض أجور العمال. وعدا ذلك، كان نهوض الرأسمالية على ضفاف الراين، كما فى سائر الانحاء، يرافقه خراب الفلاحين وأرباب الحرف الصغيرة والبرجوازية الصغيرة فى المدن.

كانت صور الفقر والبؤس التى شهدها انجلس وهو صغير فى وبرتال* تحدث فى نفسه تأثيرا ممضا لا يعفو من ذاكرته. كانت «رسائل من وبرتال» وهى أول نشراته الصحفية (عام ١٨٣٩) تصور تصويرا مؤثرا وضع عمال الصناعة وأرباب الحرف الصغيرة فى بارمن وألبرفلد.

وبعطف خالص، يصف انجلس الفتى (وقد بلغ آنذاك التاسعة عشرة من عمره) بؤس العمال المدقع وخصوصا عمال المعامل فى وبرتال؛ ويتحدث باستياء عن سعة استخدام عمل الاولاد فى المصانع. ويكتب بغيظ أن ١٢٠٠ طفل من أصل ٢٥٠٠ فى السن المدرسية فى ألبرفلد لا يملكون سبيلا الى الذهاب الى المدرسة فكانوا مضطرين الى الكدح فى المعامل حيث يقبضون اجورا تقل ضعفين عن اجور العمال الراشدين. ويبين ايضا ان العمل فى المصانع يجرى

---

* «وبرتال» ـ وادى نهر وبر حيث تقع مدينتا بارمن وألبرفلد وتبعد احداهما عن الاخرى ثلاث ساعات بالقطار.

فى ظروف سيئة الأثر على صحة الكبار ناهيك عن الصغار. اما السبب الرئيسى لجميع هذه الشرور والآلام النازلة بالعمال، فرآه انجلس فى «ادارة اصحاب المصانع الفظيعة».

أما أرباب الحرف الصغيرة فما كانوا بمنأى من تأثير الصناعة الرأسمالية الكبيرة فى اوضاعهم ايضا. فكان لا بد للحاكة الحرفيين الفرديين من أن يعملوا منذ الشروق حتى الغروب ومن ان يمتنعوا عن شراء أكثر الاشياء ضرورة وذلك ليتمكنوا من الصمود لمزاحمة المصنع.

كانت وبرتال – «مانشستر المانيا» والمركز الكبير لصناعة النسيج – فى الوقت ذاته احدى قلاع الجهل والرجعية والاكليريكية، وأحد الحصون المنيعة للطائفة المسماة «البياتية» وهى أكثر طوائف البروتستانتية تعصبا ونفاقا. لقد سمى انجلس فى احدى رسائل صباه وبرتال – «موكرتال» (وادى المنافقين). وكان اصحاب المصانع الاتقياء ووكلاؤهم فى معامل وبرتال يحاولون أن «يزينوا» حياة العمال والحرفيين بمساعدة التوراة والكحول لكى يصرفوهم عن الكفاح ويقبلوا بالنظام القائم.

كتب انجلس فيما بعد:

«اذا لم يكن قد بقى لعمال وبرتال آنذاك غير الاختيار بين كحول خمارات الأرض وكحول الكهنة السماوى فلا غرابة اذا كانوا فضلوا الكحول الأول وان كان من أسوأ صنف»*.

كان «الرأى العام» فى وبرتال واقعا تحت سيطرة دجالى الكنيسة. وكانت اجتماعات المؤمنين تتحول الى محاكم حقيقية، يحاكم فيها «الهراطقة»، وكان يكفى المرء

---

* انجلس. «الكحول البروسى فى الريخستاغ الالمانى».

ليعتبر كذلك أن يهمل الاجتماعات الدينية ويقرأ القصص أو يتردد على الحفلات الموسيقية. وكان التعليم فى المدرسة يستوحى الأوهام نفسها. وقد ذكر انجلس الذى درس اولا فى مدرسة البلدية فى بارمن ثم فى ثانوية ألبرفلد، أن أحد معلميه أجاب تلميذا سأله عن هوية غوته فاكتفى بالقول: «انه ملحد».

هكذا كان الوسط الاجتماعى الذى شب فيه وترعرع هذا الصبى ذو النظر الثاقب والقلب الحساس.

وما كان وسط أسرته بأحسن: فقد كان أبوه تقيا طاغية يستبد بكل أقاربه وحتى زوجته – وكانت هذه طيبة لطيفة ولكنها لا ارادة لها. أما فريدريك، مع تعطشه للمعرفة وطابعه العنيد ومع ذكائه الثاقب واستقلاله فى التفكير اللذين برزا باكرا عنده، فكان لا بد له أن يظهر بمظهر «فرخ البط الخبيث» فى نظر أهله. وثمة رسالة بقيت حتى ايامنا أرسلها والد انجلس الى زوجته تعبر عن القلق الذى كانا يشعران به ازاء تربية فريدريك وهو فى الخامسة عشرة من عمره حينذاك.

«عاد فريدريك من المدرسة فى الاسبوع الماضى يحمل علامات متوسطة. لقد أصبح، فى المظهر، اكثر تهذيبا، كما تعرفين، الاّ أننى أعتقد أن ضروب القصاص القاسى التى نالها لم تنجح، كما يبدو، فى جعله مطيعا كل الطاعة اللهم الا خوفا من أن يعاقب ايضا. وقد أحزننى اليوم ايضا: فقد وجدت فى جاروره كتابا كريها أخذه من المكتبة، انه قصة عن فرسان القرن الثالث عشر... حمى الله روحه. كثيرا ما أفكر مذعورا بهذا الصبى الممتاز على وجه العموم... وهو، على الرغم من خصاله الطيبة، يبدى حتى

الآن بعض النقص فى الشخصية وعدم الاستقرار فى الرأى مما يبعث فى نفسى القلق».

ان ماسماه الوالد المتدين المتعصب «بالنقص فى الشخصية وعدم الاستقرار فى الرأى»، انما كان يدل فعلا على استقلال التفكير لدى الصبى ورغبته فى الافلات من سيطرة وسط التدجيل الذى يحيط به.

كان بموهبته الرائعة يبدى فى المدرسة اهتماما عظيما بالادب والموسيقى والفنون واللغات. فكان ينظم اشعارا ويرسم رسوما هزلية موفقة. كان بطبيعته المرحة المتفائلة يمتاز بالجلد والحيوية، ويحب كثيرا الفروسية والمبارزة وكان سباحا ماهرا. وقد احتفظ طول حياته بحب الرياضة والتمارين البدنية.

وفى ١٥ من شهر ايلول – سبتمبر – سنة ١٨٣٧ اضطر الى ترك المدرسة الثانوية بناء على الحاح أبيه الذى لم يدعه ينهى السنة الأخيرة ومواصلة الدراسة. كان أبوه يود لو يجعل منه تاجرا فوضعه أولا فى مكتبه ليعوده على الاعمال حيث اشتغل سنة واحدة ثم ارسله الى شركة تجارية كبيرة فى بريمن ليعمل بصفته كاتبا.

على أن انجلس الشاب لم يستطع ان يحصر نفسه بالعمل فى المكتب فما كان يغريه مستقبله تاجرا. كان فى اوقات فراغه ينكب بشغف على المطالعة. ففى ذلك الحين كان يدهش الجميع بقدرته العظيمة على العمل وعلى تنظيم وقته بشكل عقلانى وعلى العيش عيشة مليئة. كان ينهض باكرا ويبقى عاكفا على كتبه حتى يحين وقت ذهابه الى المكتب. كتب لأصدقائه يقول: «ان المرء لا يجد مكانا يتمتع فيه بالقراءة بقدر ما يتمتع بها فى حديقة»، فى صبيحة يوم من

ايام الربيع، اذ يجلس على مقعد فى الحديقة وتكون أشعة الشمس قد أخذت تدفئ ظهره بينما هو يدخن غليونه».

وفى بريمن، المرفأ التجارى الكبير، كان فى مقدور انجلس أن يحصل على جرائد انكليزية وهولندية وفرنسية وغيرها. وكثيرا ما كان يتفق له أن يعثر على منشورات ممنوعة فى المانيا ويرسلها الى أصدقائه فى بارمن. كانت الكتب والجرائد تعينه على توسيع مداركه وملء فراغات ثقافته. وفضلا عن ذلك، كانت مطالعة الصحف الاجنبية تتيح له أن يبلغ نجاحات مدهشة فى معرفة اللغات. قال فى رسالة أرسلها الى أخته مارى بلهجة نصف هازلة أنه يستطيع أن يقرأ بـ٢٥ لغة. وكان يرسل الى أصدقائه فى بعض الاحيان رسائل مكتوبة فى الوقت نفسه بلغات متعددة:

«...أكتب لك رسالة مختلفة اللغات ولهذا أنتقل الآن الى الانكليزية، أو بالاحرى الى اللغة العزيزة علي، اللغة الايطالية البديعة اللطيفة الحلوة التى تشبه كلماتها أزاهير روضة ساحرة، أو الى الاسبانية التى تشبه النسيم بين الاشجار، أو الى البرتغالية التى تماثل صخب امواج البحر على شاطىء وشاه العشب والأزهار، أو الى الفرنسية التى تذكر المرء بخرير جدول حلو، أو الى الهولندية التى تشبه دخان غليون مريح».

لقد استعمل انجلس فعلا هذه اللغات كلها فى رسالته على الرغم من بعض الأغلاط، وهو فى التاسعة عشرة من عمره.

وبعد ما وصل انجلس الشاب الى بريمن انكب على الشعر بحماسة. وكان يحلم بان يكون مثل فرديناند فريليغرات الذى كان كاتبا تجاريا بسيطا فى بارمن ولم يعتم أن صار شاعرا بارزا.

وبعد وبرتال المملة، أخذ يذهب الى المسارح والحفلات الموسيقية ويولع بالغناء وبالموسيقى ولا سيما بسمفونيات بتهوفن دون أن يهمل مع ذلك تمارينه الرياضية المفضلة وهى المبارزة والسباحة والفروسية.

وفى بريمن كما فى وبرتال لم يكف انجلس الشاب لحظة عن تأمل حياة الطبقات الكادحة «العامة الذين لا يملكون شيئا الاّ أنهم خير ما يمكن ان يكون لملك فى دولته».

ان دراسة حياة الشعب وكمية الكتب الهائلة التي يقرأها بنهم قد شددتا الشعور بالنقد الذى تبناه فى وقت مبكر، تجاه الوسط الخانق الذى ولد فيه وتجاه آراء واوهام العالم التجارى والاكليريكى حيث ترعرع.

كان والد انجلس المهتم بتربية ابنه الروحية قد احتط للأمر ووضعه فى بيت كاهن بروتستانى فى بريمن، بيد أن انجلس فى ذلك الحين بالضبط نزع الى الأبد ايمان أسلافه على اثر ازمة ضمير عنيفة حدثت له فى هذا البيت.

ان الرسائل التى بعثها انجلس الى صديقيه الاخوين غريبر تكشف عنف الصراع الداخلى الذى كان يثور فى نفسه فى ذلك الحين. فبعد ما ادرك أن فى التوراة تناقضات مستعصية وأنه لا سبيل الى التوفيق بين العلم والدين، تنكر لتقاليد أقاربه واصدقائه ومعتقداتهم.

كتب يقول فى احدى رسائله الى صديق له: «...أعرف أن هذا سيعرضنى الى أخطر المتاعب الاّ أننى لا أملك أن اتخلص مما تمليه علي قوة الاقتناع مهما كانت رغبتي... اننى لاستنكر كل قسر حينما يتناول الامر الدفاع عن حرية العقل».

٢

بداية النشاط السياسى.
انجلس الديموقراطى الثورى

توافق شباب انجلس وتكوين مفاهيمه وآرائه السياسية مع حقبة تميزت بتفاقم النضال الطبقى فى سلسلة من بلدان اوروبا الغربية.

وكان الحادث الحاسم لهذه الحقبة هو ثورة تموز - يوليو - عام ١٨٣٠ فى فرنسا. وما كانت النتيجة العملية المباشرة لهذه الثورة، بالنسبة لفرنسا، الا الاستعاضة عن السلطة الملكية نصف الاقطاعية بالسلطة الملكية لاكياس المال ومضاربى البورصة، غير أن دويها هز اوروبا من أقصاها الى أقصاها وزعزع الرجعية السوداء التى كانت تسودها. وعلى اثر هذه الثورة انفجرت انتفاضات ثورية فى بلجيكا وبولونيا وايطاليا واسبانيا. وبعد ثورة عام ١٨٣٠ فى فرنسا، التى لعب العمال فيها دورا حاسما فى نضال المتاريس، جرت فى هذه البلاد اول معارك البروليتاريا الطبقية المستقلة (تمردا نساجى ليون فى عامى ١٨٣١ و١٨٣٤). وتفاقم النضال الطبقى فى انكلترا أيضا حيث فتح الاصلاح البرلمانى عام ١٨٣٢ للبرجوازية الصناعية طريق الوصول الى السلطة. ومع وصول البرجوازية الى السلطة، برزت التناقضات بينها وبين البروليتاريا بروزا اقوى. ولم يلبث العمال الانكليز الذين اشتركوا اشتراكا فعالا فى الكفاح

من اجل الاصلاح البرلمانى والذين ايدوا مطالب البرجوازية السياسية، أن أدركوا خيانة البرجوازية، فدخلوا طريق الحركة العمالية المستقلة (حركة الميثاق او الحركة «الشارتية»).

ولقد أحدث نبأ ثورة تموز–يوليو–فى فرنسا تحركات فى الجماهير الشعبية فى بعض مناطق المانيا التى كانت آنذاك متأخرة اقتصاديا ومنقسمة سياسيا. غير ان حكام دويلات المانيا الذين صعقوا خوفا فى بادئ الامر لاذوا بسرعة بهدوء الاعصاب وطفقوا بحقد مضاعف يقمعون أدنى ظاهرة استياء سياسى. وكان يبدو من الوهلة الاولى انه عاد وخيّم على المانيا صمت كأنه صمت القبور. وما كان هذا سوى وهم: فما عادت اية الاضطهادات البوليسية لتستطيع أن تقمع الغضب الكاتم فى البلاد. وقد تميز النصف الثانى من العقد الرابع وبداية العقد الخامس فى المانيا بنمو النشاط الاجتماعى وبظهور تيارات وتجمعات معارضة متنوعة بين البرجوازية والمثقفين. ان هذه المعارضة التى اشتدت بشكل خاص فى اقليم رينانيا، وهو الاقليم الأكثر تطورا فى المانيا، كانت تتجه ضد الملكية الاوتوقراطية البروسية، وضد سيطرة الملاكين الاقطاعيين، وضد التعسف البوليسى الذى كان يقمع كل فكرة تقدمية. كانت العناصر المعارضة للنظام القائم ما تزال لا تجرؤ على الظهور بشكل سافر على المسرح السياسى بمظهر احزاب سياسية فكانت تؤلف حلقات ادبية وفلسفية حيث كان الفكر الناقد الذى ما يبرح وجلا، يظهر بشكل مؤلفات ادبية وفلسفية.

وقد تشكلت احدى هذه الجماعات المعارضة من انصار هيغل اليساريين المعروفين باسم «الهيغليين الشبان».

وكانت مأثرة هيغل العظيمة فى نظره الى جميع ظاهرات العالم من وجهة النظر الديالكتيكية، اى من وجهة نظر ظهورها وتطورها وزوالها. واعتمادا الى طريقته الديالكتيكية، حاول هيغل ان يكشف عن القوانين الداخلية لتطور الطبيعة والمجتمع البشرى، وأن يبين صراع التناقضات الذى يقوم على اساسه هذا التطور.

وعلى الرغم من سعة معارفه الموسوعية وطابع طريقته التقدمى، لم يوفق فى حل المهمة التى طرحها، اذ كان منهجه الفلسفى ذا نقص كبير: فقد كان هيغل مثاليا وكان ديالكتيكه كذلك. كان يعتقد أن اساس تطور الطبيعة والمجتمع هو تطور الروح، «الفكرة المطلقة»، التى كانت قيد الوجود قبل خلق العالم، وان هذه الروح، هذه الفكرة تؤلف مبدأ الكون. الاّ أن «الفكرة المطلقة» التى عزا اليها هيغل دور خلاق الطبيعة والمجتمع البشرى، ما كانت فى الحقيقة سوى ستار فلسفى للايمان بالله. وهكذا كان صرح الفلسفة الهيغلية المهيب يقوم على أرض فاسدة معفنة وهى بقايا الايمان الخيالي بالخالق.

أنطلق هيغل من مفهومه المثالى عن العالم فأحل «التطور الذاتى للفكر» محل التطور الواقعى للطبيعة والمجتمع فقلب كل شيء الى عكس مشوها ترابط الظواهر الواقعى. ولقد خان هيغل الديالكتيك لصالح منهجه الميتافيزيائى وطبق هذا الديالكتيك على الماضى فقط، لا على الحاضر والمستقبل. فمثلا كان يعتقد، خلافا لطريقته الديالكتيكية أن الملكية المراتبية التى وعد بها فريدريك غليوم الثالث ملك بروسيا رعاياه، هى «تتويج» لتاريخ البشرية، ودولة مثالية غير قابلة لا للتطور ولا للزوال.

وعلى خلاف ذلك تماما كانت اعتقادات انصار هيغل ممن تأثروا بثورة ١٨٣٠ فى فرنسا ويقظة الرأى العام وتعاظم التناقضات السياسية والاجتماعية فى المانيا. فاذا كان كل شيء يتغير واذا كان كل شيء موجود يزول حتما عاجلا ام آجلا ليخلى المكان لشيء جديد، أفلا ينجم عن ذلك ان سقوط الملكية البروسية وسيطرة الملاكين الاقطاعيين والطغيان البوليسى كان امراً لا مناص منه؟ كان انصار هيغل اليساريون هؤلاء يسعون الى استخلاص نتائج سياسية جذرية من فلسفة استاذهم. ولما كانت السياسة فى المانيا آنذاك «منطقة محرمة»، فقد شنوا الغارة، بصورة رئيسية، على الدين وهو احدى الدعائم الاساسية للملكية البروسية.

وقد ابتدأ نقد الدين هذا فى كتاب «حياة المسيح» شتراوس، هذا الكتاب الذى اجتذبت مطالعته انجلس الى دراسة الفلسفة الهيغلية. وقد كتب فى ٢١ كانون الثانى — يناير — ١٨٤٠ الى فريدريك غريبر يقول: «اننى أسير بفضل شتراوس سيرا مستقيما الى الهيغلية». وأردف يقول انه يلتذ كل مساء بمطالعة «فلسفة التاريخ» لهيغل.

غير انه، كما كتب هو بنفسه الى غريبر، لم يكن يستطيع أن يصير «هيغليا متعنتا». ان مذهب هيغل وكذلك الافكار التى طورها انصاره اليساريون ما كانت لترضيه، اذ كان هؤلاء يقتصرون على المسائل الفلسفية والدينية الصرف ويبقون بعيدين عن التطبيق والحياة اليومية والسياسة.

وهذا النقص سدته — حسب رأى انجلس — أفكار لودفيغ بورنه الذى نعته انجلس بانفعال فى

رسالته الى غريبر: «...مناضلا جبارا فى سبيل الحرية والعدالة».

كان بورنه – وهو صحفى وناقد المانى – لا يفتأ يقدح بقسوة العلماء النزاعين الى ترك أرض الواقع ليلجؤوا الى حالق «النظرية الصرف». وكان على اقتناع بأن الكاتب والشاعر والعالم يجب أولا أن يكونوا مواطنين. وكان بورنه يرى فى ريشته قبل كل شيء سلاحا فى المعارك السياسية كما يرى رسالته فى أن يقوم بمهمة ايقاظ الشعب الالمانى الهاجع تحت حماية «المربين» البوليسيين وفى «نزع اللحاف الملقى على جسمه». وما كانت النداءات المتحمسة للنضال فى سبيل الحرية، والتى كان لودفيغ بورنه، هذا الكاتب المهاجر، يوجهها الى الشعب الالمانى ولا سيما الى الشبيبة الالمانية، وكذلك نضاله العنيد ضد الشوفينية الالمانية، ما كان كل ذلك إلاّ واجدا صدى عميقا فى نفس انجلس الشاب.

كتب انجلس يقول أن هيغل وبورنه كأنهما يتكاملان احدهما الآخر. واذا كان هيغل ممثلا للعلم الفلسفى المجرد وللتفكير فان بورنه كان ممثلا للتطبيق السياسى العملى يجيد تصوير سمو العمل احسن من اى احد آخر. كان انجلس يشير الى ضرورة الوحدة والتعاون بين العلم والحياة وبين الفلسفة والسياسة وبين الفكر والعمل.

ان رسائل انجلس الشاب (فى التاسعة عشرة من العمر) وكتاباته الادبية الاولى تدل على حماسته السياسية ونزعته الثورية. كان يحلم فى اللحظة التى «ينهار فيها العالم القديم» ويسعى الى «ذروة الوجود وهي المأثرة».

وفى أشعار نظمها انجلس بمناسبة الذكرى التاسعة لثورة تموز – يوليو – فى فرنسا، يهتف مذكّرا ملوك المانيا:

العاصفة هبت من فرنسا الينا،
والجماهير الشعبية تحركت
والعرش يترنح كزورق
وسط العاصفة
والصوالجة تهتز فى ايديكم!

ونشر بعض ابيات انجلس فى مجلة «تلغراف المانيا» لسان حال الجماعة الراديكالية الادبية «المانيا الفتية» التى كانت تحت تأثير هنرى هاينه ولودفيغ بورنه. وعلى الرغم من عدم نضوج هذه الجماعة الايديولوجى وعدم جلاء آرائها السياسية، كانت نزعة ممثليها لتقريب الادب من الحياة الاجتماعية وجره الى الكفاح السياسى تجذب انجلس اليها. ولكنه كان فى الوقت ذاته ينتقد كتاب الجماعة وشعراءها ويتهكم عليهم بسبب ميولهم الى «الحزن العالمى» وبسبب تشبع مؤلفاتهم بروح التشاؤم ونبرة اسلوبها الحزينة الباكية، اذ كانت هذه الروح غريبة على انجلس كل الغرابة. ولم يكن يقنط على الرغم من قتامة الوضع السائد فى المانيا وكان يبشر بالنضال المقبل ولا يشك فى الانتصار. فقد بدأ انجلس قصيدته «المساء» بجملة مستقاة من بيت شيلى، شاعره المفضل الانكليزى: «فان غدا لناظره قريب!» وفى القصيدة يصور انجلس الظلمات السائدة فى المانيا، بالتعابير التالية:

...أترى الليل البهيم سيبقى طويلا يخيم على الاودية؟
ونظرة القمر الحزينة تنسل الى الحقول...
ويلف الروابى ضباب كثيف...
والعالم المتعب يهجع فى الضباب.
اننا نحن نسهر ولكن خطانا كأنها خطا العميان.

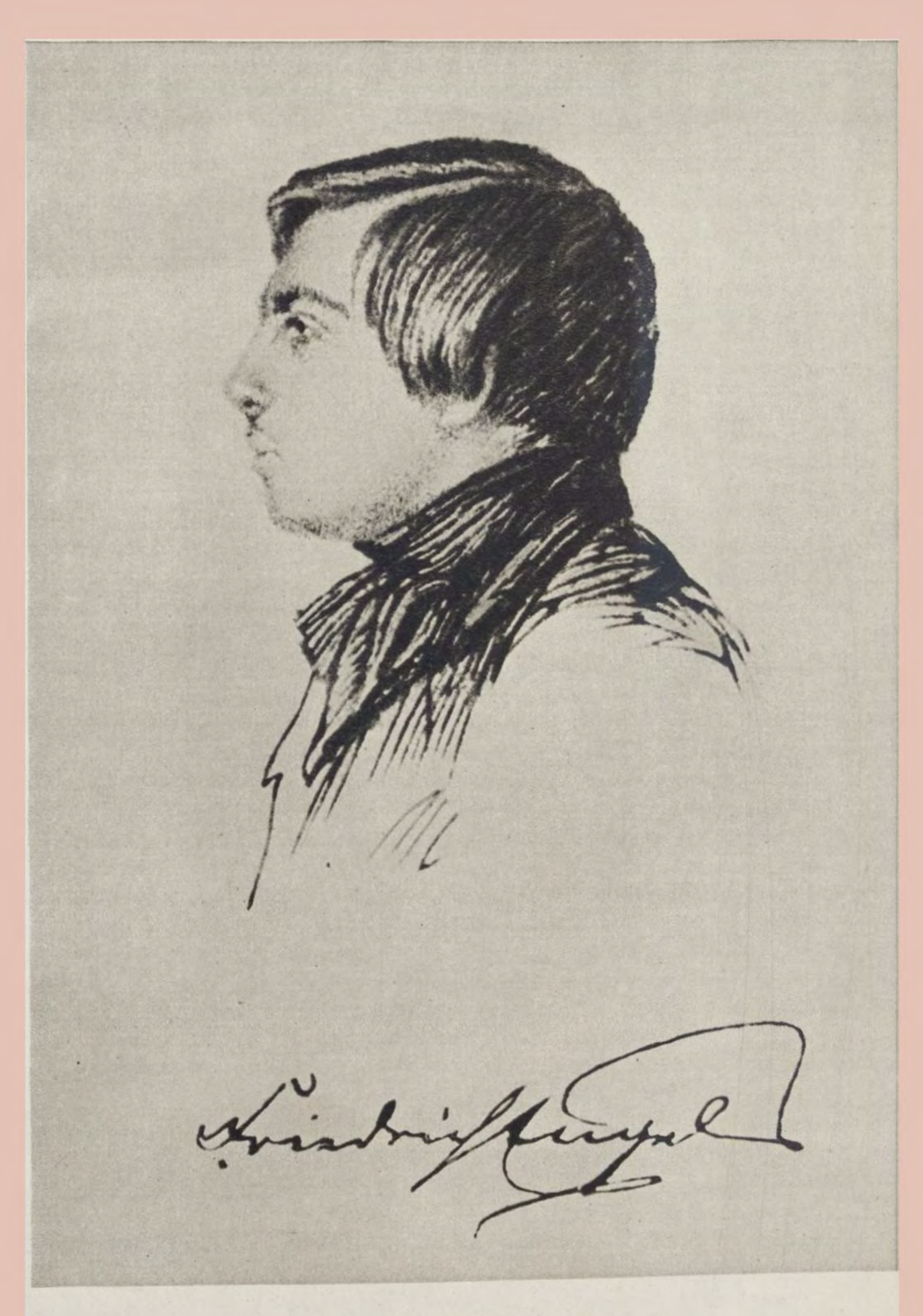
وعلى الرغم من قتامة هذه اللوحة، لا ييأس انجلس الشاب اذ انه يعرف أنه لا بد لليل من مرور وأن «فجر الحرية قد أخذ يبزغ». فكان يحلم فى الوقت الذى فيه:

سوف تصير الارض كلها روضة حالية بالزهور.
وسوف يزهر كل ركن من اركانها بنباتات جديدة.
وسوف يغطى نخيل السلام مساحات الشمال
وسوف توشى الورود الحقول التى كانت متجمدة.

كان انجلس يغتم من رؤية نفسه عاجزا عن ابداء افكاره بشكل شعرى جيد فاستعاض تدريجيا عن «قيثار» الشاعر بريشة الصحفى.

لقد كانت مقالات انجلس الموقعة باسم مستعار «ف. أوسوالد» والتى نشرها فى «تلغراف المانيا» تحدث تأثيرا أقوى بكثير من مؤلفاته الشعرية. ان «رسائل من وبرتال»، مثلا، قد اثارت عاصفة من الحنق والغيظ فى الوسط الاكليريكى والمستغل الذى فضحه انجلس فيها. كان سكان وبرتال يتيهون فى لجة الافتراضات حول مؤلف المقالات، وكان بعضهم ينسبها لفريليغرات بينا كان البعض الاخر ينسبها الى غوتزكوف، محرر مجلة «تلغراف المانيا»، الا أنه ما من أحد كان يفكر فى البحث عن مثير ثائرة وبرتال وسط أسرة صناعى محترم من بارمن. كان انجلس عندما يخبر اصدقاءه بأنه كاتب تلك المقالات، يرجوهم بالحفاظ على السر: «والا فان يد المنون تنالنى».

ان مقالاته المنشورة فى «تلغراف المانيا» وكذلك رسائله الى اصدقائه تظهره ديموقراطيا ثوريا متحمسا. ان هذه الكتابات لانجلس الشاب تعبر عن الحقد الذى كان يشعر به نحو المَلَكية، عن حبه العميق للشعوب المظلومة



فريدريك انجلس
(عام ١٨٣٩)

وعن شغفه الثورى بالنضال. كتب لأحد اصدقائه: «ما من فترة رأت مثل هذا القدر من جرائم الملوك كما رأت فترة ١٨١٦ـ١٨٣٠؛ فان كل ملك من الملوك تقريبا ممن حكموا فى هذه الحقبة كان يستحق عقوبة الاعدام». وقد كتب باحتقار خاص عن شخصية فريدريك غليوم الثالث ملك بروسيا: «...أخس ملك وأحطه وأكرهه، لعنة الله عليه...». وهتف فى خاتمة رسالته: «...أوه، أستطيع أن أروى لك حكايات شيقة بموضوع حب الملوك لرعاياهم. اننى لا أتوقع شيئا مجديا من الملك الا فى اليوم الذى يشعر بصداع الصفعات ينالها من الشعب وتكسر الثورة زجاج قصره».

ومن البديهى ان انجلس لم يكن يستطيع أن يعبر فى الصحافة عن آرائه السياسية بهذه الصراحة، الا انه ناضل بمقالاته ضد الملكية ونظام الفئات المراتبى وامتيازات النبلاء وتحكم أسياد الأرض والدواوينيين (البيروقراطيين).

وكان يسخر من الارستوقراطيين المزدهين باصلهم: «...انهم بارونات من رأسهم حتى أخمص قدمهم، ان كل قطرة من دمهم ثمرة أربعة وستين زواجا متناسبا وكل نظرة من نظراتهم تحد». وكان انجلس ينتقد الملكية الاقطاعية انتقادا شديدا، وكان يقدر أن الحقد المكبوت فى صدور الشعب المحروم من الأرض لا بد أن ينهال عاجلا ام آجلا على الفئة الارستوقراطية وعلى المَلَكية التى تعتمد على هذه الفئة. وكمعارضة لهذا النظام المراتبى ولامتيازات النبلاء تقدم انجلس بهذا الشعار: «لا فئات مراتبية، فى سبيل أمة عظيمة موحدة لمواطنين يتمتعون بحقوق متساوية!»

وقد نادى فى مقالاته بالمهمة الاساسية للثورة البرجوازية فى المانيا وهى توحيد البلاد المجزأة سياسيا

واقتصاديا آنذاك الى ثلاث دستات من دول كبيرة وصغيرة وصغيرة جدا. وكتب انجلس يقول: «ما دام وطننا مجزأ فلسنا بذوى قيمة من الناحية السياسية وليست الحياة الاجتماعية والحياة الدستورية الصحيحة وحرية الصحافة وغيرها من مطالبنا سوى تمنيات طيبة فارغة لم يكتب لها ان تتحقق بصورة كاملة...»

كان انجلس اذ يكافح فى سبيل خلق دولة المانية ديموقراطية موحدة، يفضح محاولات بروسيا الرامية الى الحصول على الزعامة لدى هذا التوحيد. فشن حملة ضارية على هذه الدولة التى هى أكثر دويلات المانيا رجعية معتقدا بأن سيل التاريخ العرم سيجرف نهائيا «سد نزعتى المحافظة والبروسية».

هذه هى الافكار السياسية التى تقدم بها انجلس فى مقالاته ورسائله التى كتبها حينما كان يشتغل كاتبا تجاريا فى بريمن. وقد وسعت آراؤه السياسية هذه تلك الشقة التى فصلته عن زملائه القدامى فى المدرسة على أثر تركه «الايمان الوبرتالى». وارتاع اصدقاء انجلس الوبرتاليون من آرائه السياسية فحاولوا أن «يعيدوه الى جادة الصواب» ولكن هذا جلب جوابا لاذعا منه. فقد كتب فى ٢٠ من شهر تشرين الثانى – نوفمبر – ١٨٤٠ لولهيلم غريبر يقول: «ليس لك، ايها القبعة الليلية فى السياسة، أن تعيب معتقداتى السياسية. يكفيك أن تترك تعيش هادئا فى خورنية قريتك (انك لا تطمع الى هدف أسمى من هذا)، يكفيك أن تعطى امكانية التجول كل مساء مع السيدة زوجتك الخورية وبعض من ذريتكما الفتية دون ان يمسك

اى اذى، لكى تشعر بالبهجة الكاملة وتنسى وجود هذا الخبيث انجلس وأفكاره المناوئة للنظام القائم. يا لكم من ابطال!»

هذه الرسالة هى أحدى الرسائل الأخيرة التى ارسلها انجلس الى رفاقه فى المدرسة. فما عاد يستطيع أن يتجاهل أن هوة سحيقة قد فصلت بينه وبين اصدقائه القدامى بعد اقامته عامين ونيف فى بريمن. لقد قطع خلال هذه الفترة من الزمن طريقا طويلا مليئا بالصراع الداخلى، وانتقل من «الايمان الوبرتالى» الى مذهب هيغل ثم الى التفسير الثورى لهذا المذهب، ومن استياء مبهم تجاه الواقع الى مفاهيم ديموقراطية ثورية.

ان ثقافته الواسعة ومزاجه الثورى وعطفه العميق على آلام الجماهير الكادحة، ان هذا كله قد سما به كثيرا فوق مستوى وسطه الاخلاقى.

* * *

وفى ربيع عام ١٨٤١ عاد انجلس الى وبرتال حيث ذهب من هناك الى اداء خدمته العسكرية. ومع أنه كان بامكانه تجنبها بصفته ابن عائلة ميسورة الا انه فضل اداءها واختار برلين لهذا الغرض. كانت العاصمة البروسية مدينة مملة بيروقراطية ولكنها كانت تملك مع ذلك مكانا ما تفتأ فيه الصراعات الايديولوجية والمناقشات تفور وتغلى، هو جامعة برلين. وهذا ما دفع انجلس المولع بالاشتراك فى المعارك الفكرية وبتكميل ثقافته الى الخدمة فى برلين.

وقبل أن يقصد برلين قام برحلة عبر سويسرا وشمال ايطاليا. ان مذكرات سفره تتيح للمرء أن يستشف مغامرة غرامية تعذب انجلس منها. انه يصف نفسه واقفا على

احدى قمم الالب «...حزين القلب، محطما بعد سعادة عظيمة تمتع بها قبل شهر. ولكن أى شكوى يمكن ان تتجلى أمام جمال الطبيعة أكثر من هذه الشكوى التى ينتزعها من الصدر أنبل ألم واسماه، الا وهو الم الحب؟»

فى خريف ١٨٤١ وصل انجلس الى برلين وانخرط جنديا متطوعا فى فرقة للمدفعية حيث استمتع بكل «سحر» التربية العسكرية البروسية. غير انه قد عرف كيف يستفيد من خدمته العسكرية ليتقن تعلم فنون الحرب ولم يلبث أن صار قائد مدفع. ومنذ اقامته فى ثكنات كوبفيرغرابن صارت دراسة الفن العسكرى من احب العلوم اليه.

كان انجلس فى ساعات فراغه يتردد على جامعة برلين بصفة مستمع حر موليا اجتهاده بصورة خاصة الى محاضرات الفلسفة.

ارتبط حينذاك فى برلين بحلقة الهيغليين الشباب التى كان ينتمى اليها الاخوان ادغار وبرونو باوير وماكس شتيرنر وغيرهم. أما ماركس الذى كان قبل وقت قريب على اتصال بهذه الحلقة وكان يتميز بين اعضائها بطبعه المتحمس وتفوقه العقلى فقد ذهب قبل قدوم انجلس. ان رسالة الصحفى هس التى بعثها الى الكاتب اورباخ ترينا التأثير الذى كان يحدثه ماركس منذ تلك الفترة فيمن حوله وهو خريج الجامعة الحديث. لقد وصفه هس بأنه «فيلسوف عظيم أو ربما هو **الفيلسوف الحقيقى الوحيد** فى وقتنا... الذى لن يلبث أن يجتذب أنظار كل المانيا... ان الدكتور ماركس - هذا هو اسم معبودى - ما يزال شابا (لا يزيد على الرابعة والعشرين) سوف ينزل ضربات قاتلة بالافكار القروسطية فى الدين والسياسة. وهو يجمع تفكيرا

فلسفيا عميقا الى رهافة فكر نادرة. تصور روسو وفولتير وهولباخ وليسينغ وهاينه وهيغل مجسدين كلهم فى شخص واحد، أقول **مجسدين** وليسوا مجتمعين اجتماعا آليا واذا امامك الدكتور ماركس».

لم يتمكن انجلس من التعرف عليه لان ماركس كان قد غادر برلين فى ربيع عام ١٨٤١، ولكن اصدقاءه الجدد لا يفتأون يحدثونه عنه كثيرا. ومنذ ربيع ١٨٤٢ صار ماركس احد صحافيي «الجريدة الرينانية» التى نشر فيها انجلس سلسلة من المقالات، ثم اصبح رئيس تحريرها فى شهر تشرين الاول – اكتوبر – من السنة نفسها.

ما كاد انجلس يستقر فى العاصمة حتى انخرط بحماسة فى المجادلات الفلسفية التى كان ينغمر فيها الهيغليون اليساريون آنذاك وقد نشر فى كانون الاول – ديسمبر – ١٨٤١ فى «تلغراف المانيا» مقالا بعنوان «شيلينغ عن هيغل» وذيله بتوقيع «ف. اوسوالد». وفى ربيع السنة التالية أصدر كراسا مغفلا بعنوان «شيلينغ والوحى». وبعد ذلك بقليل نشر كتابا مغفلا ثانيا عنوانه «شيلينغ فيلسوف باسم المسيح أو تحويل الحكمة الارضية الى حكمة الهية». كانت جميع هذه الاعمال تحتوى نقدا صاعقا لافكار شيلينغ الرجعية والمثالية.

ولكى يدرك المرء سبب اندفاع انجلس الشاب الى المبارزة ضد الفيلسوف الالمانى الشهير، حسبه أن يقرأ العنوان الثانوى لكراس «شيلينغ والوحى»: «تحليل نقدى لهجوم الرجعية الجديد على الفلسفة الحرة».

كانت الحكومة البروسية التى رأت سابقا فى مذهب هيغل فلسفة الدولة لمملكة بروسيا قد أخذت تقلق من

الاستنتاجات الراديكالية التى يستنتجها الهيغليون اليساريون من فلسفة استاذهم. كانت الحكومة البروسية تعتبر الدين والكنيسة أرسخ سند لها، فلم يكن فى وسعها أن تحتمل تحول جامعة برلين وفى اثرها سائر جامعات البلاد الى مراكز لترويج الفكر الحر فى الدين والسياسة. ولهذا حرمت الاساتذة المعروفين بتعلقهم بفلسفة هيغل، من كراسيهم، وارسلت شيلينغ الى جامعة برلين ليضع فلسفته «فى خدمة ملك بروسيا»، حسب تعبير انجلس.

أما شيلينغ الذى طبقت شهرته آفاق البلاد فكان بعيدا عن أن يرتاب بالعدو القوى فى شخص هذا الجندى المتطوع، هذا المستمع الحر فى الجامعة، الضائع بين جماهير الطلاب.

انكب انجلس على العمل بعد ما قارن تسجيلاته للمحاضرات بتسجيلات زميلين له لكى يتحقق من صحتها. وبحماسة الشباب وطبيعته المندفعة، انهمك هذا الطالب الفتى، الجندى والفيلسوف، فى المعركة ضد العالم الشهير. وقد كتب يقول: «...ان للمقاتل بعض الشغف. ان من يشهر سيفه ببرود قلما يكون متحمسا للقضية التى يدافع عنها»*.

ان الكراريس والمقالات التى كتبها انجلس فى هذه الحقبة تفضح محاولات شيلينغ الى التوفيق بين الدين والعلم وبين الايمان والمعرفة.

كان انجلس على عكس شيلينغ الذى يريد أن يهزم فلسفة هيغل، يدافع عن الجانب التقدمى من الهيغلية ويكشف، من الناحية الاخرى، الجانب السلبى عند هيغل وهو التناقض السافر بين «ديالكتيكه الثائر» واستنتاجاته السياسية المحافظة.

---

* انجلس. «شيلينغ عن هيغل».

كان انجلس اذ نقد فلسفة شيلينغ الصوفية الرجعية، أول من رفع راية الالحاد بشكل سافر بين الهيغليين الشباب. وقد اشار عند ذلك غير مرة الى كتاب «جوهر المسيحية» لفورباخ (١٨٤١) وهو الكتاب الذى تأثر به انجلس كثيرا اذ يحتوى نقد الدين من مواقع المادية.

ان كتابات انجلس المناوئة لشيلينغ، وان كانت تنطلق، بصورة رئيسية، من المواقع المثالية، الا انها كانت تبشر بانتقال كاتبها الى المادية. وقد كانت مؤلفاته الفلسفية هذه تتميز كذلك عن كتابات سائر الهيغليين الشباب بروحها الكفاحى الثورى وبطابعها السياسى الفعال. كان انجلس يدرك كل الادراك أن الامر لايقتصر على جدال فلسفى صرف مع شيلينغ بل يقصد محاربة الرجعية والدجل والجهالة التى تحميها الملكية البروسية. وكانت تلوح فى كتابات انجلس الفلسفية هذه زمجرة رعد الثورة الصاعدة. وقد كانت هذه الثورة هى الشىء الذى حياه انجلس الشاب حينما انهى كراسه «شيلينغ والوحى»، بهذا النداء الكفاحى: «لنناضل ونسفك دماءنا، لنجابه بجرأة نظرات اعدائنا الحانقة، مقاتلين حتى الرمق الأخير! الا ترون راياتنا ترفرف على قمم الجبال؟ ألا تبصرون بريق سيوف رفقائنا الخاطف وريش قبعاتهم التى تداعبها الريح؟ ان جحافلهم تتقدم من كل صوب وتسرع الينا من الوهاد والنجاد وهى تهزج. ان يوم الحل العظيم، يوم معركة الشعوب يقترب، والنصر لنا!»

كان عدد قليل جدا من الاشخاص يعرف أن هذه الكتابات النقدية الحادة ضد الفيلسوف المشهور شيلينغ ليست من ريشة «عالم ضليع» بل من ريشة كاتب تجارى

سابق فى بريمن وجندى متطوع متواضع معروف فى فرقته المدفعية باسم فريدريك انجلس.

لقد أطرى ارنولد روغه محرر «الحولية الالمانية» وأجزل الثناء بحماسة على كراس انجلس «شيلينغ والوحى» واستفسر منه لماذا لم يرسل مخطوطاته الى مجلته لنشرها فيها. فلم يكن لدى روغه ادنى ريب فى أن مثل هذا الكتاب لا يمكن أن يكون الا من تأليف فيلسوف ضليع كان روغه يلقب كاتبه «بالدكتور». أما انجلس فقد سارع فى جوابه الى تصحيح هذا الغلط اذ كتب يقول: «اقول لك بالمناسبة انني لست دكتورا ولن أستطيع أن اكون كذلك؛ انني لست سوى تاجر بسيط وجندى فى المدفعية فى خدمة ملك بروسيا. ولهذا ارجوك ألا تعود الى نعتى بهذا اللقب».

وفى رسالته التالية يفضى انجلس الى روغه بأنه «اتخذ قرارا بان يترك كل نشاط ادبى لفترة من الوقت» ويشرح اسباب ذلك على هذا النحو: «انني شاب ثقفت نفسى فى الفلسفة. صحيح ان معارفى كافية لتكوين رأى لى والدفاع عنه عند الاقتضاء، ولكنها غير كافية لأن افعل ذلك بنجاح حقا. ان الناس سيتشددون تجاهى اذ لست سوى «تاجر رحال فلسفى» ولا أملك شهادة الدكتور التى تجيز لى أن اشتغل بالفلسفة. آمل حينما سأكتب شيئا فيما بعد وأوقعه باسمى، أن أكون قادرا على ان ارضى جميع هذه المتطلبات. ومن جهة ثانية لا أستطيع الآن أن ابدد جهودى لأن كل شيء يحمل على الاعتقاد بأن الشئون التجارية سوف تأخذ مني عما قريب المزيد من الوقت».

لقد أثار الاسم المستعار «ف. اوسوالد» عشرات من التخمينات. كان بعض القراء يظنون أنه غوتزكوف، رئيس جماعة «المانيا الفتية». بيد أنهم قد دهشوا كثيرا حينما أخذ «ف. اوسوالد» يهاجم «المانيا الفتية» ورئيسها، وعلى الاخص يونغ، الكاتب والمؤرخ الادبى المرتبط بهذه الجماعة. ففى مقال كرسه انجلس لحلقة محاضرات يونغ عن الادب الالمانى المعاصر، انتقد الموقف الغامض لاعضاء «المانيا الفتية» ونشاطهم السياسى غير الكافى، وانعدام وجهة النظر الثابتة فى مجادلاتهم الفلسفية وفقر المحتوى الايديولوجى لمؤلفاتهم الادبية.

ان القطيعة النهائية بين انجلس الشاب و«المانيا الفتية» كانت تعنى انه قطع مرحلة اخرى فى تطوره.

أنهى انجلس خدمته العسكرية فى ٨ تشرين الاول – اكتوبر – عام ١٨٤٢. وما ان عاد الى بارمن حتى عرض عليه أبوه أن يذهب للتمرن بالاعمال التجارية فى انكلترا، فى معمل الغزل «ارمن وانجلس» بمانشستر.

ومن المحتمل ان اباه لم يكن مسترشدا فى ذلك برغبته فى اتقان مهارة ابنه التجارية وحسب، بل ايضا برغبته فى ابعاده عن المحيط الذى يزداد استعارا فى المانيا حيث كانت الثورة تنضج. وعلى الرغم من ان انجلس لم يكن يوقع كتاباته الصحفية باسمه حتى ذلك الحين، غير أن معتقداته الديموقراطية الثورية لم تعد خافية على أسرته على ما يبدو. اننا لا ندرى هل عارض انجلس مشروع أبيه أم وجد هذا السفر موافقا لرغباته. على أن ثمة شيئا أكيدا، وهو أن اقامته فى انكلترا كانت مخصبة كل الخصب بالنسبة له وأحدثت انعطافا حقيقيا فى تطوره الفكرى.

٣

انتقال انجلس الى المادية والشيوعية

وصل فريدريك انجلس الى لندن فى يوم غائم من شهر تشرين الثاني – نوفمبر – ١٨٤٢. كانت العاصمة الانكليزية حينذاك تختلف عن العاصمة البروسية بقدر ما كانت انكلترا، بلد الرأسمالية الكلاسيكى ووطن الصناعة الكبرى، تتميز عن المانيا، البلاد المتأخرة والزراعية بشكل رئيسى.

كانت انكلترا، حتى فى اواسط القرن الثامن عشر ما تزال لا توجد فيها مدن كبيرة وكانت صناعتها بدائية وسكانها أغلبهم زراعيون، الا أن هذا الوضع قد تغير كل التغير بالثورة الصناعية التى حدثت بعدئذ فى هذه البلاد. ان اختراع الآلات فى صناعة النسيج وغيرها من الصناعات والماكنة البخارية وظهور المصانع قد جعلت انكلترا بلدا صناعيا يزود ببضائعه العالم بأسره. وعدا العاصمة، انتصبت فى انكلترا مدن صناعية كبيرة فيها سكان عمال كثيرون، وظهرت طبقتان جديدتان: البرجوازية الصناعية و «أهم وليد لهذا الانقلاب الصناعى» (انجلس)، وهو البروليتاريا الانكليزية.

لم يكن فى هذه الحقبة بلاد يبرز فيها بهذه القوة التفاوت الكبير بين بؤس العمال وآلامهم من جهة، وبذخ

الطبقـات المالكة وترفهـا من جهة اخرى، ولم تبرز ثمة التناقضات بين البرجوازية والبروليتاريا بمثل هذه القوة الصارخة كما كان الحال فى انكلترا.

ان حدة التناقضات الطبقية فى هذه البلاد قد أثرت فى نفس انجلس الى حد انها حملته على أن يبدأ احدى مقالاته الاولى التى كتبها بعد وصوله الى انكلترا بهذا السؤال: هل الثورة ممكنة، هل هى محتملة فى انكلترا؟ وأجاب أن الصناعة الانكليزية قد ولدت طبقة غير مالكة تزداد يوما بعد يوم وتدرك اكثر فاكثر أن الاطاحة بالعلاقات القائمة عن طريق القوة، والاطاحة بارستوقراطية الارض والارستوقراطية الصناعية، هذه الاطاحة وحدها هى التى تستطيع تحسين وضع البروليتاريا المادى.

وهكذا رأى انجلس، بفكره الثاقب، فى البروليتاريا القوة الاجتماعية المدعوة الى تحقيق الانقلاب الاجتماعى.

درس انجلس بامعان وعطف وضع العمال الانكليز ومعيشتهم وآراءهم واشكال نضالهم وطرائقه. ولم يقتصر على المطبوعات والوثائق الرسمية. ففى ندائه «الى الطبقة العاملة فى بريطانيا العظمى» التى صدّر بها كتابه «وضع الطبقات الكادحة فى انكلترا»، كتب يقول: «...أردت أن أراكم فى بيوتكم وأراقبكم فى حياتكم اليومية وأجاذبكم أطراف الحديث عن حالتكم وحاجاتكم وأشهد كفاحكم ضد سلطة ظالميكم السياسية والاجتماعية» *.

كان انجلس يضرب فى شوارع لندن ولدس ومانشستر ويزور الاحياء العمالية. وقد درس بدقة خاصة الحياة فى

---

* انجلس. «وضع الطبقات الكادحة فى انكلترا».

مانشستر حيث أمضى أكبر قسط من اقامته فى انكلترا. وكان فى اوقات فراغه يبادر الى مغادرة وسط المدينة ليذهب الى احياء المدينة التى يسكنها العمال. ولا تندر ان تكون حبيبته وهى العاملة الارلندية الصبية مارى بورنس التى تعرف عليها فى مانشستر ترافقه فى نزهاته. كانت تقوم مقام الدليل له حينما كان يطوف فى «ارلندا الصغيرة»، وهو حى فى مانشستر آهل بالعمال الارلنديين على الاخص.

وكان رفيقه فى مرات أخرى الشاعر الالمانى ويرت، مؤلف سلسلة من المقالات عن وضع الطبقة العاملة الانكليزية، انتهت احداها بهذه الكلمات: «انهي هذه النبذة القصيرة عن البروليتاريا الانكليزية، وانى لسعيد من فكرة أن واحدا من أسمى العقول الفلسفية فى المانيا قد تناول الريشة ليكتب كتابا مفصلا عن حياة العمال فى انكلترا. ولسوف يكون هذا كتابا قيما للغاية. وفى مقدور هذا الكاتب – خيرا منى – أن يعرض الوقائع المنفردة بلونها الطبيعى. لقد أتيح له أكثر منى أن يراقب العمال بفضل اقامته الطويلة فى مانشستر، مهد البروليتاريا...».

ان اقامة انجلس فى انكلترا توافق نهوض حركة الميثاق التى تتبعها لا كشاهد بسيط بل كمشترك فى اجتماعات الميثاقيين الدستوريين متصلا مع قادة الجناح اليسارى فى الحركة. وبعد سنوات عديدة، تذكر هارنى، احد زعماء هذا الجناح، مجىء شاب رشيق يتكلم الانكليزية بطلاقة تامة، الى ادارة تحرير جريدة «نجمة الشمال» («ذى نورثرن ستار»)، لسان حال حركة الميثاق، وأعلن هذا الشاب أنه قارئ مواظب لهذه الجريدة وعبر عن اهتمامه البالغ بهذه الحركة. لقد كان هذا الشاب انجلس.

وقد اتصل انجلس أيضا بالاشتراكيين الانكليز، مؤيدى مذهب الاشتراكى الطوباوى روبرت أوين، وصار يشتغل فى جريدتهم «العالم الخلقى الجديد» حيث نشر سلسلة من المقالات عن الحركة الاشتراكية فى اوروبا. وفى هذه المقالات كان انجلس يطلع العمال الانكليز على حالة الحركة الاشتراكية فى فرنسا والمانيا وسويسرا، ويعرض افكار الاشتراكيين الطوباويين سان سيمون وفوريه وكذلك الآراء التى يتبناها مفكرون أمثال كابيه وليرو وبرودون ويتلينغ. وكان يشرح بايجاز نظريات كانط وفيختة وشيلينغ ومفاهيم هيغل، ذروة الفلسفة المثالية الالمانية. كان انجلس فى شرحه لافكار الاشتراكيين الطوباويين الفرنسيين وافكار الفلاسفة المثاليين الالمان لا يقتصر على نقد نقائصهم ونقاط ضعفهم، بل يشير ايضا الى الافكار الايجابية التى قدمها كل واحد منهم الى كنز الثقافة العالمية.

كان انجلس فى تحليله لآفاق تطور الاشتراكية فى المانيا يفترض حينذاك أن الالمان الذين يصفهم بالامة الفلسفية، سيصلون الى الشيوعية سالكين طريقا خاصا بهم، طريقا «فلسفيا» وأنه توجد فى المانيا ــ بسبب ذلك ــ ظروف لخلق حزب شيوعى بين الطبقات الميسورة والمثقفة.

ففى مقاله «نجاحات الحركة من اجل الاصلاح الاجتماعى فى القارة»، يروى انجلس أن بعض انصار هيغل اليساريين قد توصلوا فى خريف عام ١٨٤٢ الى الاستنتاج القائل بان الاصلاحات السياسية وحدها لا تكفى

وان الثورة الاجتماعية المستندة الى الملكية المشتركة هى فقط التى تتيح اقامة نظام اجتماعى مطابق لمبادئهم المجردة. وكان انجلس يسمى ماركس بين هؤلاء الهيغليين اليساريين الذين ينتمى هو نفسه اليهم ايضا. ومن هنا يمكن للمرء أن يستنتج ان انجلس قبل رحيله الى انكلترا قد خطا خطواته الاولى الى الشيوعية غير انها كانت شيوعية غامضة، غير واضحة المعالم.

لم يصر انجلس شيوعيا بشكل نهائى الا خلال اقامته فى انكلترا.

ان هذه المرحلة الهامة من مراحل تكوّن آرائه وجدت تعبيرا ساطعا عنها فى بحثه «نبذات فى نقد الاقتصاد السياسى» وقد نشره فى مجلة «الحوليات الفرنسية الالمانية»، الصادرة فى شباط – فبراير –١٨٤٤ فى باريس بتحرير ماركس وروغه. ومع ان هذه النبذات لم تكن عملا من اعمال الماركسية الناضجة، الا أن المرء يجد فيها بوادر افكار عبقرية. وقد سماها ماركس نفسه فيما بعد بالنبذة العبقرية، وكتب انجلس فى عام ١٨٨٤ أنه يعتز قليلا بهذا العمل الاول فى مضمار العلوم الاجتماعية على الرغم من كل نقائصه.

افتتح انجلس بهذه المقالة نقد الاقتصاد السياسى البرجوازى، وبالتالى، نقد الرأسمالية من مواقع البروليتاريا. وعلى خلاف الاقتصاديين البرجوازيين حتى خيرتهم مثل آدم سميث ودافيد ريكاردو اللذين كانا يعتبران قوانين الرأسمالية خالدة لا تتغير، كان انجلس – على حد قول لينين – قد «حلل من وجهة نظر الاشتراكية الظواهر الجوهرية للنظام

الاقتصادى المعاصر بوصفها نتائج لا مناص منها لسيطرة الملكية الخاصة » *.

وقد استنتج انجلس من جراء نقده للاقتصاديين البرجوازيين الذين يخفون المصالح الانانية للبرجوازية تحت ستار من الجمل الانسانية المنافقة، أن الاقتصاديين « كلما اقتربوا من عصرنا، كلما ابتعدوا عن النزاهة ». وقد نقد بحزم خاص « النظرية » الرجعية غير الانسانية لمالتوس، الذى زعم ان عدد السكان يتزايد دائما أسرع من تزايد الأقوات. واذ ذاك كان مالتوس يحاول أن يحمل الطبيعة مسؤولية آفات الرأسمالية وآلامها. وقد فضح انجلس بحنق « هذه النظرية الدنيئة الخسيسة، هذا التشويه السافل لوجه الطبيعة والانسانية » وبيّن أن القوى المنتجة فى المجتمع لا ينضب معينها وأن العلم يخضع الطبيعة للانسان اكثر فاكثر. وانمايجب فقط أن تستغل هذه القوى استغلالا عقلانيا ولخير الجميع. وهذا لا يمكن تحقيقه الا فى مجتمع لا وجود فيه لسيطرة الملكية الخاصة وبالتالى، لا وجود فيه للبؤس المدقع فى قطب من المجتمع والثروة الفاحشة المكدسة فى القطب الآخر.

ان انتقال انجلس الى مفاهيم الشيوعية جرى باوثق الارتباط مع تطوره من المثالية الى المادية.

ينقسم الفلاسفة الى معسكرين كبيرين: مادى ومثالى، حسب الجواب الذى يعطونه على السؤال عن العلاقة بين الفكر والكون وبين الروح والطبيعة. يتألف المعسكر المثالى

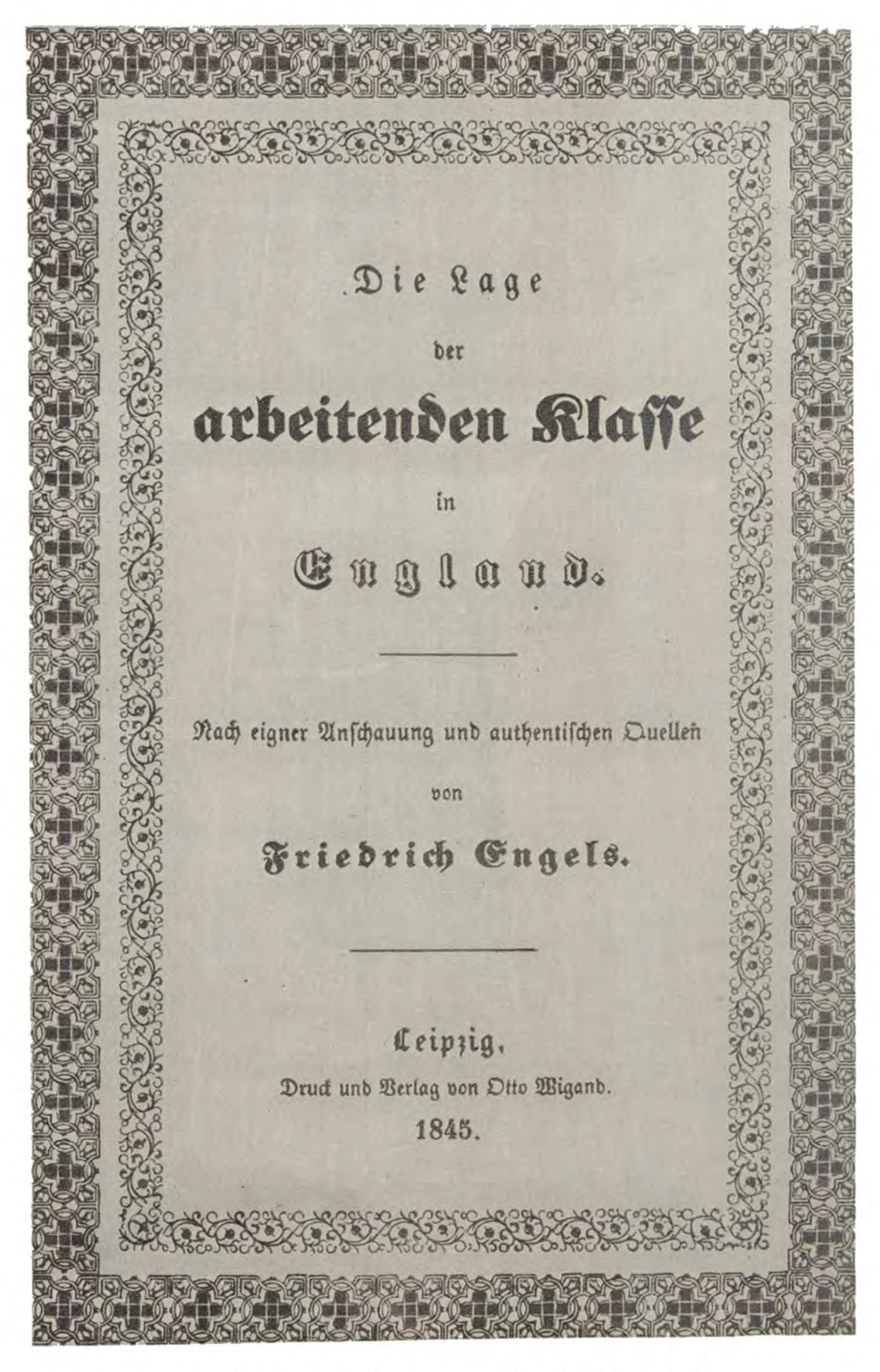
---

* لينين. ماركس، انجلس، الماركسية. الطبعة العربية. موسكو. ص ٦٩.

من اولئك الذين يعتقدون أن تطور الروح يحدد تطور الطبيعة ويقبلون، بالتالى، بهذا الشكل او ذاك، فكرة خلق العالم. أما مختلف اتجاهات المادية فانها، على العكس، تتكون من اولئك الذين يمنحون الاولية للطبيعة.

كانت مؤلفات انجلس التى كتبها فى انكلترا تعكس بصورة تزداد وضوحا انتقاله الى المادية. ففى مقال عن كتاب كارليل «الماضى والحاضر» انتقد انجلس هذا المؤلف من مواقع المادية الالحادية بسبب محاولاته فى خلق دين جديد. واذ حمل انجلس على آراء كارليل الفلسفية المثالية وعلى «عبادة الابطال» التى دعا لها، اشار الى الدور الحاسم للجماهير الشعبية فى تحقيق الافكار المتقدمة.

كان انتقال انجلس الى مواقع المادية يظهر جليا فى مقالاته التى كتبها خلال هذه الحقبة والتى كان يحلل فيها طبيعة النظام الاجتماعى والسياسى القائم فى انكلترا. وقد استنتج انجلس ان النضال السياسى فى انكلترا تقوم فى اساسه المصالح المادية لمختلف طبقات المجتمع الانكليزى. وقد كشف ايضا الطابع الطبقى للاحزاب التى تتصارع فى مجال السياسة وأبان الجوهر الطبقى للدولة الانكليزية. ويصف الحزب اليمينى - «تورى» - بانه حزب الارستوقراطية والاكليريكية الرجعية، والحزب الليبيرالى «فيغي» - بانه حزب الصناعيين والتجار، واخيرا وصف الميثاقيين بانهم حزب تعبر مبادئه عن وعى العمال الانكليز الجماعى. ففى مقالته «الوضع فى انكلترا، والدستور الانكليزى» المنشورة فى الجريدة الالمانية «الى الامام!» («فورفارتس!») والصادرة فى باريس، يحلل انجلس



Die Lage

der

arbeitenden Klasse

in

England.

Nach eigner Anschauung und authentischen Quellen

von

Friedrich Engels.

Leipzig,

Druck und Verlag von Otto Wigand.

1845.

غلاف الطبعة الاولى من كتاب انجلس
«وضع الطبقات الكادحة فى انجلترا»

بامعان قانون الانتخابات الانكليزى الذى كانت احكامه تبعد أغلب العمال عن صناديق الاقتراع، كما يكشف ميكانيكية الاقتراع الى البرلمان: تبعية الناخبين فى الارياف لارادة الملاكين العقاريين ونظام ارشاء الناخبين السائد فى كل مكان خلال حملة الانتخابات، وغيرها من الوسائل التى تؤمن الطبقات المالكة بواسطتها أغلبية برلمانية خاضعة لها.

طرح انجلس هذا السؤال: «من يحكم انكلترا فعلا؟» وأجاب: «انها الملكية الخاصة». ولشرح طريقة تطبيق القانون فى انكلترا «الحرة» يستشهد انجلس بالتعابير الشعبية الانكليزية التى صارت من زمان أمثلة تدور على الالسنة: «القانون يظلم الفقير، والغنى يدير القانون»، «يوجد قانون للفقير وآخر للغنى». وكشف انجلس الطابع الطبقى للدستور الانكليزى وضيق «الحريات» البرجوازية، وعارضهما بالديموقراطية الحقيقية التى يجب أن تتولد من نضال البروليتاريا الظافر ضد البرجوازية والملكية الخاصة والتى يكون مبدأ الاشتراكية مبدأ حيويا لها.

ان كتاب «وضع الطبقات الكادحة فى انكلترا» الذى أنجزه انجلس بعد التقائه بماركس والذى صدر فى المانيا عام ١٨٤٥، كان حاصل بحثه فى حياة انكلترا ولا سيما حياة البروليتاريا ونضالها.

وقد أشار انجلس فيما بعد الى أن هذا الكتاب الذى يعود الى عهد صباه، يعكس احدى المراحل الاولى لتبلور الشيوعية العلمية. وبوسع المرء ان يعثر غالبا فى هذا الكتاب على آثار الفلسفة الالمانية الكلاسيكية، التى هى أحد اسلاف الشيوعية العلمية. وعلى الرغم من ذلك فان هذا الكتاب من اروع المؤلفات فى الادب الاشتراكى العالمى.

ففيه حلل انجلس النتائج العميقة للانقلاب الصناعى فى انكلترا الذى ادى الى ظهور الصناعة الآلية الكبرى وتولد البروليتاريا الصناعية. وكشف جملة من القوانين الخاصة بالانتاج الرأسمالى: الازمات الاقتصادية الدورية، وتكوين جيش احتياطى من العاطلين عن العمل فى الصناعة، وتقوية استثمار الطبقة العاملة والجماهير الكادحة مع توسيع الانتاج الرأسمالى. وقد وصف انجلس بواقعية جذابة شروط عمل العمال: أجورهم، ومساكنهم، ويوم عملهم الطويل، وعمل النساء والاولاد الشاق الذى يقوض دعائم عائلة العامل، ولفت انتباه القارئ الى الوضع اليائس للعاطلين عن العمل، واستنتج أن مصالح البرجوازية والبروليتاريا لا سبيل الى التوفيق بينها. وبين انجلس بما يختلف، فى الجوهر، وضع البروليتاريا الراهن عن وضع الجماهير الكادحة قبل الانقلاب الصناعى، وما هو الفرق بين العبد والقن والعامل الاجير العصرى، وكتب يقول: «ان حياة العبد تضمنها على الاقل مصلحة سيده الشخصية، والقن يملك قطعة أرض يعيش منها، ولديهما، بالتالى، ضمانة ضد الموت جوعا على الاقل؛ اما البروليتارى فهو متروك وشأنه بوجه الحصر، وفى الوقت ذاته لا يسمحون له أن يستعمل قواه بشكل يتمكن معه من الاعتماد عليها كليا» *.

الا أن التمييز بين الطبقة العاملة وسائر الطبقات المظلومة والمستثمرة لا يراه انجلس فى بؤس الطبقة العاملة المدقع وقلقها الدائم من الغد وحسب. فان مأثرة انجلس الرئيسية انه كشف فى البروليتاريا طبقة تكوّن ظروف

* انجلس، «وضع الطبقات الكادحة فى انكلترا».

وجودها بالذات الشروط لتماسكها وتنظيمها ولتأدية رسالتها التاريخية العظيمة ألا وهى القضاء على الرأسمالية.

لقد تفحص انجلس فى كتابه اشكال نضال الطبقة العاملة واساليبه، ومجرى انتقالها من الاشكال العفوية، البدائية للاعتراض على الاستثمار الفظيع الى اشكال من النضال اكثر وعيا وتنظيما.

ان استياء العمال من البرجوازية قد اتخذ فى البداية شكل الكفاح ضد ادخال الماكنات. وقد اورد انجلس حالات أتلف فيها العمال الماكنات واختصموا مع مخترعيها وتمردوا ودمروا المعامل. كانوا لا يستطيعون ان يدركوا أن متاعبهم الرهيبة وآلامهم ليس سببها الماكنات بالذات وانما اسلوب الانتاج الرأسمالى القائم على أساس الملكية الخاصة للماكنات والمعامل والمواد الاولية، وبكلمة، كانوا لا يفهمون بعد الفرق بين الماكنة واستعمالها فى النظام الرأسمالى.

ان كره العمال هذا تجاه الماكنات وتجاه نظام المعامل قد وجد اروع تعبير عنه فى قصيدة ادوارد ميد من برمنغهام التى ترجمها انجلس كلها تقريبا الى الالمانية واوردها فى كتابه:

ملك جبار في العالم قد حل وسادا
ما وعت حتى الاساطير له شكلا معادا
فالاساطير حكت عن ملكها شيخا ودودا
ان هذا الملك الشرير قد سام عبادا
واذلّ الناس، لا فرق بياضا او سوادا

ان هذا الملك الغدار يدعى بالبخار
انه طاغية يحكي بباس واقتدار
ذو يد واحدة، لكنما عزمه هائل

قادر حتى على دحر شعوب وقبائل
ظالم مثل اله النار جبار عتي
يتنامى حوله جور واجحاف وغي

ان في جوفه كالبركان نارا تتلظى
يصطلي فيها بني الناس ويفنيهم طرا
عصبة طماعة مثله لا تعرف ذمه

تحكم الدنيا بقلب فارغ من كل رحمه
انها سكت دماء الناس تبرا ونقودا
واستباحتهم وداستهم وخلتهم عبيدا

انما افرادها قوم بلا ادنى حياء

انهم يرنون للامهات حتى بازدراء

ويظنون دموع الناس تجري مثل ماء

وعويل الخلق في آذانهم مثل الغناء

سلطة شريرة تبذر في الارض دمارا وشرورا
كم بنت فوق عظام الناس ملكا وقصورا
انها من بعد ان تقتل في الاحياء روحا
تقتل الاجساد كدا وشقاءا ونواحا

يا ملايين من العمال هيا للامام

واصرخوا كالرعد كالبركان في وجه اللئام

فليسقط ملك عاة اذل الناس جورا
ولنكبله ولن نترك من بعده ذكرا

ولندمره ونوريه كما يورى الرغام
قبل ان يبتلع الارض مع الشعب ظلام

غضبة منكم اثيروها لكي تفغر فاها
لتسيروا في ذرى الوثبة حتى منتهاها

ولتسقط هذه الزمرة في اعماق هوّه
من طفيليين قد صبّوا دماء الناس ثروه
وليلحق بهم، ربهم المنحوس اسوه

غير ان العمال لم يلبثوا أن ادركوا عدم جدوى جهودهم للقضاء على «البخار الملك» وتدمير المعامل. فكان لا بد

من ايجاد شكل آخر للنضال. وكان هذا الشكل التريديونيونات والاضرابات. وبسرعة، اصبح هذان الشكلان واسعى الانتشار فى انكلترا. وقد أشار انجلس الى الدور العظيم الذى لعبته الاضرابات فى قضية تراصّ العمال وتقوية تضامنهم وتنظيمهم. «ان الاضرابات بالنسبة للعمال مدرسة حربية يستعدون فيها للمعركة الفاصلة التى لا سبيل الى تفاديها. انها ضروب من المظاهرات التى يقوم بها بعض فرق العمال التى تعلن بذلك عن انضمامها الى حركة العمال العظمى» *.

وقد تقدم العمال الانكليز فى تلك الحقبة بنماذج جديدة اعلى من اشكال النضال، اذ صاروا ينتقلون من المعارك الاقتصادية المنفردة ضد بعض ارباب الاعمال الى المعارك ضد السلطة الجماعية للطبقات المسيطرة، اى ضد الدولة البرجوازية.

ففى كتاب «وضع الطبقات الكادحة فى انكلترا» يعرض انجلس ايضا تاريخ حركة الطبقة العاملة الانكليزية السياسية المعروفة باسم حركة الميثاق (الحركة الشارتية) والتى ولدت فى اواخر العقد الرابع من القرن التاسع عشر وهى، على حد تعبير لينين، أول «حركة واسعة جماهيرية حقا، متشكلة سياسيا، ثورية بروليتارية» فى العالم.

كان العمال الانكليز يناضلون فى سبيل ميثاق (charter) يحتوى المطالب السياسية التالية: ١) الحق الانتخابى العام لجميع الرجال الراشدين. ٢) اعادة الانتخاب للبرلمان سنويا. ٣) اقرار راتب لاعضاء البرلمان لكى يستطيع

---

* انجلس، «وضع الطبقات الكادحة فى انكلترا».

الفقراء أيضا أن يقبلوا الوكالة النيابية. ٤) الاقتراع السرى لتجنب الارشاء والتهديد من قبل البرجوازية. ٥) تساوي الدوائر الانتخابية لتأمين تمثيل متساو. ٦) الغاء شرط مقدار الضرائب الذى يخول حق الترشيح للانتخاب الى البرلمان بحيث يكون كل ناخب ممكنا انتخابه.

ان الميثاق الذى وضع فى بداية الحركة بتأثير من الجناح اليمينى المعتدل لحركة الميثاق الدستورية، ما كان يطرح أية مطالب ذات طابع اجتماعى واقتصادى، حتى لم يكن برنامجا ذا ديموقراطية متماسكة منسجمة (لم يكن يحتوى لا شعار الجمهورية ولا مطلب حق الاقتراع للنساء، والخ..).

ولكنه ما ان صار برنامجا للفئات الواسعة من البروليتاريا حتى أخذ يهدد، فى جوهر الامر، «بالاطاحة بالدستور الانكليزى ومعه الملكة ومجلس اللوردات» *.

لقد رأى العمال فى الميثاق برنامج الظفر بالسلطة السياسية لتحسين وضعهم الاقتصادى تحسينا جذريا. والى جانب الميثاق، اقر العمال فى اجتماعاتهم العديدة مئات من العرائض للمطالبة بتحسين وضع البروليتاريا المادى. فمثلا كان ستيفانس، الميثاقى الدستورى، يشرح معنى الميثاق والحركة الميثاقية على النحو التالى: «ان حركة الميثاق الدستورية، ايها الاصدقاء، ليست مسألة سياسية تقصد الظفر بحق الانتخاب لكم والخ..، ولكنها مسألة **شوكة وسكين**، ان الميثاق يعنى سكنا صالحا، ومأكلا ومشربا صالحين، واجرة طيبة ويوم عمل أقصر» **.

---

* انجلس، «وضع الطبقات الكادحة فى انكلترا».

** انجلس، «وضع الطبقات الكادحة فى انكلترا».

واذا كان مختلف رجال السياسة قد انضموا الى الحركة فى بدايتها قاصدين استخدامها فى صالح جناح البرجوازية الايسر، فقد شرعوا ينفصلون عنها بقدر ما كانت تتطور وتبرز نفسها بوضوح متعاظم ابدا حركة ثورية للبروليتاريا.

كتب انجلس يقول: «ان **حركة الميثاق** هى شكل مكثف للمعارضة ضد البرجوازية. لقد بقيت هذه المعارضة فى نشاط الاتحادات العمالية وفى الاضرابات متفرقة دائما... فما كان سوى عمال منفردين او فرق منهم يقاومون برجوازيين منفردين... اما فى حركة الميثاق الدستورية فقد أخذت الطبقة العاملة كلها تناهض البرجوازية وتهاجم قبل كل شىء سلطتها السياسية، تهاجم سور القوانين الذى احاطت البرجوازية نفسها به».

ان اتصال انجلس الوثيق بحركة الميثاق الدستورية – هذه الحركة التى كانت على حد تعبير لينين، تستبق بصورة عبقرية كثرة من معالم الماركسية المقبلة، – ان هذا الاتصال قد اثر فيه تأثيرا بليغا. غير أن انجلس، مع تقديره الرفيع لحركة الميثاق الدستورية ومع اشتراكه اشتراكا فعالا فيها، قد استطاع ان يلاحظ ايضا النواقص الكبيرة التى عانتها هذه الحركة. فقد انتقد، مثلا، الفكرة الميثاقية عن تحقيق الثورة «بطريق شرعى» وبين أن ذلك هو بحد ذاته تناقض وامر مستحيل عمليا. كان النقص الرئيسى لدى الميثاقيين يكمن، حسب انجلس، فى ان «اشتراكيتهم ما تزال فى الحالة البدائية»، وفى أن التدابير الاجتماعية الاقتصادية التى اقترحها بعض رؤسائهم – كتقسيم الاراضى وتوزيعها على العمال – للقضاء على بؤس

الشعب، ما كان لها أى معنى، بسبب تطور الصناعة الكبيرة.

واذا كانت حركة الميثاق الدستورية لم ترتفع الى ادراك ضرورة الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج واذا كانت لم تسجل على راياتها الشعارات الاشتراكية، فان المسؤولين الرئيسيين عن ذلك هم الاشتراكيون الانكليز. فان روبرت اوين، زعيم الاشتراكيين الانكليز ورائدهم النظرى، مثله مثل سان سيمون وفوريه، الاشتراكيين الطوباويين الفرنسيين العظيمين، كان غريبا عن الحركة العمالية الجماهيرية ووقف مواقف سلبية من النضال السياسى.

ان مأثرة أوين تتقوم فى كشفه الحازم عن قروح المجتمع الرأسمالى وعيوبه وفى عطفه العميق على آلام الجماهير الكادحة. لقد كان فى السابق صاحب معمل يقوم باعمال خيرية، ثم اصبح اشتراكيا. ولقد وضع نصب عينيه مهمة تخليص المجتمع من نواقصه. غير أن اشتراكيته الطوباوية مثل اشتراكية سان سيمون وفوريه، «ما كانت تستطيع أن تعين مخرجا حقيقيا. وما كانت تعرف كيف تفسر طبيعة العبودية المأجورة فى ظل النظام الرأسمالى، ولا كيف تكشف قوانين تطور الرأسمالية، ولا كيف تجد **القوة الاجتماعية** القادرة على أن تصير خالقة المجتمع الجديد» *.

ما كان الاشتراكيون الطوباويون يرون فى البروليتاريا سوى جماهير تعسة عاجزة، لا تستطيع أن تنتظر خلاصا

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية»، الطبعة العربية، موسكو، ص ٩٣ـ٩٤.

لها الا من الأعلى فقط، من الطبقات المالكة والحكومات. كان روبرت اوين يعتمد على عون امثاله من الاغنياء ممن سوف يسهمون باموالهم فى تحقيق مشروعه الموضوع بدقة للمجتمع الجديد. كان يعتقد أن تجربة انشاء مستعمرات شيوعية على شاكلة «الهارمونيا الجديدة» التى نظمها فى امريكا، سوف تكون نموذجا يقنع العالم كله بسلوك الطريق نفسه. الا ان نداءه الى الحكومة والطبقات المالكة ذهب كصيحة فى واد، وهذا بديهى. لقد كانت اشتراكية اوين المنفصلة عن نضال العمال العملى محكوم عليها أن تبقى طوباوية.

ومن أهم النتائج التى توصل انجلس اليها فى كتابه «وضع الطبقات الكادحة فى انكلترا» هى أن المهمة الرئيسية الحاسمة للبروليتاريا الانكليزية تتقوم فى اندماج الاشتراكية مع حركة الميثاق. وقد برهن انجلس أن النضال السياسى والحركة الثورية الجماهيرية للعمال لا بد ان تؤديا بهم الى الاشتراكية. ثم ان الاشتراكية، لكى تتحول من حلم الطوباويين المنفردين الى قوة فعالة، لا بد لها ان تصير هدف النضال الجماهيرى السياسى للطبقة العاملة.

ان المهمة العالمية التاريخية هذه، مهمة ربط الاشتراكية مع حركة العمال، مهمة تحويل الاشتراكية الطوباوية الى الاشتراكية العلمية، تحويلها من حلم المنفردين الضعفاء الى نظرية طبقة جبارة وعديدة، ان هذه المهمة كانت من نصيب ماركس وانجلس.

٤

تحالف ماركس وانجلس.
وضع مبادئ الشيوعية العلمية.
النضال فى سبيل انشاء حزب بروليتارى

(١٨٤٤-١٨٤٨)

غادر انجلس مانشستر فى اواخر شهر آب - اغسطس - ١٨٤٤. وفى طريقه الى المانيا توقف لعشرة ايام فى باريس حيث كان ماركس يقيم فى ذلك الحين وزاره فى مقره. ومنذ ذاك بدأ بينهما الصداقة والتحالف النضالى اللذان لا مثيل لهما فى التاريخ، بين المفكرين العظيمين اللذين سلحا الطبقة العاملة بالنظرية الثورية وكذلك باسس ستراتيجيتها وتكتيكها، ذانك التحالف والصداقة اللذان بقيا امينين لهما حتى آخر ايامهما. «ان الاساطير القديمة تروى أمثلة مؤثرة عن الصداقة. وبوسع البروليتاريا الاوروبية أن تقول ان علمها قد خلقه عالمان ومناضلان تفوق علاقاتهما الشخصية كل ما ترويه اساطير الاقدمين البالغة الاثر عن الصداقة بين الناس »*.

---

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٧٢.

كان ماركس أكبر من انجلس بعامين ونصف عام. فقد ولد فى ٥ من شهر ايار ـ مايو ـ ١٨١٨ فى مدينة تريف من اقليم رينانيا البروسى حيث ولد وترعرع انجلس أيضا. كان ابو ماركس ـ هنرى ماركس ـ يهوديا اعتنق البروتستانية وكان يتعاطى المحاماة. وبعد ما أنهى كارل ماركس دراسته فى ثانوية تريف دخل جامعة بون ثم انتقل الى جامعة برلين، بكلية الحقوق. وحضر فى الوقت ذاته محاضرات التاريخ ولا سيما الفلسفة.

وقد تردد ماركس فى برلين على حلقة الهيغليين اليساريين (برونو باوير وغيره) التى انتسب اليها انجلس ايضا بعد سفر ماركس.

ونوى ماركس بعد تخرجه من الجامعة فى عام ١٨٤١ ان ينال كرسيا فى جامعة بون، ولكن السياسة الرجعية لحكومة بروسيا التى أغلقت أبواب الجامعة فى وجه لودفيغ فورباخ وبرونو باوير أفهمته أن رغبته لا سبيل الى تحقيقها. كان ممثلو المعارضة البرجوازية فى اقليم رينانيا قد اسسوا حينذاك فى كولونيا «الجريدة الرينانية». وقد كانت مناهضة الحكومة ـ كما ذكر انجلس فيما بعد ـ عميقة فى اوساط البرجوازية فى ذلك الوقت لحد أن هذه الاوساط، بسبب عدم وجود رجال قادرين على ان يمثلوها فى الصحافة، عزمت على التحالف مع التيار الاكثر تطرفا من الفلسفة الالمانية الا وهو تيار الهيغليين الشباب. وهكذا أصبح ماركس صحافيا فى «الجريدة الرينانية»، ثم صار فى ١٥ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ عام ١٨٤٢ رئيس تحريرها. وقد كان انجلس يبعث اليها مقالاته من برلين ثم من مانشستر. وفى شهر تشرين الثانى ـ نوفمبر ـ عام ١٨٤٢

مكث انجلس فى كولونيا فى طريقه الى مانشستر وزار دار تحرير «الجريدة الرينانية» حيث جرى له أول لقاء قصير بماركس. وبادارة ماركس صارت الجريدة تتخذ اكثر فاكثر صبغة ديموقراطية ثورية. وفى شهر كانون الثانى - يناير - عام ١٨٤٣ أصدرت الحكومة البروسية أمرا بمنع صدورها ابتداء من أول نيسان - ابريل - من العام نفسه وأخضعتها حتى ذلك الموعد لرقابة صارمة. ولما كان اصحابها يودون أن يجعلوها ذات صبغة أكثر اعتدالا راغبين فى الغاء منعها، فقد استقال ماركس من هيئة تحريرها فى ١٧ من شهر آذار - مارس ١٨٤٣.

وقرر ماركس الرحيل الى الخارج لتأسيس مجلة تكون مصدرا للدعاية الثورية والاشتراكية. وفى اواخر شهر تشرين الاول - اكتوبر - عام ١٨٤٣ ذهب ماركس، وكان قد تزوج قبل ذلك من جينى فون ويستفالن، الى باريس حيث قام مع ارنولد روغه باصدار مجلة «الحوليات الفرنسية الالمانية» («ديتش فرانسوزيشه ياربوخير»).

صدرت هذه المجلة فى شهر شباط - فبراير - عام ١٨٤٤ وكانت تحتوى مقالين اولين لماركس تحدث فيهما عن الاشتراكية. ومن على صفحات هذه المجلة، على حد تعبير لينين، «برز ماركس ثوريا ينادى «بانتقاد لا هوادة فيه لكل ما هو كائن» ولا سيما «انتقاد الاسلحة» ويتوجه الى **الجماهير** والى **البروليتاريا**»*.

وفى عداد المقالات التى نشرتها المجلة كانت «نبذات فى نقد الاقتصاد السياسى» لانجلس. وهذه النبذات حثت

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية.» الطبعة العربية. موسكو. ص ١٠.

ماركس من جديد على الانصراف الى قضايا الاقتصاد السياسى التى شرع بدراستها حينما كان يكتب مقالاته عن وضع الفلاحين فى «الجريدة الرينانية». فانكب ماركس على دراسة الاقتصاد السياسى البرجوازى دراسة انتقادية، بما فى ذلك مؤلفات الاقتصاديين الانكليزيين الكلاسيكيين آدام سميث ودافيد ريكاردو. وعدا ذلك طفق يدرس تاريخ الثورة البرجوازية الفرنسية فى اواخر القرن الثامن عشر، ومذاهب الاشتراكية الطوباوية. وحين كان انجلس فى مانشستر، كان يتراسل مع ماركس. بيد أن رسائل هذه الحقبة لم تحفظ لسوء الحظ.

وقبل التقائهما فى باريس، كانا قد اعتنقا كلاهما افكارا شيوعية، وعدلا تعديلا جذريا مفاهيمهما الفلسفية السابقة وتحولا من المثالية الى المادية.

ولقد لعب الفيلسوف الالمانى لودفيغ فورباخ دورا عظيما فى تحولهما الى المادية. كان فورباخ، فى كتابه «جوهر المسيحية»، يبرهن أن الانسان ليس من خلق الله، بل ان الله هو من خلق الانسان الذى توهمه على صورته ومثاله، وأنه لا شىء يوجد خارج الطبيعة والانسان. لقد انكر هذا الفيلسوف «الفكرة المطلقة» التى سبقت، حسب زعم هيغل، وجود العالم والتى هى اساس تطور الطبيعة والمجتمع. وكان فورباخ يبين انه لا الروح ولا التفكير ولا الفكرة هى التى تولد الكون بل، على العكس، ان الكون هو الذى يولد التفكير. لقد قدر ماركس وانجلس اهمية فلسفة فورباخ تقديرا عاليا، غير انهما نظرا الى مفاهيمه بروح الانتقاد ولاحظا طابع ماديته المحدود، التأملى الصرف، اذ كان فورباخ لا يبسط مفاهيمه المادية على ظواهر

المجتمع فبقى مثاليا فى فهمه للتطور التاريخى. وقد سار ماركس وانجلس ابعد من فورباخ، اذ استنتجا أنه يجب تطبيق وجهة النظر المادية على تفسير الظواهر الاجتماعية ايضا فى دراسات تاريخ المجتمع البشرى. وخلافا لفورباخ الذى نبذ، بكل بساطة، ديالكتيك هيغل المثالى، انصرف ماركس وانجلس الى تكييفه تكييفا نقديا.

كان هذا الديالكتيك «قائما على رأسه» اذ كان هيغل يرى أن كل ما يجرى فى الطبيعة وفى التاريخ انما هو نتيجة تطور الفكر او المفهوم. وكانت المهمة تتكون فى ارساء قواعد الديالكتيك الجديد، المادى هذه المرة، وجمع المادية والديالكتيك فى مفهوم علمى عن العالم موحد ومنسجم.

وفى اثناء الايام العشرة التى امضاها انجلس مع ماركس فى باريس، تبين انه هو وماركس قد توصلا بطرق مختلفة الى النتائج نفسها. واليكم قصة انجلس عن ذلك:

«عثرت، وانا فى مانشستر، بانفى اذا جاز القول، على ادراك ان العوامل الاقتصادية التى لم ينسب اليها المؤرخون حتى الآن اى دور او ينسبون اليها دورا ثانويا فقط، ان هذه العوامل تؤلف قوة تاريخية حاسمة، بالنسبة للعالم الحديث على الاقل؛ وان العوامل الاقتصادية تشكل الاساس الذى تقوم عليه التناحرات الطبقية الراهنة؛ وأن هذه التناحرات الطبقية فى جميع البلدان التى بلغت فيها، بفضل الصناعة الكبيرة، تطورها الكامل، كما هو الامر فى انكلترا مثلا، ان هذه التناحرات تكوّن بدورها اساسا لتشكيل الاحزاب السياسية وللصراع الحزبى وللتاريخ السياسى كله بالتالى. ولم يتوصل ماركس الى نفس الآراء وحسب بل انه قد عممها فى عام ١٨٤٤ فى «الحوليات الالمانية

3*

الفرنسية » اذ اشار الى أنه ليست الدولة هى التى تكيف وتنظم المجتمع المدنى بل ان المجتمع المدنى هو الذى يكيف وينظم الدولة وأنه يجب، بالتالى، تفسير السياسة وتاريخها اعتمادا على العلاقات الاقتصادية وتطورها وليس الامر بالعكس. وعندما زرت ماركس فى صيف عام ١٨٤٤ فى باريس، تبين اتفاقنا التام فى جميع الميادين النظرية، والى تلك الفترة يعود تاريخ تعاوننا »*.

ان مبادئ المفهوم الثورى المادى الجديد عن العالم قد ارساها ماركس وانجلس فى كتابهما المشترك الذى اقبلا على تأليفه خلال لقائهما القصير فى باريس. ان هذا الكتاب الذى صدر بعنوان « العائلة المقدسة او نقد الانتقاد النقاد. ضد برونو باوير وشركائه »، والذى لم يكتب انجلس سوى بعض الفصول منه اذ كتب ماركس قسمه الاكبر، كان موجها ضد الهيغليين الشباب وضد « الفلسفة **الهيغلية** الارملة التى حاقت بها الشيخوخة » بوجه عام. ففى هذا الكتاب وضع ماركس وانجلس نصب عيونهما مهمة تصفية الحسابات مع ذلك القسم من المثقفين الالمان الذى كان يحاول التهرب من السياسة لائذا ببرج « الفلسفة الصرف »، والذى كان، على غرار باوير، يتجلبب بجلباب « القادة الفلسفيين » غير المفهومين، ويحتقر الجمهور، هذه « السوقة » « الجاهلة » « المحدودة »، احتقارا سافرا. ولما كان هؤلاء الفلاسفة الفوضويون يبسطون احتقارهم على البروليتاريا ايضا، فان ماركس وانجلس، اذ استنتجا ان البروليتاريا هى الطبقة التى تكمن رسالتها التاريخية فى

---

* انجلس، « بصدد تاريخ عصبة الشيوعيين ».

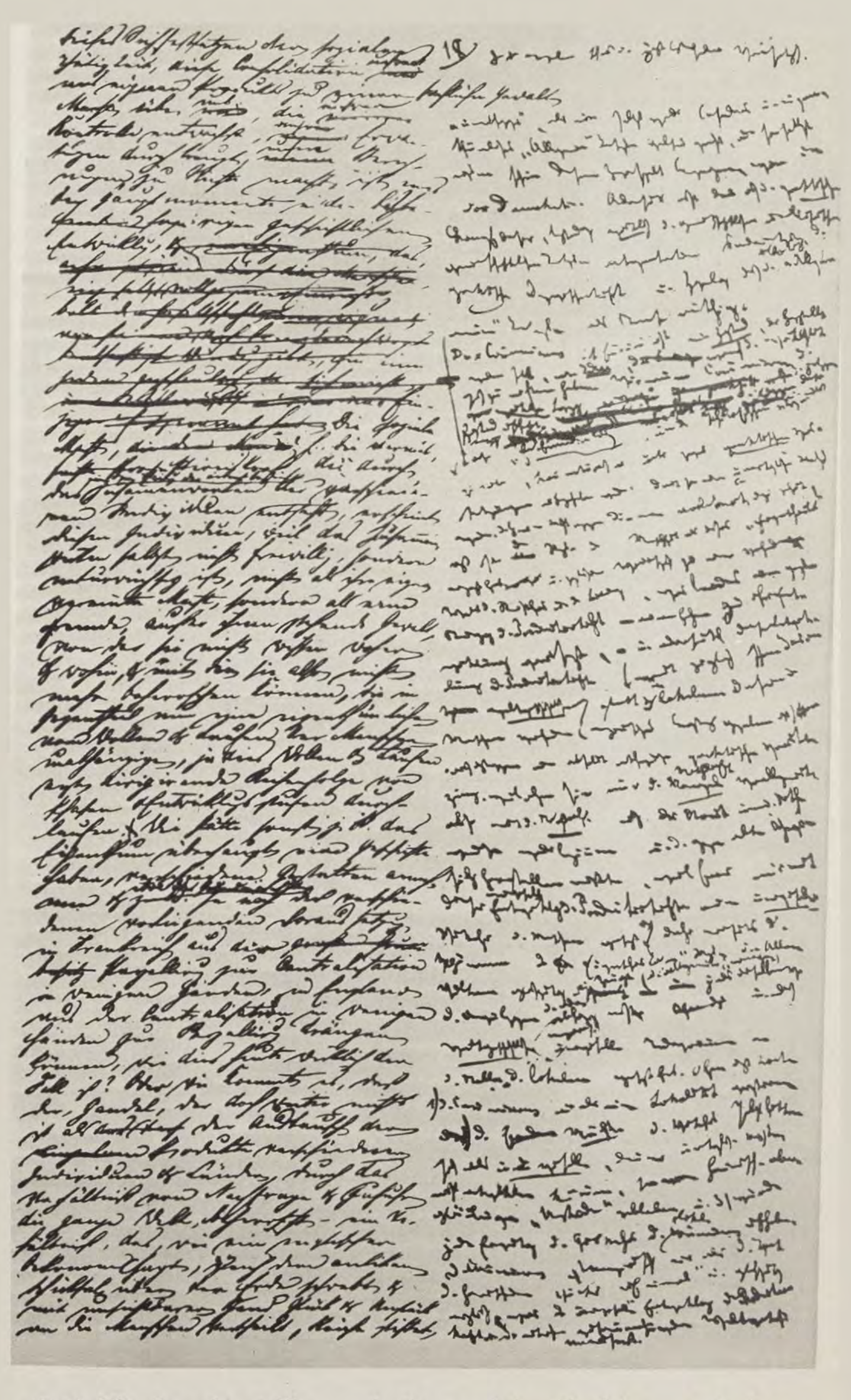
القضاء على كل استثمار وكل ظلم، قد رأيا انه من الضرورى الانفصال من برونو باوير واضرابه بحزم.

وفى «العائلة المقدسة» تقدم ماركس وانجلس، فى سياق انتقادهما للآراء المثالية الخاصة ببرونو باوير واتباعه الذين كانوا يزعمون بان الشخصيات المختارة هى وحدها التى تقرر سير التاريخ، باحد الاحكام الاساسية فى المادية التاريخية وقوامه ان الجماهير الشعبية هى الخلاق الحقيقى للتاريخ لا «الابطال» وقد بينا ان جماهير شعبية اوسع فأوسع ستصبح فى سياق التاريخ صانعة واعية للتطور التاريخى. وقد اشار لينين الى اهمية هذا الحكم ووصفه بانه واحد من «اعمق احكام المادية التاريخية واهمها». ان فكرة رسالة البروليتاريا التحررية ذات الصفة التاريخية العالمية قد صيغت فى «العائلة المقدسة» بشكلها النهائى تقريبا. فعلى نقيض الاشتراكيين الطوباويين الذين لا يجدون فى البروليتاريا سوى جماهير عاجزة متألمة، برهن ماركس وانجلس فى هذا الكتاب أن الطبقة العاملة، بفضل وضعها فى المجتمع الرأسمالى، مدعوة الى تحقيق تحويل العالم التحويل الثورى.

ان فكرة دور البروليتاريا التاريخى العالمى كانت الاساس المكين الذى قام عليه بناء الشيوعية العلمية المنسجم. كتب لينين يقول: «ان الجوهرى فى مذهب ماركس هو أنه اوضح الدور التاريخى العالمى للبروليتاريا بصفتها بانية المجتمع الاشتراكى»*. وقد رفع هذا الاكتشاف العبقرى الاشتراكية من الطوباوية الى مصاف

---

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو، ص ٩٦.



صفحة من مخطوطة ماركس وانجلس «الايديولوجية الالمانية»
(الى اليسار نص انجلس، الى اليمين نص ماركس. كليشه مصغر)

العلم ووضعها لأول مرة على أرض الواقع الثابتة، وربط مصيرها بمصير الطبقة الفتية الثورية الصاعدة.

وبعد عودة انجلس الى بارمن، اخبر ماركس فى رسالته ان وبرتال تغيرت خلال غيابه تغيرا شديدا، وان صناعتها قد احرزت تقدما كبيرا، وان شعور المعارضة اخذ يشمل صفوفا جديدة وجديدة من اهاليها. «... وبعبارة موجزة، تتهيأ هنا تربة صالحة لافكارنا، واذا قدرنا على جذب صباغينا ومبيضينا المتحمسين الى الحركة، فسوف تندهش من وبرتالنا ايما دهشة».

وكانت التغيرات التى لاحظها انجلس فى وبرتال قد طرأت ايضا على انحاء المانيا الاخرى. وعلى اثر انكلترا، صارت التناقضات الطبقية تشتد فى المانيا اكثر فاكثر. وفى شهر حزيران - يونيو - ١٨٤٤ اندلعت نار تمرد نساجى سيليسيا. ان يقظة البروليتاريا هذه ومصادماتها الطبقية الأولى مع البرجوازية أحدثت تأثيرا قويا فى البلاد وحرّكت الدعاية الشيوعية.

والى جانب العمل بانجاز كتاب «وضع الطبقات الكادحة فى انكلترا» انغمس انجلس منذ وصوله الى بارمن فى النشاط الثورى العملى، وزار مدنا المانية كثيرة ليتصل بالاشتراكيين المحليين. وكان انجلس يخطب فى الاجتماعات التى نظمها بالاشتراك مع بعض الاشتراكيين والديموقراطيين، وكان يبرهن فى خطاباته هذه انه يجرى فى ظل الرأسمالية اثراء الاقلية الضئيلة من جهة، وافقار الاغلبية العظمى من جهة اخرى؛ وأن العلاقات الاجتماعية القائمة تؤدى لا محالة الى الثورة الاجتماعية ويكون نتيجتها انشاء مجتمع تكون فيه وحدة المصالح مبدأ اساسيا له. وان

ذلك المجتمع الجديد سوف يكون غريبا كل الغرابة عن الحروب التوسعية. اما فى حالة الحرب الدفاعية فسيكون كل مواطن من مواطنيه «مدعوا الى الدفاع عن وطنه **الحقيقى** وبيته **الحقيقى**»، وبالتالى، «سيقاتل بحماسة وتفان وشجاعة تندحر أمامها الجيوش المعاصرة بتدريبها غير الواعى وتنكسر انكسارا»*.

كان انجلس يطلع ماركس على هذه الاجتماعات فى رسائله المتحمسة، معبرا فيها عن اغتباطه بنجاحات الدعاية الشيوعية، وعن فرحه فى ان يتمكن من أن يكون «امام الناس بكل معنى الكلمة، وأن يتكلم اليهم مباشرة، دونما وساطة وبكل علانية»، بدلا من «الانصراف الى العمل الادبى المجرد اللعين».

الا ان هذه الفرحة قد كدرتها العلاقات المتوترة التى نشأت بينه وبين عائلته بسبب نشاطه الشيوعى ورفضه الانصراف الى «التجارة اللعينة». كتب لماركس فى ١٧ من شهر آذار – مارس – عام ١٨٤٥ يقول:

«ان اعلانى العزم على نبذ التجارة نهائيا زاد سخطه (سخط ابيه – المؤلفة) وان بروزي كشيوعى قد احدث فيه، عدا ذلك، تعصبا برجوازيا حقا... وحينما تصلنى رسالة ينقبونها من جميع الاطراف قبل أن تسلم لى. وبما انهم يعرفون أن جميع هذه الرسائل يبعثها الشيوعيون، فان ملامح وجوههم تبدو حزينة للغاية مما يعذبنى كثيرا. اذا خرجت فما تزال أمامى هذه الملامح. واذا بقيت فى غرفتى اشتغل – بالشيوعية، طبعا، اذ أن الجميع يعرفون ذلك حق المعرفة – بدت الملامح ذاتها على وجوههم. لا استطيع

* انجلس. من خطب القاها فى ألبرفلد.

أن آكل أو اشرب أو أنام دون أن اجد أمامى هذه الوجوه المحزنة. واذا بقيت فى البيت او خرجت منه، اذا لذت بالصمت او تكلمت، اذا قرأت او كتبت او ضحكت، فان ملامح ابى لا تتغير وتبقى حزينة».

وفى ربيع عام ١٨٤٥ ما عاد انجلس يطيق الجو العائلى فغادر بارمن قاصدا بروكسل حيث كان يقيم ماركس بعد طرده من باريس بالحاح من الحكومة البروسية.

وفيما بعد، تذكر انجلس لقاءه بماركس فى بروكسل فكتب يقول: «عندما التقينا فى بروكسل فى ربيع عام ١٨٤٥، كان ماركس... قد انجز بصورة رئيسية تطوير نظريته المادية عن التاريخ، وأخذنا نطور هذه المفاهيم الجديدة بالتفصيل وفى مختلف الاتجاهات»*.

ان مفاهيمهما الجديدة عن العالم عرضها ماركس وانجلس فى كتابهما الضخم: «الايديولوجية الالمانية»، الذى لم يتمكنا من طبعه لعدم وجود ناشر له**. وقد كتب ماركس يقول: «وعرضنا المخطوطة على نقد الفيران القارض خصوصا واننا قد توصلنا الى هدفنا الرئيسى وهو توضيح الامر لانفسنا.»***.

ففى هذا الكتاب عمد ماركس وانجلس فى انتقادهما لآراء الهيغليين الشباب (باوير، شتيرنر)، وعرضا للنقد

---

* انجلس. «بصدد تاريخ عصبة الشيوعيين».

** أعد كتاب «الايديولوجية الالمانية» كليا للطباعة للمرة الاولى فى الاتحاد السوفييتى ونشر فى عام ١٩٣٢ باللغة الالمانية وفى عام ١٩٣٣ باللغة الروسية.

*** انجلس، «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية»، الطبعة العربية، موسكو، ص ٣.

فلسفة هيغل والفلسفة المثالية بصورة عامة. وقدر ماركس وانجلس حق التقدير منجزات فورباخ، واشارا الى نواقص ماديته الميتافيزيائية المحدودة التأملية العاطلة. وقد خصص الكتاب مكانا ملحوظا لفضح «الاشتراكية الحقيقية» المزعومة وهى اشتراكية البرجوازية الصغيرة التى كان ممثلوها (غريون وغيره) يناهضون «الشيوعية الغليظة الهدامة» وصراع الطبقات ويعارضون الحركة التاريخية الحقيقية للطبقة العاملة بوعظ انجيلى عاطفى عن الحب والاخاء والنزاهة، والخ.. وكانت هذه المواعظ العاطفية خطرة جدا اذ انها كانت تضلل البروليتاريا وتصعب عليها ادراك التناقضات المستعصية بينها وبين البرجوازية. وكان «الاشتراكيون الحقيقيون» يشجبون فضلا عن ذلك، كل مساهمة فى المعارك لاجل الديموقراطية مما كان مضرا بصورة خاصة فى المانيا التى كانت على وشك الثورة، وحيث كان يشتد النضال ضد الملكية والاقطاعية.

وفى «الايديولوجية الالمانية» صيغت الموضوعات الاساسية للمادية التاريخية وهى اكتشاف عظيم لكارل ماركس حدد انقلابا جذريا وثورة حقيقية فى مضمار تفسير التاريخ العالمى ورفع التاريخ الى مصاف العلم الحق. كان الرأى سائدا قبل ماركس بأن التغيرات التاريخية تنجم عن تطور الافكار والمفاهيم الفلسفية والدينية والسياسية. الا انه ما من أحد كان يعرف كيف يفسر سبب تغيرات افكار الناس وآرائهم نفسها. أما ماركس فقد بين أن اسلوب انتاج الخيرات المادية وشروط حياة المجتمع المادية هى اساس التطور التاريخى، ولهذا كان لا بد من البحث عن اسباب التغيرات التاريخية والانقلابات الاجتماعية لا فى

الافكار والنظريات والآراء السياسية المجردة بل فى تطور شروط حياة المجتمع المادية، فى الوجود الاجتماعى الذى تعكسه هذه الافكار والنظريات والآراء السياسية.

لقد تقدمت «الايديولوجية الالمانية» لأول مرة بفكرة التتابع الحتمى، القانونى موضوعيا والمشروط تاريخيا للتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية. فكلما نمت القوى المنتجة حل نظام اجتماعى محل غيره: فان الاقطاعية، مثلا، قد اخلت المكان للرأسمالية. ولكن هذا التحول لا يتم بشكل آلى دونما اشتراك البشر. ان التناقضات الداخلية المستعصية الخاصة بكل مجتمع مقسم الى طبقات، تجد تعبيرا عنها فى صراع الطبقات مما يؤدى فى النهاية الى الثورة والى اقامة نظام اجتماعى يحل محل النظام القديم. وقد برهن ماركس وانجلس، على عكس المذاهب التاريخية السابقة التى كانت لا تنسب الدور الخلاق فى التاريخ الا الى الشخصيات البارزة فقط، على ان الخلاق، الصانع الحقيقى للتاريخ هو الجماهير الشعبية وأن صراع الطبقات هو القوة المحركة للتطور التاريخى.

ولقد صاغت «الايديولوجية الالمانية» سلسلة من نقاط الانطلاق للاقتصاد السياسى الماركسى. واعتمادا على تحليل قوانين تطور الرأسمالية، برهن ماركس وانجلس حتمية هلاك المجتمع الرأسمالى وقدما اساسا نظريا لضرورة الثورة الاشتراكية. واشار ماركس وانجلس الى ان البروليتاريا، مثلها مثل كل طبقة تطمح الى السيطرة، يجب ان تستولى، قبل كل شىء، على السلطة السياسية للقضاء على المجتمع الرأسمالى. ان هذه الفكرة كانت تحتوى بذرة مذهب الماركسيـــة حول ديكتاتوريـــة البروليتاريـــا.

ففى هذا الكتاب ارتسمت ايضا بعض معالم المجتمع الشيوعى المقبل.

ان الشيوعية فى نظر ماركس وانجلس، على خلاف ما هو الامر فى نظر الاشتراكيين الطوباويين، ليست حلما خياليا حول مستقبل لامع، بل الهدف الضرورى موضوعيا والمشترط تاريخيا، الذى يجب تحقيقه بواسطة الوسائل الثورية العملية. واذ انتقد ماركس وانجلس مادية فورباخ التأملية العاطلة، اشارا بكل قوة الى الصلة التى لا تنفصم بين النظرية الثورية والتطبيق الثورى، والى دور النظرية المتقدمة الفعال المحول. وهذه الفكرة حددها ماركس باقصى الوضوح فى ملاحظاته الشهيرة عن فورباخ (١٨٤٥) اذ كتب يقول: «ان الفلاسفة لم يفعلوا غير أن **فسروا** العالم باشكال مختلفة ولكن المهمة تتقوم **فى تغييره**»*.

ولقد كانت «الايديولوجية الالمانية» مرحلة هامة فى تشكيل الاسس النظرية والفلسفية للشيوعية العلمية وهى المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية.

* * *

كان ماركس وانجلس، اذ يشيران الى طابع مذهبهما الفعال الثورى، على عكس فلسفة فورباخ، لا ينويان الاقتصار على تدعيم آرائهما علميا وعرضها على عالم «العلماء». كان لا بد من وصل الاشتراكية العلمية بالحركة العمالية الثورية وربطهما فى كل واحد عضوى.

وكان انجلس قد اشار الى هذه الضرورة فى كتابه «وضع الطبقات الكادحة فى انكلترا». وقد اشار ماركس

* انجلس. «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٧٢.

ايضا الى القضية نفسها فى مقاله «حول نقد فلسفة الحقوق لهيغل. المقدمة» (١٨٤٤) حين كتب يقول: «ان سلاح النقد لا يمكن، بالطبع، أن يقوم مقام النقد بالسلاح، لان القوة المادية لا يمكن أن يطاح بها الا بقوة مادية؛ ولكن النظرية، حينما تتغلغل بين الجماهير، تصبح هى ايضا قوة مادية».

ويستطرد: «وكما تجد الفلسفة فى البروليتاريا سلاحها **المادى**، كذلك تجد البروليتاريا فى الفلسفة سلاحها **الفكرى**...»

كان مؤسسا الماركسية يريان فى نظريتهما سلاحا لتحويل العالم التحويل الثورى، ويشيران الى الوحدة التى لا تنفصم بين النظرية والنشاط الثورى، فشنا النضال من اجل ربط الاشتراكية بالحركة العمالية، من اجل انشاء حزب بروليتارى وذلك الى جانب عملهما على تدعيم آرائهما علميا.

وحينما خطا ماركس وانجلس خطواتهما الاولى نحو انشاء الحزب البروليتارى، كانت لهما اتصالات واسعة بين المثقفين والبروليتاريين المنظمين من مختلف البلاد.

فى تلك الفترة كانت تسود فى الحركة الاشتراكية تيارات طوباوية شتى. مثلا، كانت عند العمال والحرفيين الالمان حركة اشتراكية ظهرت بوصفها فرعا من الشيوعية الطوباوية الفرنسية، وكانت «رابطة العادلين» التى تضم الحرفيين بشكل خاص، والتى تأسست فى عام ١٨٣٦ من العناصر اليسارية من «رابطة المنبوذين» الذى تنظم بدوره فى عام ١٨٣٤ فى باريس من المهاجرين الالمان. كانت هذه الرابطة على اتصال وثيق بجمعية «فصول السنة» التى يرأسها الثورى الفرنسى بلانكى.

وقد اعتقل بعض اعضاء «رابطة العادلين»، وبينهم كارل شابر وهنرى باوير وجوزيف مول، وطردوا من فرنسا وذلك بعد تمرد البلانكيين الفاشل عام ١٨٣٩. كان انجلس قد تعرف على هؤلاء الثلاثة فى لندن فى عام ١٨٤٣ فعاد وعاشرهم أثناء اقامته ستة اسابيع فى انكلترا مع ماركس فى عام ١٨٤٥. وكان اعضاء «رابطة العادلين» هؤلاء على رأس الجمعية التثقيفية للعمال الالمان المنظمة فى لندن عام ١٨٤٠. وفضلا عن ذلك، نظمت فى لندن بعض فروع «رابطة العادلين». ومثل هذه الفروع تأسست فى باريس وسويسرا والمانيا. وبعد ما اصبحت لندن مركزا للحركة، صارت الرابطة تحمل طابعا امميا اذ انها كانت تضم تحت لوائها، الى جانب الالمان، السكانديناڤيين والهولنديين والمجريين والتشيكيين وغيرهم.

كانت الافكار الشيوعية للخياط الالمانى ويلهلم ويتلينغ ذات نفوذ بين اعضاء «رابطة العادلين». كان ويتلينغ، خلافا للاشتراكية الطوباوية السلمية لسان سيمون وفوريه وروبرت أوين، يعترف بالنضال القهرى اى الثورة الاجتماعية. الا ان شيوعيته كانت ما تزال طوباوية لأنه ما كان قد كون فكرة صحيحة عن طابع المجتمع المقبل، ولا عن سبل الانتقال اليه، ولا عن القوة الاجتماعية القادرة على تحقيق هذا الانتقال. وعلى الرغم من طابع شيوعية ويتلينغ الطوباوى ومظهرها الدينى المسيحى، لعبت مع ذلك فى تلك الحقبة دورا غير صغير فى تاريخ الحركة العمالية الالمانية «كأول حركة نظرية مستقلة للبروليتاريا الالمانية» (انجلس).

ان ماركس وانجلس اذ وضعا نصب عيونهما مهمة

انشاء حزب بروليتارى، لم يستطيعا أن يتجاهلا وجود حركة شيوعية بين العمال الالمان رغم كل اخطائها ونواقصها وعدم نضوجها. ولهذا كانا يسعيان الى اقامة اتصال مع فروع «رابطة العادلين» لمساعدة اعضائها فى التغلب على آرائهم الطوباوية واستيعاب مذهب البروليتاريا العلمى.

وكان ماركس وانجلس، بمساعدة اصدقائهما ورفاقهما فى النضال الذين كان ولهلم وولف احدهم وصار بعد قليل من أقرب المقربين لهما، قد شرعا ينشآن مركزا تنظيميا فى بروكسل لاقامة الاتصالات بمنظمات العمال الالمان الشيوعية المبعثرة فى أرجاء المانيا وانكلترا وفرنسا وسويسرا وكذلك بالحركة العمالية الثورية فى سائر البلدان.

أخذت اللجنة الشيوعية للمراسلة التى أسسها ماركس وانجلس فى بروكسل، تقوم بمراسلاتها مع ممثلى الحركة العمالية والاشتراكية فى مختلف البلدان.

وقد وفقت فى منتصف عام ١٨٤٦ الى الاتصال بـ«رابطة العادلين» فى لندن وبالجمعية التثقيفية للعمال الالمان وبالميثاقيين الانكليز وبالفروع الالمانية لـ«رابطة العادلين» فى باريس وكذلك بفئات شيوعية منفردة فى المانيا (فى وبرتال وكولونيا وسيليسيا وفى شمال المانيا، والخ..).

وكان بعضهم قد طرح مسألة انعقاد مؤتمر شيوعى عالمى. ولكن لجنة بروكسل وجدت أن مرحلة تجمع القوى لم تنته بعد وان انعقاد المؤتمر لم يحل اوانه. كان ماركس وانجلس يدركان أن مؤتمرا يدعى الى ارساء اسس

حزب عمالي يتطلب عملا تحضيريا عظيما. كان يجب لا توحيد جماعات العمال الالمان الشيوعية المنعزلة واقامة اتصال أوثق بمنظمات البروليتاريا الانكليزية والفرنسية وحسب، بل وتوضيح المسائل الاساسية للحركة الشيوعية.

كانت نظرية ماركس وانجلس الثورية الجديدة تتشكل وتشق طريقا لها الى الجماهير العمالية بالنضال ضد الايديولوجية البرجوازية والبرجوازية الصغيرة.

وكان أحد العوائق التي تعرقل انتشار المذهب الجديد الثوري في صفوف جماهير العمال هو شيوعية ويتلينغ الانعزالية الضيقة مع سواسيتها الفظة ورفضها النضال السياسي. وحينما اقام ويتلينغ في بروكسل بعد ما اختصم في لندن مع اعضاء «رابطة العادلين»، حاول ماركس وانجلس أن يجتذباه الى جانبهما ولكنه ظل يصر على آرائه متصورا نفسه رجلا عظيما يضطهده اعداء سريون وحسادون. وحينذاك اضطر ماركس الى ان يخطب بحدة في جلسة لجنة بروكسل في ٣٠ آذار – مارس – ١٨٤٦ ضد شيوعية ويتلينغ وضد «الاشتراكية الحقيقية» طالبا تطهير الحزب. وبعد وقت قريب، أخبرت اللجنة مختلف المنظمات الشيوعية المرتبطة بها بشأن قطيعتها الباتة مع ويتلينغ.

وقد انتقد ماركس وانجلس انتقادا شديدا في سلسلة من المنشورات مذهب «رابطة العادلين» الذي كان آنذاك عبارة عن خليط من الفلسفة الالمانية والاشتراكية الطوباوية. ان المنشورة الوحيدة التي وصلت الينا من جميع هذه المنشورات كانت موجهة ضد الممثل النموذجي «للاشتراكية الحقيقية» هرمن كريغه، محرر الجريدة

الالمانية «الخطيب الشعبى» («فولكس تريبون») الصادرة في نيويورك. وقد اتخذت لجنة بروكسل في اجتماعها المنعقد في ١١ أيار - مايو - ١٨٤٦، قرارا نص على أن آراء كريغه ليست بشيوعية وانه اذ يدعى بانه شيوعى يسيء بذلك الى سمعة الحركة الشيوعية.

وقد ارسلت لجنة بروكسل هذا القرار الى المنظمات والفروع الشيوعية المتصلة بها مرفقا برسالة دورية حررها ماركس وانجلس بينا فيها ضرورة القطيعة الحاسمة مع العناصر البرجوازية الصغيرة من امثال كريغه التى تؤثر تأثيرا فاسدا في الحركة الشيوعية وحزب العمال. وقد انتقدا انتقادا شديدا تلك الاوهام الخيالية المفعمة بحب البشر التى كان كريغه يروجها تحت اسم «الشيوعية»، وكذلك آراءه الطوباوية والبرجوازية الصغيرة في المسألة الزراعية.

كان التأثير البرجوازى الصغير ما يزال قويا في مختلف فروع الرابطة ولا سيما في باريس. وفي شهر آب - اغسطس - ١٨٤٦ رأت لجنة بروكسل انه من الضرورى بعث انجلس الى باريس. وبعد وصوله الى هنا اتصل بفروع «رابطة العادلين» الباريسية. وفي اثناء هذه الاتصالات اتضح له ان «تشبكا لا حد له يسود» فيها، على حد تعبيره. كانت هذه الفروع ما تزال تضم بين اعضائها انصار ويتلينغ وتفتح أبوابها لحواريى «الاشتراكية الحقيقية» امثال كارل غريون الذى كان يحشو رؤوس مستمعيه بجمل مبهمة عن المثل العليا والود والانسانية وكذلك بافكار الاصلاحى البرجوازى الصغير الفرنسى برودون الذى انتقد ماركس آراءه بعد وقت في كتابه «بؤس الفلسفة» الصادر عام ١٨٤٧.

كان غريون على نمط برودون يدعو الى تنظيم جمعيات عمالية من شأنها تأسيس معامل باموال العمال لترك أرباب الاعمال، بالتالى، بدون أيد عاملة. وقد اخبر انجلس فى رسالة بعث بها الى ماركس عن هذا المشروع المدهش الرامى الى «شراء فرنسا كلها» بتوفيرات البروليتاريا فكتب يقول: «ان هذا معيب اذ ينبغى محاربة مثل هذا اللغو جديا. ولكن لا بد من أن اتحلى بالصبر. غير اننى لن اترك هؤلاء وشأنهم قبل أن اهزم غريون واطهر ادمغتهم المحشوة بالزبالة...».

وتكلم انجلس فى سلسلة من الاجتماعات لفروع «رابطة العادلين» فانتقد بحدة مشروع غريون – برودون الخيالى وكشف طابعه البرجوازى الصغير المناوئ للبروليتاريا والمناهض للشيوعية. واثناء المناقشة التى احتدمت فى احد هذه الاجتماعات طرح انجلس على التصويت المسألة التالية: هل هذا الاجتماع شيوعى؟ وصاغ اهداف الشيوعيين على هذا النحو:

«١) الدفاع عن مصالح البروليتاريا ضد مصالح البرجوازيين. ٢) بلوغ هذا الهدف بالغاء الملكية الخاصة واستبدال مشاعية الاملاك بها. ٣) رفض اى وسيلة غير الثورة الديموقراطية والعنيفة بقصد تحقيق هذه النوايا».

وبنتيجة المناقشة الحامية صوتت اغلبية المجتمعين الساحقة على صيغة انجلس هذه معلنين بالتالى انهم شيوعيون وانهم يتحولون عن البرودونية و«الاشتراكية الحقيقية» تحولا باتا.

وحول هذا النضال الذى خاضه انجلس دفاعا عن

مبادئ الشيوعية كتب لينين فى عام ١٩١٣ يقول: «وعلى هذا النحو، وضعت، منذ ٦٧ سنة، فى باريس، اسس حزب العمال الاشتراكى – الديموقراطى الالمانى»*.

وان تغيرات مثل هذه قد طرأت على فروع «رابطة العادلين» الاخرى. وبفضل جهود ماركس وانجلس، راحت «الرابطة» تطهر صفوفها بصورة تدريجية من «النظريين» البرجوازيين الصغار الغريبين واخذ اعضاؤها تميل اكثر فاكثر الى الآراء التى كان ينشرها ماركس وانجلس.

وكنتيجة طبيعية لذلك النضال الدائب الذى خاضه مؤسسا الماركسية فى سبيل انشاء الحزب البروليتارى، كانت زيارة جوزيف مول فى مطلع عام ١٨٤٧ لماركس فى بروكسل ثم لانجلس فى باريس، بصفته مندوباعن لجنة «رابطة العادلين» فى لندن، قصد الحصول على موافقتهما على انتسابهما رسميا الى هذه الرابطة. وقد رجاهما مول باسم رفاقه المقتنعين مثله بصحة آراء ماركس وانجلس، أن يعرضا مفاهيمهما بشكل بيان يطرح على بساط البحث فى مؤتمر الرابطة فى لندن بصفته برنامجا رسميا، كما رجاهما ان يساعدا فى انشاء منظمة جديدة للرابطة بدلا من اشكالها العتيقة فقبل ماركس وانجلس ذلك.

وقد انعقد المؤتمر فى لندن فى مطلع شهر حزيران – يونيو – ١٨٤٧ باشتراك انجلس مندوبا عن الفروع فى باريس، وولف مندوبا عن الفروع فى بروكسل. ولم يتمكن ماركس من الحضور بسبب المصاعب المالية.

وفى المؤتمر، استعيض عن اسم «رابطة العادلين»

---

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٨٥.

باسم «عصبة الشيوعيين». أن «عصبة الشيوعيين» قد اعيد تنظيمها على اساس نظام داخلى جديد، كانت مادته الاولى التى حررها انجلس تنادى بـ«أن هدف العصبة هو الاطاحة بالبرجوازية، سيادة البروليتاريا، القضاء على المجتمع البرجوازى القديم القائم على التناحر الطبقى، تأسيس مجتمع جديد لا طبقات ولا ملكية خاصة فيه»*.

أما الشعار القديم للرابطة: «جميع الناس اخوان» فقد استبدل بشعار جديد وضعه ماركس وانجلس: «ياعمال العالم، اتحدوا!» ان هذا الشعار المعبر عن مبدأ الاممية البروليتارية صار منذئذ نداء البروليتاريين فى نضالهم ضد العبودية الرأسمالية.

وقد أرسل النظام الداخلى الجديد الى الفروع لمناقشته قبل أن يعرض على الموافقة النهائية فى المؤتمر الثانى مع البرنامج الجديد، الشيوعى.

وبعد المؤتمر الأول تأسس فرع العصبة فى بروكسل ايضا وكان ماركس على رأسه وعلى رأس لجنة الدائرة. وفضلا عن ذلك، نظم ماركس وانجلس فى بروكسل جمعية عمالية المانية كانت رئاستها تابعة لفرع «عصبة الشيوعيين» فى بروكسل. وقبل هذا الحين تسلما مقاليد الادارة فى «الجريدة الالمانية البروكسلية» واستطاعا ان ينشرا آراءهما بواسطتها.

وكان ماركس وانجلس يشيران فى مقالاتهما المنشورة فى هذه الجريدة الى ان الثورة وشيكة الاندلاع فى بعض بلدان اوروبا ويرسمان تكتيك البروليتاريا واستراتيجيتها

---

* انجلس. «بصدد تاريخ عصبة الشيوعيين».

فى هذه الثورة. وكان ماركس وانجلس يصدان سواءا محاولات تغزل الاحزاب الاقطاعية الرجعية بالبروليتاريا ام محاولات البرجوازية لتحويل الطبقة العاملة الى ذيل لسياستها وأداة طيعة فى نضالها ضد الاوتوقراطية. وقد دعا ماركس وانجلس العمال الى الاشتراك بأنشط شكل فى المعارك الثورية المقبلة مشيرين الى أن الثورة البرجوازية ليست هى الهدف النهائى لنضال البروليتاريا وأنه لا بد للبروليتاريا بعد انتصار الثورة البرجوازية من أن تشعل نار النضال فى سبيل الثورة الاشتراكية.

وعدا «الجريدة الالمانية البروكسلية» كان انجلس يشتغل أيضا فى جريدة الميثاقيين «نجمة الشمال» وجريدة «الاصلاح» («لا ريفورم») لسان حال الديموقراطيين الفرنسيين.

وقد اشترك ماركس وانجلس، الى جانب تنظيمهما فرع «عصبة الشيوعيين» فى بروكسل والجمعية للعمال الالمان، فى انشاء منظمة اوسع هى الجمعية الديموقراطية التى اتاحت لهما الاتصال بالديموقراطيين المحليين فى بروكسل وبالديموقراطيين المهاجرين من سائر البلدان.

وكان قد سبق لماركس وانجلس فى عام ١٨٤٥، خلال رحلتهما المشتركة الى انكلترا، أن اتخذا، بالاشتراك مع الميثاقيين والثوريين المهاجرين من مختلف البلدان، التدابير اللازمة لتأسيس جمعية دولية – «الديموقراطيون المتآخون» – معتقدين انه من واجب البروليتاريا تدعيم وتأييد كل حركة تقدمية ديموقراطية.

وفى منتصف شهر تشرين الاول – اكتوبر – ١٨٤٧ قصد انجلس باريس مرة أخرى للقيام بعمل واسع

تحضيرى للمؤتمر الثانى لـ« عصبة الشيوعيين » الذى سيبحث فيه البرنامج الجديد.

كانت لجنة لندن قد أرسلت الى الفروع قصد المناقشة، مشروعا للبرنامج حرره شابر ومول وسمى « رمز الايمان »، حسب التقاليد الرائجة آنذاك بالنسبة لمثل هذا النوع من الوثائق المخصصة للعمال.

تلقت فروع باريس هذا النص معدلا من قبل هس. ولكن انجلس انتقده انتقادا شديدا حتى ان منظمة باريس كلفته باعادة تحرير المشروع من جديد.

وفى نهاية شهر تشرين الثانى - نوفمبر - أبلغ انجلس ماركس أنه قد وضع مسودة مشروع هذا البرنامج الجديد وأنه يقترح ان يسمى « البيان الشيوعى » بدلا من « رمز الايمان ». وقد كتب انجلس فى رسالته الى ماركس يقول: « ...فكر اذن فى « رمز الايمان »، اعتقد انه يحسن بنا ان نترك كل شكل دينى وان نسميه بـ« **البيان** الشيوعى ». ولما كنا مضطرين الى أن نعرض فيه تاريخ القضية بهذه السعة او تلك فان الشكل المألوف لا يلائم أبدا. سوف اجلب المشروع الذى وضعته هنا. كتبته باسلوب بسيط جدا، غير ان نوعية تحريره سيئة، اذ تمت على عجلة. ابدأ بالسؤال التالى: « ما هى الشيوعية؟ » ثم انتقل فورا الى البروليتاريا: الى تاريخ منشئها وميزتها عن الكادحين السابقين، وتطور التناحر بينها وبين البرجوازية، والازمات والاستنتاجات. والى جانب هذا اعرض كل نوع من الاشياء الثانوية، ثم سياسة الحزب الشيوعى فى الحدود التى يمكن عرضها به على الملأ »*.

* لينين، « ماركس، انجلس، الماركسية ». الطبعة العربية. موسكو. ص ٨٦.



فريدريك انجلس (فى سنوات العقد الخامس)

هكذا خط انجلس المشروع الأول «للبيان الشيوعى» المعروف باسم «مبادئ الشيوعية».

وفى جملة المسائل التى انارها انجلس فى عمله هذا كانت مسألة امكانية انتصار الثورة الاشتراكية فى بلد واحد. وانطلاقا من ظروف الرأسمالية فى مرحلتها قبل الاحتكار، استنتج انجلس أن الثورة الاشتراكية لا يمكن أن تنتصر فى بلد واحد وأنه لا بد لها من أن تحدث فى جميع البلاد المتمدنة فى وقت واحد. ولكن لينين، فى تطويره الماركسية فى الظروف التاريخية الجديدة، اكتشف قانون التفاوت الاقصى فى التطور الاقتصادى والسياسى للرأسمالية فى عصر الاستعمار واعتمادا الى هذا القانون اعاد نظره فى حكم انجلس العتيق هذا واستنتج ان انتصار الاشتراكية، فى البداية، فى عدد من البلدان بل حتى فى بلد على حدة أمر ممكن فى ظروف الاستعمار بينا انتصار الثورة الاشتراكية فى جميع البلدان او فى اكثريتها فى آن واحد هو امر مستحيل.

انعقد المؤتمر الثانى لـ«عصبة الشيوعيين» فى شهر تشرين الثانى – نوفمبر – وشهر كانون الاول – ديسمبر – عام ١٨٤٧ فى لندن. وكان انجلس يمثل فيه الفروع الباريسية، وماركس يمثل فرع بروكسل.

وبعد مناقشات طويلة عاصفة دافع ماركس وانجلس اثناءها عن نظريتهما الجديدة، اقر المؤتمر بالاجماع مبادئهما وكلفهما بتأليف البيان المقبل.

استفاد ماركس وانجلس من اقامتهما فى لندن لتوسيع صلاتهما بالعمال الشيوعيين والديموقراطيين من مختلف البلدان. وقد حضرا الاجتماع الديموقراطى العالمى المكرس

لذكرى الانتفاضة البولونية عام ١٨٣٠. وفى خطابيهما فى هذا الاجتماع رسما الخطوط العامة لسياسة البروليتاريا فى مسألة القوميات. وتقدم انجلس فى كلامه بالحكم التالى: «ان أمة تظلم غيرها لا يمكن أن تكون حرة» وهو الحكم الذى صار فيما بعد المبدأ الهادى للطبقة العاملة فى هذه المسألة.

وفى اواسط شهر كانون الاول - ديسمبر - عام ١٨٤٧ غادر ماركس وانجلس لندن قاصدين بروكسل، ثم ذهب انجلس بعد ذلك بقليل الى باريس ثانية بينما انصرف ماركس الى تحرير برنامج «عصبة الشيوعيين» تحريرا نهائيا.

فى شباط - فبراير - عام ١٨٤٨ صدر فى لندن «بيان الحرب الشيوعى». ان هذه الوثيقة المنهاجية الاولى للشيوعية العلمية صارت فيما بعد، كما كتب انجلس، اوسع المؤلفات انتشارا وأكثرها أممية فى الادب الاشتراكى كله، وصارت البرنامج المشترك لملايين عديدة من العمال فى جميع البلدان من أقاصى سيبيريا الى أقاصى كاليفورنيا.

قدم «بيان الحزب الشيوعى» لأول مرة عرضا موجزا واضحا لمذهب البروليتاريا الثورى وهو الشيوعية العلمية. كتب لينين يقول: «أن هذا المؤلف يعرض بجلاء ودقة عبقريين المفهوم الجديد عن العالم، وهو المادية المتماسكة التى تشمل أيضا ميدان الحياة الاجتماعية؛ والديالكتيك، العلم الاوسع والاعمق عن تطور ونظرية نضال الطبقات والدور الثورى الذى اضطلعت به البروليتاريا فى التاريخ العالمى، خالقة المجتمع الجديد، المجتمع الشيوعى» *.

ان مضمون «البيان الشيوعى» من أوله الى آخره

---

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ١١.

يدعم ويبرر علميا الحتمية التاريخية لانهيار الرأسمالية والاستعاضة عنها بمجتمع جديد لا طبقات فيه، وذلك نتيجة للثورة البروليتارية واستقرار السيطرة السياسية للبروليتاريا. وفى «البيان الشيوعى» يبرهن ماركس وانجلس أن تاريخ البشرية (بعد تلاشى النظام المشاعى البدائى) لم يكن سوى تاريخ النضال الطبقى بين المستثمرين والمظلومين، بين الطبقات المتسلطة والطبقات المظلومة. أما المجتمع الرأسمالى الذى خلف الاقطاعية فلم يصنع غير أن أقام طبقات جديدة مكان الطبقات القديمة فشدد التناقضات الطبقية وزادها تفاقما. وقد برهن مؤسسا الماركسية فى «البيان الشيوعى»، على عكس الايديولوجيين البرجوازيين ونظرياتهم حول الطابع «فوق الطبقى» للدولة، أن سلطة الدولة فى ظل المجتمع الرأسمالى لا تمثل سوى «لجنة ادارية تدير الشئون العامة للطبقة البرجوازية بأسرها»*.

وقد بين ماركس وانجلس فى «البيان الشيوعى» أن الملكية الخاصة لوسائل الانتاج تتحول الى قيود بالنسبة للقوى المنتجة المتنامية، وأن التناقض بين الطابع الاجتماعى للانتاج والطابع الرأسمالى الخاص لتملك منتجات العمل، وهو تناقض الرأسمالية الرئيسى، يتفاقم اكثر فاكثر. فالتناقضات الرأسمالية تتجلى فى الازمات التى تهز المجتمع الرأسمالى بشكل دورى. وتسعى البرجوازية الى التغلب على هذه الازمات عن طريق اتلاف المنتجات التى صنعتها ايدى الكادحين وعن طريق الاستيلاء على اسواق جديدة وعن طريق شن حروب لصوصية تلحق شرورا عظيمة بالبشرية.

* ماركس وانجلس. «بيان الحزب الشيوعى». الطبعة العربية. موسكو. ص ٦٣.

ولكن البرجوازية، كما قيل فى «البيان الشيوعى»، لا تفعل بجميع هذه التدابير غير ان تهيئ ازمات مقبلة أكثر تدميرا. ان البرجوازية التى تدافع عن الملكية الخاصة لوسائل الانتاج تتحول من الطبقة التقدمية التى كانتها فى الماضى الى الطبقة الاكثر رجعية، والى عائق فى طريق الانسانية نحو النظام الاجتماعى الاسمى الا وهو الشيوعية.

لقد أشار مؤسسا الماركسية فى «البيان الشيوعى» الى أن الطريق الوحيد لتخليص الشغيلة من الكوارث والآلام التى تنزلها الرأسمالية بهم هو الثورة الاشتراكية واستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية.

ان الرأسمالية تخلق فى سياق تطورها التمهيدات المادية للمجتمع المقبل الشيوعى، كما تخلق فى شخص البروليتاريا الطبقة التى سوف تقبر الرأسمالية وتبنى مجتمعا جديدا. فالبروليتاريا التى هى طبقة ثورية حتى النهاية بطبيعتها بالذات لا يمكن أن تحرر نفسها دون تحرر البشرية كلها من كل نوع من الاستغلال والظلم.

يقول «البيان الشيوعى»: «ان البرجوازية تنتج قبل كل شيء حفارى قبرها، فسقوطها وانتصار البروليتاريا كلاهما أمران لا مناص منهما»*.

وقد تقدم «البيان الشيوعى» بالحكم القائل بالدور القيادى للحزب الشيوعى وهذا شرط ضرورى لنجاح نضال البروليتاريا وانتصاراتها. وقد بين ماركس وانجلس فيه أن الشيوعيين هم القسم الطليعى من الطبقة العاملة، القسم الأكثر تصميما، وهم يمتازون على سائر العمال بكونهم مسلحين بنظرية ثورية تتيح لهم فهم شروط الحركة

* ماركس وانجلس. «بيان الحزب الشيوعى». ص ٨٦.

البروليتارية وسيرها ونتائجها العامة. أن الشيوعيين يدافعون عن مصالح العمال العامة بغض النظر عن قوميتهم، وهم الانصار الواعون للاممية البروليتارية المنسجمة الى النهاية، وينطلقون فى جميع مراحل نضال الطبقة العاملة من مصالح البروليتاريا العامة، الجذرية، من هدف القضاء على كل استثمار وكل ظلم. ان هذه الخطوط الاولية للحزب البروليتارى الواردة فى «البيان الشيوعى» طورها لينين فيما بعد الى تعاليم منسجمة عن الحزب البروليتارى بصفته السلاح الرئيسى للطبقة العاملة فى نضالها من اجل الاشتراكية والشيوعية.

ان مؤسسى الماركسية، فى فضحهما الاكاذيب والاقاويل التى تروجها البرجوازية حول آراء الشيوعيين ومقاصدهم، قد حددا فى «البيان الشيوعى» اغراض الحزب البروليتارى الحقيقية على هذا النحو: الاطاحة بسيطرة البرجوازية واستيلاء البروليتاريا على مقاليد السلطة السياسية.

«ان البروليتاريا سوف تستخدم سيادتها السياسية لاجل انتزاع الرأسمال من البرجوازية شيئا فشيئا ولتركيز جميع ادوات الانتاج فى أيدى الدولة أى فى أيدى البروليتاريا المنظمة فى طبقة حاكمة ولزيادة كمية القوى المنتجة وانمائها باسرع ما يمكن»*.

ان حكم «البيان الشيوعى» هذا يحتوى فكرة من أبرز أفكار الماركسية عن الدولة. كتب لينين يقول: «»ان **الدولة، اى البروليتاريا المنظمة فى طبقة مسيطرة**»، هذه هى ديكتاتورية البروليتاريا بالذات»**.

---

* ماركس وانجلس. «بيان الحزب الشيوعى». ص ١٠٤.

** لينين، «الماركسية بصدد الدولة».

ان نظرية ديكتاتورية البروليتاريا هى جوهر الماركسية. ان مبدأ الأممية البروليتارية الذى نادى بها ماركس وانجلس قد وجد له تدعيما نظريا عميقا فى «البيان الشيوعى». ان سيطرة البروليتاريا، كما يبرهن ماركس وانجلس، ستقضى على الظلم القومى وتحرر البشرية من حروب الغزو والسلب.

«ازيلوا استثمار الانسان للانسان تزيلوا استثمار امة لاخرى.

وعندما يزول تناحر الطبقات فى قلب كل امة يزول فى الوقت نفسه العداء والحقد بين الامم» *.

ان قوة البصيرة العلمية لمؤسسى الماركسية قد برزت بجلاء فى كونهما قد استطاعا ان يرسما فى «البيان الشيوعى» الخطوط العامة للمجتمع العتيد، الشيوعى وان يبرهنا على التفوق العظيم للنظام الاجتماعى الذى ستنشؤه البروليتاريا. لقد بين ماركس وانجلس أن القوى الانتاجية فى المجتمع الشيوعى لن تصطدم بأى عائق وانه لن يكون، بالتالى، اى حد لتطورها. ان النظام الشيوعى، على عكس النظام الرأسمالى الذى يسود فيه هذا المبدأ: «الذين يعملون لا يكسبون والذين يكسبون لا يعملون»، سيجعل من العمل وسيلة لجعل حياة الشغيلة سعيدة ميسورة.

والى جانب صياغة برنامج الشيوعيين، انتقد ماركس وانجلس فى «البيان الشيوعى» مختلف التيارات الاشتراكية القائمة آنذاك والتى كانت تعوق انتشار الشيوعية العلمية بين البروليتاريا وانشاء حزب بروليتارى. وقد فضح ماركس وانجلس جذور هذه التيارات الطبقية، موضحين ضلالها

* ماركس وانجلس. «بيان الحزب الشيوعى». ص ١٠٠.

وضررها. فالتحليل الذى اعطاه «البيان الشيوعى» عن الأدب الاشتراكى والشيوعى يبرهن بطريقة أكيدة أن الشيوعية العلمية وحدها، بوصفها نظرية البروليتاريا الثورية، انما هى ذلك المذهب الاشتراكى الذى سيكون المستقبل له.

وفضلا عن البرنامج العلمى للحزب البروليتارى، يحتوى «البيان الشيوعى» الاسس النظرية لتكتيك هذا الحزب. وقد صيغ مبدؤه الاساسى على النحو التالى: «ان الشيوعيين يناضلون فى سبيل المصالح والاهداف المباشرة للطبقة العاملة، الا أنهم فى الحركة الحالية يدافعون فى الوقت نفسه عن مستقبل الحركة»*. ان هذا يعنى أن الشيوعيين خلال جميع مراحل نضال البروليتاريا يجب ألا يغرب عن بالهم لحظة واحدة المهمة الرئيسية للطبقة العاملة، وهى تصفية العبودية المأجورة.

وقد شرح ماركس وأنجلس انه يجب على الشيوعيين أن يؤيدوا كل حركة تقدمية ثورية موجهة ضد النظام الاجتماعى والسياسى الرجعى. وقد حللا الموقف الذى ينبغى أن يقفه الشيوعيون تجاه مختلف الاحزاب المعارضة فى شتى البلدان فأعارا انتباها خاصا الى ألمانيا حيث كانت تنضج الثورة الديموقراطية البرجوازية. وقد وضع «البيان الشيوعى» على كاهل الطبقة العاملة الألمانية وحزبها مهمة النضال الثورى ضد الحكم المطلق والملكية الاقطاعية. وفى هذه المرحلة من النضال ستناضل البروليتاريا الى جانب البرجوازية طالما تناضل البرجوازية ضد الاوتوقراطية والاقطاعية بصورة ثورية. غير أن الحزب الشيوعى يجب

* ماركس وانجلس. «بيان الحزب الشيوعى». ص ١٣٢.

أن يؤول بالعمال فى الوقت نفسه الى ادراك واضح لتناقض المصالح بين البرجوازية والبروليتاريا، اذ انه يتوجب على البروليتاريا شن النضال ضد البرجوازية نفسها وذلك بعد اسقاط الطبقات الرجعية واستيلاء البرجوازية على زمام السلطة.

وقد انتهى «بيان الحزب الشيوعى» بالنداء الصريح الملىء بالفخار، الى الثورة البروليتارية:

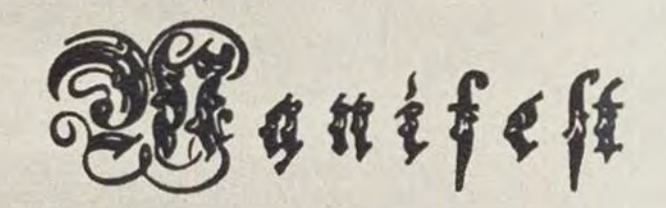
«فلترتعش الطبقات الحاكمة امام الثورة الشيوعية. فليس للبروليتاريا ما تفقده فيها سوى قيودها واغلالها، وتربح من ورائها عالما بأسره.

يا عمال العالم اتحدوا!»*

ان «بيان الحزب الشيوعى» انما هو مؤلف خالد لماركس وأنجلس مشبع بروح الالهام الخلاق الرفيع والوقدة الثورية العظيمة. ولم يكن تعميما لعمل ماركس وانجلس الخلاق السابق كله فحسب، بل كان ايضا خطوة جديدة جبارة الى الامام فى بناء صرح الشيوعية العلمية وهو الماركسية.

لقد أشار فريدريك أنجلس غير مرة الى أن نظرية البروليتاريا، هذه النظرية الثورية والعلمية حقا – وهى اعظم اكتشافات القرن التاسع عشر – انما هى بالدرجة الاولى من صنع كارل ماركس ولهذا تحمل اسمه بحق وجدارة. ففى كتاب «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية الكلاسيكية» الذى ألفه انجلس قرب غروب حياته، تحدث عن دور ماركس ودوره هو انجلس فى وضع الشيوعية

* ماركس وانجلس. «بيان الحزب الشيوعى». ص ١٣٥.



der

Kommunistischen Partei.

Veröffentlicht im Februar 1848.

Proletarier aller Länder vereinigt euch.

London.

Gedruckt in der Office der „Bildungs=Gesellschaft für Arbeiter"

von J. E. Burghard.

46, Liverpool Street, Bishopsgate.

غلاف الطبعة الاولى من « بيان الحزب الشيوعى »

العلمية فقال: «لا أستطيع أن أنكر أننى اشتركت بصورة مستقلة الى حد ما، قبل واثناء تعاونى خلال اربعين سنة مع ماركس، سواءأ فى تثبيت النظرية التى نتكلم عنها ام فى وضعها على الاخص. ولكن الجزء الاكبر من الافكار الاساسية الموجهة، وخاصة فى الميدان الاقتصادى والتاريخى، ولا سيما فيما يتعلق بصياغتها الواضحة النهائية، انما هى جميعها ترجع الى ماركس. وما اسهمت به انا، كان بامكان ماركس ان يفعله بكل سهولة بدونى - ربما باستثناء ميدانين او ثلاثة من الميادين الخاصة. ولكن ما فعله ماركس، ما كان فى مستطاعى انا ان اقوم به ابدا. ان ماركس كان يتخطانا جميعا وكان يرى ابعد واوسع منا جميعا. ان ماركس كان عبقريا، اما نحن فكنا، على أكثر تقدير - موهوبين. ولولاه لكانت النظرية بعيدة جدا عما هى عليه اليوم. ولهذا، فانها تحمل بجدارة اسمه»*.

لم تكن الشيوعية العلمية نتيجة اكتشاف عرضى لفكر عبقرى. لقد كان ظهورها نتيجة لا مناص منها لصراع طبقتين مؤلفتين تاريخيا: البرجوازية والبروليتاريا. ولو ان البروليتاريا، هذه الطبقة الجديدة الثورية، لم تكن قد تشكلت، ولو ان الصراع الطبقى بين البروليتاريا والبرجوازية لم يكن قد تقدم الى مركز الصدارة فى تاريخ اكثر بلدان اوروبا تقدما، لما ظهرت تعاليم ماركس. لقد نشأت الشيوعية العلمية كنتيجة تعميم نظرى لتجربة النضال الطبقى ولا سيما تجربة الحركة العمالية فى مختلف البلدان.

كانت المصادر النظرية للماركسية مذاهب كبار ممثلى

---

* انجلس، «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٤٤.

الفلسفة الالمانية والاقتصاد السياسى الانكليزى والاشتراكية الفرنسية. فبعد أن عالج ماركس، بفكره النقاد، منجزات العلم السابق معالجة انتقادية، استطاع أن يكوّن مفهوما عن العالم قادرا على الاجابة عن المسائل التى قد طرحها الفكر البشرى من زمان. لقد كتب لينين مبينا مأثرة كارل ماركس العلمية العظيمة فقال: «ان كل ما ابدعه الفكر البشرى قد عدّله ماركس وانتقده بعد ان خبره فى معمعان الحركة العمالية، واستخلص منه استنتاجات لم يستطع أن يستخلصها الناس المحصورون فى النطاق البرجوازى أو المقيدون بالأوهام البرجوازية»*.

ان المذهب الماركسى، وهو الوريث الشرعى لخير ما انتجه الفكر البشرى، قد أحدث ثورة حقيقية فى ميدان الفلسفة والاقتصاد السياسى وفى تطور الفكر الاشتراكى.

وان ماركس وانجلس، خلافا لمفكرى الماضى الذين ظلوا بمنأى عن الجماهير الشعبية الواسعة، ما كانا عالمين عبقريين فحسب، بل كانا ثوريين عظيمين وقائدين مرموقين للبروليتاريا. ومع ظهور الماركسية خلقت لأول مرة الشروط لوصل الاشتراكية بالحركة العمالية.

ان مذهب ماركس انما هو ايديولوجية البروليتاريا والتعبير العلمى عن مصالحها الجذرية. لقد اصبح هذا المذهب سلاحا فكريا للطبقة العاملة فى نضالها من اجل التحرر من العبودية الرأسمالية.

وان احداث عامى ١٨٤٨-١٨٤٩ الثورية عرضت الماركسية على أول امتحان تاريخى.

---

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٦٨٨.

٥

أنجلس خلال ثورة ١٨٤٨-١٨٤٩

وافق ظهور « بيان الحزب الشيوعى » أحداثا ثورية بارزة فى أوروبا.

ففى كانون الثانى - يناير - عام ١٨٤٨ اندلعت نار الانتفاضة فى جزيرة صقلية. وفى ٢٣-٢٤ شباط-فبراير-من العام نفسه هب عمال باريس بمساندة من البرجوازية الصغيرة وقاتلوا قتالا بطوليا على المتاريس وفلوا جيوش « ملك اصحاب البنوك » لويس فيليب وأرغموا الحكومة الموقتة على اعلان الجمهورية الفرنسية. وفى اواخر شباط - فبراير - ومطلع آذار - مارس - شملت موجة الثورة الدويلات الالمانية الغربية والجنوبية المجاورة لفرنسا (الباد وورتمبورغ وبافاريا والساكس)، بينما انطلقت حركة التحرر الوطنى فى المجر التى كانت حينذاك منضمة الى المملكة النمساوية المتعددة القوميات، « سجن الشعوب » هذا. وفى ١٣ آذار -مارس- اندلعت نار الانتفاضة فى عاصمة النمسا نفسها، مدينة فيينا، ثم فى ١٨ آذار - مارس - فى برلين، عاصمة بروسيا. وفى آذار- مارس- ونيسان- ابريل-شهدت انكلترا موجة جديدة من حركة الميثاق. هذه كانت المعارك

الثورية الكبيرة الأولى لعام ١٨٤٨، هذا «العام المجنون» كما سماه المؤرخون البرجوازيون.

أما الأهداف المباشرة لهذه المعارك الثورية التى اندلعت نارها فى سلسلة من بلدان اوروبا الغربية، فكانت مختلف اهداف الثورة البرجوازية.

الاطاحة بالملكيات المطلقة، القضاء على الملكية الاقطاعية، التحرر من نير الظلم الاجنبى، انشاء دول وطنية (قومية) ديموقراطية موحدة — هذه كانت الاهداف التاريخية لذلك العصر. وكان مؤسسا الماركسية يعتقدان أن الثورة البرجوازية فى سلسلة من البلدان الاوروبية، شرط ان يسير النضال الطبقى سيرا موفقا، ان هذه الثورة فى مستطاعها أن تكون تمهيدا مباشرا للثورة البروليتارية.

كان ماركس وأنجلس يعتبران الثورات قاطرات التاريخ، فكانا يتلقيان بفرح أنباء كل تلك الحوادث الثورية. وكانا يريان واجبهما الاساسى فى مساعدة الجماهير الشعبية على جعل عملهـا العفوى أكثر وعيا وتنظيما.

كتب لينين يقول: «وفى نشاط ماركس وأنجلس بالذات، تبدو مرحلة اشتراكهما فى نضال الجماهير الثورية فى عامى ١٨٤٨—١٨٤٩ كنقطة مركزية»*.

وقبيل الثورة فى فرنسا طرد أنجلس من باريس بسبب نشاطه الثورى بين العمال فذهب الى بروكسل حيث لم يمكث طويلا مع ذلك. كانت العاصمة الفرنسية بعد بدء ثورة شباط — فبراير — قد صارت مركز النشاط الثورى فقرر ماركس وأنجلس الاستقرار فيها. والسلطات البلجيكية

---

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٣٠٠.

عجلت ترحيل الصديقين: ففى الثالث من آذار – مارس – بعد ما تلقى ماركس أمرا بمغادرة البلاد خلال اربع وعشرين ساعة، قبض فى ٤ آذار على ماركس ثم على زوجته ومكثا طول الليل فى السجن، ثم أطلق سراحهما فى الصباح، فسافر ماركس على الفور الى باريس اذ انه تلقى امرا بترك البلاد حالا. أما أنجلس فقد بقى حوالى أسبوعين فى بروكسل لينظم حملة الاحتجاج على طرد ماركس ولتسوية شؤونه الشخصية اذ كان ماركس قد رحل بدون أن «يأخذ أكثر الاشياء ضرورة له».

لما وصل أنجلس الى باريس كان ماركس قد نظم فيها عملا ثوريا عظيما. فقد ألف اللجنة المركزية الجديدة ﻟ«عصبة الشيوعيين» بناء على الصلاحيات المخولة له، وانتخب رئيسا لهذه اللجنة وصار أنجلس عضوا فيها، وشابر – أمينا عاما.

كان على اللجنة المركزية الجديدة أن تحل أولا مسألة العمال الألمان واللاجئين السياسيين الذين ارتفع عددهم فى باريس الى عدة آلاف وكانوا متلهفين الى العودة الى أوطانهم للانخراط فى الحركة الثورية. كتب أنجلس يقول: «كان هوس الفرق الثورية يستعر فى باريس حينذاك. كان ايطاليون واسبانيون وبلجيكيون وهولنديون وبولونيون وألمان يتجمعون فصائل لتحرير أوطانهم»*. مثلا، كانت الجمعية الديموقراطية الألمانية فى باريس التى يرأسها الصحفى بورنشتيدت والشاعر هيرويغ قد شرعت أيضا تنظم «الفرقة الالمانية» وكانت تعدها لاقتحام ألمانيا بالسلاح لتحدث فيها ثورة من الخارج. وقد عارض ماركس

* انجلس. «بصدد تاريخ عصبة الشيوعيين».

وأنجلس معارضة شديدة هذا «اللعب بالثورة» وفضحا فى الوقت ذاته حيلة الحكومة الفرنسية التى كانت تساعد على انشاء «الفرقة الالمانية» كى تخلص أرض باريس من العمال الألمان الثوريين ومن مزاحمتهم لليد العاملة الوطنية فى ظروف العطالة القائمة آنذاك ولتسليمهم بالتالى الى السلطات البروسية حال وصولهم الى الحدود.

كان ماركس وأنجلس، على عكس مشروع بورنشتيدت وهيرويغ المغامر الذى صار أكثر رعونة ما دامت الثورة قد انفجرت فى المانيا نفسها، قد تقدما بمشروعهما العقلانى القائل بعودة العمال والمهاجرين الالمان «كل بمفرده» الى المانيا. وقد نجح حوالى أربعمئة ألمانى وأغلبهم اعضاء فى العصبة بالعودة الى وطنهم قبل بداية شهر نيسان – ابريل. وبينت الاحداث التى تتالت، صحة انذار ماركس وأنجلس: فقد وقعت فرقة هيرفيغ كلها فى الشرك الذى نصبته لها السلطات الفرنسية والبروسية على الحدود. اما اعضاء «عصبة الشيوعيين»، ممن عادوا الى ألمانيا كل بمفرده، فسرعان ما صاروا فى طليعة الحركة الثورية وبرهنوا باعمالهم ان «العصبة كانت مدرسة رائعة للعمل الثورى» كما كتب أنجلس فيما بعد.

كان ماركس وانجلس فى رسمهما الخطة واستراتيجية فى الثورة الألمانية، ينطلقان من المهمات الموضوعية التاريخية التى يجب على الثورة أن تحلها ومن النسبة الواقعية بين القوى الطبقية فى البلاد أيضا.

كانت المهمة الرئيسية لثورة عام ١٨٤٨ هى تصفية التفسخ السياسى والتأخر الاقتصادى فى ألمانيا المقسمة الى ٣٨ دولة كبيرة وصغيرة وصغيرة جدا، وكان لكل واحدة

منها (ما عدا اربع مدن حرة) سلالتها وبلاطها وجيشها ونظامها فى الاوزان والمقاييس والخ.. والى جانب تقسم البلاد سياسيا كانت ما تزال سيطرة أصحاب الاراضى وتحكم البيروقراطية الجامدة الجشعة والركود التام فى حقل الثقافة. كان الاقطاع يحد من تطور الأمة ويسد عليها طريق الرأسمالية، الذى كان حينئذ اكثر تقدما.

وكان توحيد البلاد يمكن أن يتم بطريقين: اما بطريق ثورى يؤدى الى جمهورية ألمانية ديموقراطية موحدة واما بطريق مناوئ للثورة توحد فيه ألمانيا تحت لواء احدى أقوى الدويلات، كبروسيا أو النمسا.

وفى هذه الحقبة الحاسمة من تاريخ ألمانيا حينما كان يتقرر مصير تطورها اللاحق، كان ماركس وأنجلس، يناضلان، بكل ما يتصف به الثوريون البروليتاريون من انسجام، للقضاء على رواسب القرون الوسطى وفى سبيل المانيا ديموقراطية موحدة.

كانت «مطالب الحزب الشيوعى فى المانيا» — وهى وثيقة هامة جدا من تأليفهما وقد صدرت فى أواخر آذار — مارس — تصوغ نهج البروليتاريا السياسى فى الثورة الالمانية. وكان أول هذه المطالب يضع شعار الشيوعيين الاساسى فى الثورة الالمانية البرجوازية وهو اعلان جمهورية ألمانية موحدة. وكان ماركس وأنجلس يريان فى انشاء جمهورية ديموقراطية موحدة شرطا ضروريا يسهل كفاح البروليتاريا اللاحق فى سبيل الاشتراكية. وكانت سائر المطالب الهامة هى: تسليح عام للشعب، الغاء بلا تعويض لجميع الاتاوات الاقطاعية التى تثقل كواهل الفلاحين، مصادرة أراضى الملاكين الاقطاعيين، الغاء البنوك الخاصة

وانشاء بنك واحد للدولة، تأميم المناجم وجميع وسائط النقل والمواصلات، الفصل التام بين الكنيسة والدولة، اقرار ضريبة تصاعدية عالية على المداخيل، انشاء معامل وطنية.

وبما ان ماركس وأنجلس كانا يريان فى الثورة البرجوازية الالمانية تمهيدا للثورة البروليتارية، فقد ادخلا فى هذه المطالب جملة من التدابير الانتقالية يقول «بيان الحزب الشيوعى» بانها «تتعدى نفسها خلال الحركة» وتؤدى الى انقلاب فى اسلوب الانتاج كله.

ان «مطالب الحزب الشيوعى فى ألمانيا» التى وقعها اعضاء اللجنة المركزية للعصبة والتى طبعت بشكل منشور منفرد، كانت قد وزعت مع «بيان الحزب الشيوعى» على العمال الالمان المسافرين الى ألمانيا بوصفهما وثيقتين توجيهيتين سياسيتين. وفضلا عن ذلك، كان ماركس وأنجلس يعطيان اعضاء «عصبة الشيوعيين» تعليمات حول انشاء منظمات بروليتارية فى المانيا.

وما أن انتهى هذا العمل التحضيرى حتى بادر ماركس وانجلس بالعودة الى الوطن الذى اضرمت فيه نار الثورة فغادرا باريس فى بداية شهر نيسان - أبريل - ووصلا فى الحادى عشر من الشهر نفسه الى كولونيا. ومنذ ذلك اليوم اشتركا اشتراكا مباشرا فى الثورة الالمانية.

كانت انتفاضات البروليتاريا والبرجوازيين الصغار فى المدن والفلاحين فى القرى قد أنزلت آنذاك أولى الضربات بالحكم المطلق والاقطاعية مجبرة الحكومات على التساهلات. بيد أن البرجوازية الكبيرة وحدها هى التى قطفت ثمار الانتصارات الشعبية. كانت الوزارات فى بافاريا والساكس وورتمبرغ والباد تضم ممثلى المعارضة الليبرالية. وفى

النمسا تشكلت وزارة من موظفين «ليبراليين». وفى بروسيا دعا الملك الى الحكم حكومة جديدة يرأسها زعيما البرجوازية الكبرى كامبهاوزن وهانزمان.

على أن البرجوازية الليبرالية ما ان توصلت الى مقاليد السلطة، حتى برزت كقوة مناوئة للثورة، وازداد انتقالها بشكل سافر الى المعسكر المناهض للثورة. وقبل أن تنتصر البرجوازية نهائيا على خصومها القدماء: الملكية المطلقة والارستقراطية الاقطاعية والبيروقراطية، رأت عدوا جديدا فى شخص البروليتاريا. ولم يروع البرجوازية ما كانت البروليتاريا الالمانية تمثله حينذاك، بل ما كان يهدد بأن تصير فعلا وما قد صارت اليه البروليتاريا الفرنسية فلم تعد البرجوازية تجد خلاصا لها الا فى المساومة مع الارستقراطية والحكم المطلق.

واذا كانت الثورة لم تحرز بعد انتصارا حاسما فى أى مكان، فسبب هذا انما هو سياسة الخيانة التى نهجتها البرجوازية. فكانت السلطة الواقعية، وهى الجيش والشرطة وجهاز الدولة، ما تزال فى ايدى طبقة الملاكين العقاريين وملكياتهم. وعليه، كانت المعركة الحاسمة ما تزال تنتظر ساعتها. هكذا كان الوضع فى ألمانيا عندما وصلها ماركس وأنجلس.

ولم يكن من قبيل الصدفة أن يختارا كولونيا مقرا لهما. فكانت المدينة الرئيسية فى اقليم رينانيا، وهو المنطقة الالمانية الاكثر صناعة وحيث قامت البرجوازية بعمل سياسى شديد بشكل خاص وحيث استيقظت الجماهير الشعبية الى الحياة السياسية ابكر مما فى انحاء المانيا الاخرى. كانت كولونيا واحدا من أهم مراكز الحركة

العمالية الالمانية. واخيرا كان قانون نابليون مطبقا فى هذه المدينة مما يفسح مجالا وظروفا اكثر ملاءمة لتحقيق مشروع ماركس وأنجلس حول تأسيس صحيفة ثورية كبيرة يومية.

كان انشاء صحيفة ثورية جماهيرية شرطا ضروريا لتطبيق خططهما التكتيكية والاستراتيجية: وهى انجاز الثورة البرجوازية الديموقراطية والسير بها الى نهايتها مع تحضير الجماهير للثورة الاشتراكية فى آن واحد.

ولقد اشار ماركس وانجلس اكثر من مرة الى أن الشرط الضرورى لتنفيذ مثل هذه المهمة هو وجود حزب بروليتارى طليعى، ولهذا بادرا قبل الثورة بكثير الى تنظيمه وتثبيت صفوفه وتثقيف ملاكاته. وقد واصلا عملهما هذا بعد عودتهما الى ألمانيا، فاتخذا سلسلة من الاجراءات لانشاء فروع «عصبة الشيوعيين» ومنظمات عمالية جديدة. غير انهما اصطدما بعقبات كبيرة فى كفاحهما لتشكيل حزب البروليتاريا الالماني الموحد المستقل. كانت البروليتاريا الالمانية فى اغلبيتها مؤلفة آنذاك من الحرفيين الصغار، لا من العمال الصناعيين، وكانت تتصف بضيق افقها وضعف تنظيمها وتشبثها بالأوهام الخاصة بالبرجوازية الصغيرة. وفى ألمانيا المتأخرة اقتصاديا والمجزأة سياسيا كانت تنعدم الظروف لانشاء حزب بروليتارى جماهيرى. كان المئتان او الثلاثمئة عضو من اعضاء العصبة مبعثرين فى ارجاء البلاد وغير ملحوظين تقريبا بين الجماهير الشعبية الواسعة التى دب فيها الغليان فجأة.

كان ماركس وأنجلس الغريبان عن كل روح انعزالية لا يستطيعان الاّ يأخذا بعين الاعتبار المستوى الواقعى

للبروليتاريا الالمانية فى ذلك الحين. ولذا قررا، بعد وصولهما الى ألمانيا، الانضمام الى الجناح اليسارى التقدمى من الحركة الديموقراطية المتطورة، وهو جناح بروليتارى فعلا. وقد فعلا ذلك كيلا ينعزلا عن الجماهير ولكيلا يسبقا الاحداث. ففى هذه الظروف لا يمكن ان يكون لواء الصحيفة التى بادرا الى تأسيسها الا «لواء الديموقراطية، ولكن الديموقراطية التى تتقدم فى كل مكان وبكل مناسبة بطابعها البروليتارى الأصيل»*.

ولتنفيذ هذه الخطة انتسب ماركس وأنجلس الى جمعية كولونيا الديموقراطية موصيين جميع انصارهما بأن يتخذوا نفس التكتيك. لقد قاما بنشاطهما المتحمس قصد تحضير اصدار الجريدة، ولكن هذه لم تصدر الا بعد شهر ونصف من وصولهما. كانا بحاجة الى المال. ولتذليل هذه العقبة أخذ ماركس يبحث عن مساهمين لها فى كولونيا بينا قصد أنجلس بارمن لنفس الغرض حيث استقر موقتا وقام منها برحلات الى المدن المجاورة. غير ان انجلس لم ينجح الا فى الحصول على ١٤ اشتراكا مساهما فقط رغم كل جهوده. وكتب لماركس فى ٢٥ من شهر نيسان – ابريل – ١٨٤٨ يقول: «لا يمكننا، مع الاسف، ان نعتمد على تسجيل مساهمات هنا... وحتى هؤلاء البرجوازيون الراديكاليون يرون فينا الاعداء الرئيسيين لهم فى المستقبل ولا يريدون أن يعطونا اسلحة لن نلبث أن نسددها اليهم انفسهم. لا سبيل اطلاقا الى الحصول على شيء من أبى... انه يفضل ان يطلق علينا الف رصاصة بدلا من ان يرسل الف تالير».

---

* انجلس، «ماركس و«الجريدة الرينانية الجديدة»».

واخيرا، فى الاول من شهر حزيران ـ يونيو ـ ١٨٤٨، صدر العدد الاول من «الجريدة الرينانية الجديدة» حاملة العنوان الفرعى التالى: «لسان حال الديموقراطية». وكانت هيئة تحريرها تتألف من كارل ماركس ـ رئيسا للتحرير، وأنجلس، وبورغيرس، ودرونكه، وويرث وفريدريك وولف وولهلم وولف.

وان هذه الجريدة التى تقدمت بصفة «لسان حال الديموقراطية»، كانت فى الواقع «افضل لسان حال للبروليتاريا الثورية لا مثيل له» (لينين).

ولم تنحصر مأثرة هذه الجريدة فى كونها الجريدة الوحيدة التى تطبق خطة البروليتاريا الثورية وتقود الطبقة العاملة بدون اغلاط عبر الاحداث المتشابكة فى نضال الطبقات فى عامى ١٨٤٨ـ١٨٤٩، بل كانت تتميز ايضا بقدرتها على تجسيد كفاياتها المدهشة من حيث البصيرة والتنبؤ بالحوادث والوقدة الثورية، فى المقالات المكتوبة بمهارة ادبية لا مثيل لها وبقوة استثنائية وبروعة. ولا غرابة فى ذلك اذ كان يرأسها العبقرى الجبار كارل ماركس الذى لف حولها اركان حرب لـ«عصبة الشيوعيين» وكوكبة ممتازة من الصحفيين البارزين وأحدهم أنجلس الذى كان له عن حق مكان الصدارة بينهم.

كتب أنجلس فيما بعد يقول: «كان دستور هيئة التحرير ينحصر بديكتاتورية ماركس بكل بساطة. ان جريدة كبيرة يومية يجب أن تصدر فى الساعة المعينة لا يمكن أن تنشر آراءها بدأب فى ظل أى نظام آخر. وفضلا عن ذلك كانت ديكتاتورية ماركس بالنسبة لنا فى هذا المضمار شيئا طبيعيا وكنا نقبلها بملء الارادة وبدون

جدال. وبفضل بصيرة ماركس وموقفه الحازم بصورة رئيسية، صارت الجريدة أكثر الصحف الالمانية شهرة طوال سنوات الثورة ».*

ما كان ماركس فى بادئ الامر يكتب كثيرا للجريدة: فقد كانت الادارة السياسية العامة وقضايا التنظيم التى كان يحمل مسؤوليتها الرئيسية تشغل كل وقته تقريبا. كان أنجلس يكتب أغلب المقالات السياسية الاساسية «للجريدة الرينانية الجديدة»، وبفضل سعة موهبته الصحفية وخفة ريشته كان هو روح هيئة التحرير. وهنا كما فى كل مكان آخر، كان ماركس وأنجلس يتكاملان تكاملا رائعا.

قال ماركس عن صديقه: «انه موسوعة حقيقية، وانه يستطيع ان يشتغل فى أى ساعة من النهار أو الليل، سواء كان شبعا أم جائعا؛ وانه ليكتب بسرعة وهو ذكى ذكاء غريبا».

انكب أنجلس بحماسة الثورى على العمل فى الصحيفة. كتب يقول فيما بعد: «لقد كانت هذه الفترة فترة ثورية، وما كان ثمة شيء امتع من العمل فى جريدة يومية فى مثل هذا الوقت. ان المرء ليرى تأثير كل كلمة: فالمقالات تقع وقوع القنابل...». وكانت هذه القنابل يطلقها رجل دقيق العين حديدى اليد فكانت تصيب الهدف.

وكانت «الجريدة الرينانية الجديدة» ترى اول اهدافها واهمها فى النضال بلا هوادة ضد الاوهام المنتشرة انتشارا واسعا والقائلة بان الثورة قد انتهت بمعارك آذار – مارس – ولم يبق غير أن تجنى ثمارها. كان أنجلس يفضح هذه الميول وقد كتب ساخرا: «هذا هو مصيرك من جديد،

* انجلس، «ماركس و«الجريدة الرينانية الجديدة»».

ايها الألمانى الطيب! انك تظن الآن انك قضيت على الدولة البوليسية... يا لها من اضلولة! وتظن ايضا أن حق التوحيد الحر وحرية الصحافة وتسليح الشعب وغيرها من الشعارات التى طارت اليك عبر متاريس آذار، ان كل هذا مضمون؟ ضلال وأى ضلال!

حينما طارت نشوتك الحلوة
نظرت الى ما حولك مبهوتا...»

كان ماركس وأنجلس فى محاربتهما هذه الاوهام، يفضحان خيانة البرجوازية الكبيرة التى لم تحل اى مهمة من مهمات الثورة البرجوازية، والتى ابرمت تحالفا دفاعيا وهجوميا مع الرجعية وذلك بدافع من الذعر أمام الشعب الثورى. وكانا يكشفان الجوهر الحقيقى «للمآثر الجليلة» لزعماء البرجوازية وحكومة كامبهاوزن وهانزمان.

وقد كتب ماركس وأنجلس وولهلم وولف سلسلة من المقالات فى «الجريدة الرينانية الجديدة» فضحوا فيها بشكل خاص خيانة البرجوازية الكبيرة تجاه الفلاحين: فان البرجوازية لم تحرك ساكنا لالغاء نظام الاقطاعية فى الأرياف، بل اتخذت كل التدابير للقضاء على التنازلات التى انتزعها الفلاحون عفويا من السلطة خلال معارك آذار - مارس. كانت سياسة البرجوازية الكبيرة فى مسألة الفلاحين تحمل سمة «ذعرها من الهجوم الثورى على أى نوع من الملكية. وكانت البرجوازية البروسية قد أعمتها الأنانية الضيقة الجبانة حتى انها نبذت أهم حلفاء لها وهم الفلاحون».

كان ماركس وأنجلس يمتلكان ناصية التهكم والسخرية فكانا يهزآن بالجمعيات التمثيلية الألمانية التي أقامت

الثرثرة البرلمانية والقرارات الفارغة الجبانة مقام النشاط الثورى الواقعى ضد الرجعية. كانا يهاجمان بشكل خاص الجمعية الوطنية لعموم المانيا، «مركز اللت الفرانكفورتى»، ذلك «اجتماع النساء العجائز»، على حد تعبير انجلس، حيث كان لا يجرى غير مناقشات لامتناهية حول جدول الاعمال الافضل والدستور الافضل فى حين كان حكام ألمانيا الرجعيون «قد وضعوا الحراب فى جدول الأعمال».

كان ماركس وأنجلس، اذ يسعيان الى دفع البرجوازية الصغيرة الديموقراطية الى الامام وحملها على التقدم يفضحان رؤساءها الذين كانوا، بسبب عجزهم عن القيام بنشاط ثورى وتذبذبهم الدائم والجبانة، يسهلون هجوم الرجعية. وكانت «الجريدة الرينانية الجديدة» تتبع خطوة خطوة سلوك «الفئات اليسارية» التى شكلها الديموقراطيون البرجوازيون الصغار فى مجلسى برلين وفرانكفورت الوطنيين وتنتقد موقف الجبن والوجل الشائن لاولئك السادة الذين كانوا «يخافون من ان يصدوا احدا او يهينوه او يروعوه» «ولم يجرؤوا» فى اللحظة الحاسمة «الا على «**هس**»!» (انجلس).

كان ماركس وأنجلس، على عكس ترددات زعماء الديموقراطية البرجوازية الصغيرة، يدعوان الشعب الى النضال بلا هوادة ضد الرجعية الاقطاعية وضد البرجوازية المناهضة للثورة وكتبا يقولان: «ان أرضنا ليست أرض الشرعية بل أرض الثورة».

كان مؤسسا الشيوعية العلمية يقدران أن قيام ديكتاتورية الشعب الثورية هو الشرط الاهم لانتشار الثورة انتشارا ظافرا. كتبت «الجريدة الرينانية الجديدة» تقول:

«ان كل وضع الدولة الموقت الناشىء بعد الثورة يتطلب الديكتاتورية، والديكتاتورية الحازمة».

أما مسائل السياسة الخارجية والعلاقات الدولية فقد عولجت فى الجريدة من موقف تطوير قوى الثورة.

وكانت الجريدة اذ ترسم برنامج الاعمال ليس للديموقراطيين الألمان فحسب بل للحركة الديموقراطية فى سائر البلدان الاوروبية ايضا، تدعو الديموقراطيين فى اوروبا كلها الى الدفاع عن الشعوب المظلومة والى ضم الجهود فى النضال الثوري ضد الاعداء الرئيسيين الثلاثة للثورة فى اوروبا: روسيا القيصرية وانكلترا البرجوازية المعادية للثورة وبروسيا اليونكرية الرجعية. وكانت الجريدة تدعو شعوب اوروبا الى حرب ثورية ضد القيصرية الروسية التى كانت حينذاك الدعامة الرئيسية للرجعية فى اوروبا. هذه الحرب الثورية ضد القيصرية لم تكن بالنسبة لماركس وأنجلس مسألة الدفاع عن الثورة الاوروبية وحسب بل كانت كذلك شرطا ضروريا لانتقال الثورة الى طور جديد، أسمى. كان ماركس وانجلس يأملان أن حربا ضد روسيا القيصرية، تزيد من تفاقم الوضع فى ألمانيا واوروبا، من شأنها ان تسهم فى ان تقف فى مقدمة الثورة طبقات اكثر حزما، قادرة على ان تخوض النضال الثورى بمزيد من البسالة والنشاط، وان هذا النضال سيوصل البروليتاريا الى السلطة فى آخر الامر.

خصص أنجلس سلسلة من المقالات للمبادىء الأساسية لسياسة البروليتاريا فى المسألة الوطنية (او مسألة القوميات)، ولاشكال هذه السياسة فى ظروف الثورة الألمانية عامى ١٨٤٨-١٨٤٩ ولتحليل الطابع والمضمون الطبقى

Neue Rheinische Zeitung.

Organ der Demokratie.

№ 1. Köln, Donnerstag, 1. Juni 1848.

Die „Neue Rheinische Zeitung" erscheint vom 1. Juni an täglich.
Der Abonnementspreis beträgt: Für das Vierteljahr in Köln 1 Thlr. 15 Sgr.; für alle übrigen Orte Preußens 2 Thlr. 3 Sgr. 9 Pf. Außerhalb Preußens mit Zuschlag des fremden Zeitungsporto's.
Das Abonnement für den Monat Juni kann nur unter gleichzeitiger Bestellung des nächsten Quartals (Juli, August, September) geschehen. Der Preis dieses viermonatlichen Abonnements beträgt: Für Köln 2 Thlr.; auswärts 2 Thlr. 25 Sgr.
Man abonniert bei allen Postanstalten und Buchhandlungen des In- und Auslandes; — für Köln in der Expedition der Zeitung bei
Hrn. W. Clouth, St. Agatha 12, Köln.

Fernere Aktienzeichnungen werden entgegen genommen in der Expedition der Zeitung. Auswärtige werden gebeten, sich ebenfalls dorthin franco zu wenden.

Insertionsgebühren.
Für die vierspaltige Petitzeile oder deren Raum . . . . 1 Sgr. 6 Pf.

Die Expedition der „Neuen Rheinischen Zeitung."

Das Erscheinen der Neuen Rheinischen Zeitung war ursprünglich auf den ersten Juli festgesetzt. Die Arrangements mit den Correspondenten &c. waren auf diesen Termin getroffen.

Da jedoch bei dem erneuten frechen Auftreten der Reaktion deutsche Septembergesetze in naher Aussicht stehen, so haben wir jeden freien Tag benutzen wollen, und erscheinen schon mit dem ersten Juni. Unsre Leser werden es uns also nachsehen müssen, wenn wir in den ersten Tagen an Nachrichten und mannigfaltigen Correspondenzen noch nicht das reichhaltige Material liefern, wozu unsere ausgedehnten Verbindungen uns befähigen. In wenig Tagen werden wir auch hierin allen Anforderungen genügen können.

Redaktions-Comité:

Karl Marx, Redakteur en Chef.
Heinrich Bürgers,
Ernst Dronke,
Friedrich Engels,
Georg Weerth,
Ferdinand Wolff,
Wilhelm Wolff,
} Redakteure.

Amtliche Nachrichten.

Der bisherige Privat-Docent, Dr. jur. Berner hierselbst, ist zum außerordentlichen Professor in der juristischen Fakultät der hiesigen Universität ernannt worden.

Bekanntmachung.

Zur Verminderung des Dienstes, welchen die Bürgerwehr und die zu derselben gehörigen fliegenden Corps zur Besetzung des Königlichen Schlosses bei dessen vielen Zugängen seither gehabt haben, ist in Uebereinstimmung mit dem Kommando der Bürgerwehr die Anordnung getroffen, daß die verschiedenen Portale mit Gitterthüren versehen werden, welche zur Nachtzeit für den zweiten (kleineren) Schloßhof geschlossen, für den ersten (großen) Schloßhof aber zur freien Passage geöffnet bleiben. Bewohner des Schlosses, welche zur Nachtzeit den zweiten Schloßhof passiren, nehmen alsdann den Weg durch das Portal im Quergebäude, sogenanntes Küchen-Portal.

Berlin, den 28. Mai 1848. Königliches Hof-Marschall-Amt (gez.) Graf Keller.

Deutschland.

** Köln, 31. Mai. Seit vierzehn Tagen besitzt Deutschland eine konstituirende Nationalversammlung, hervorgegangen aus der Wahl des gesammten deutschen Volkes.

Das deutsche Volk hatte sich in den Straßen fast aller großen und kleinen Städte des Landes, und speziell auf den Barrikaden von Wien und Berlin seine Souveränetät erobert. Es hatte diese Souveränetät in den Wahlen zur Nationalversammlung ausgeübt.

Der erste Akt der Nationalversammlung mußte sein, diese Souveränetät des deutschen Volkes laut und öffentlich zu proklamiren.

Ihr zweiter Akt mußte sein, die deutsche Verfassung auf Grundlage der Volkssouveränetät auszuarbeiten, und aus dem faktisch bestehenden Zustande Deutschlands Alles zu entfernen, was dem Prinzip der Volkssouveränetät widerspricht.

[illegible]

... nimmt es ohne Weiteres an, denn was wäre aus den Vertretern Deutschlands geworden ohne Reglement? Fiat Reglementum partout et toujours.

Herr Raveaux aus Köln stellte einen ganz unverfänglichen Antrag wegen der Kollisionsfälle zwischen der Frankfurter und Berliner Versammlung. Aber die Versammlung beräth das definitive Reglement, und obwohl Raveaux Antrag eilt, so eilt das Reglement doch noch mehr.

[illegible]

Humoristische Skizzen aus dem deutschen Handelsleben.

Von Georg Weerth.

Der Herr Preiß in Nöthen.

Wiederum stehen wir im Comptoire des Herrn Preiß. Röthlich strahlt der Morgen durch zwei große, halbverstaubte Fenster auf die Dintenflecke des Schreibpultes. Sandbüchsen, Federmesser, Oblatenstiele und ähnliche friedfertige Instrumente schlummern in holder Gemeinschaft neben Postpapier und Propatria. Hohe, ledergepolsterte Dreifüße umringen das Pult; und das Pult hat Schubladen mit Schlössern und Riegeln daran von echtem Eisen.

Todtenstille.

„Das Jahrhundert ist sehr schlecht geworden," seufzt endlich der Herr Preiß.

„„Sehr schlecht!"" erwiedert der dürre Buchhalter mit außerordentlichem Nachdruck.

Armer Herr Preiß . . . . . Er war ordentlich mager geworden, unheimlich mager, der sonst so stattlich runde, der handfeste Mann. Die starken, unternehmenden Falkenaugen hatten allen Glanz verloren; ...

[illegible]

(Schluß f.)

العدد الاول من «الجريدة الرينانية الجديدة»

والقوى المحركة للكفاح الوطنى للمجريين والايطاليين ومختلف الشعوب السلافية التى تستعبدها ألمانيا.

وقد فضحت هذه المقالات بشدة خيانة البرجوازية الألمانية التى كانت ما تزال تواصل سياسة الظلم السابقة ازاء الشعوب الأخرى.

كان أنجلس يشير بصورة خاصة الى أن تحرير القوميات المظلومة انما هو أمر ضرورى لصالح الثورة وانه سيسدد ضربة الى الحكم المطلق الاقطاعى وسيكون وسيلة جبارة لجذب الأمم المظلومة الى حومة الكفاح الثورى العام. كان انجلس لا يرى فى القضاء التام على الظلم القومى وسيلة وحيدة للتكفير عن آثام السياسة الألمانية القديمة الظالمة وحسب، بل وشرطا لا بد منه للتطور المقبل للشعب الالمانى كأمة ديموقراطية حرة. «ان ألمانيا ستكون حرة بمقدار ما تعطى الشعوب المجاورة من الحرية».

لم يتصور ماركس وأنجلس المسألة الوطنية كمشكلة ذاتية منعزلة عن غيرها بل جزءا لا يتجزأ من المسألة العامة لتطور الثورة. ومن هنا تقديرهما المختلف لحركات التحرر الوطنى لمختلف الشعوب. ففى وضع عامى ١٨٤٨ـ ١٨٤٩ كانا يؤيدان تأييدا حازما حركة التحرر البولونية والمجرية. وقد رحبا أيضا بانتفاضة براغ على الطغيان النمساوى، ولكن موقفهما من حركة التشيكيين الوطنية وغيرهم من الشعوب السلافية المضمومة الى الامبراطورية النمساوية قد تبدل تبدلا كاملا حينما أخذت القيصرية الروسية وملكية هبسبورغ تثيران هذه الشعوب على الحركة الديموقراطية الألمانية لتستفيدا من نضالها الوطنى فى اهدافهما الرجعية. كان أنجلس على حق عندما نعت الحركة

الوطنية، القومية، لسلافيي النمسا فى ذلك الحين بأنها عامل يضعف قوى الثورة ويعزز قوى الرجعية. على ان انجلس تقدم حول هذا الموضوع ببعض الاحكام الخاطئة وذلك فى مقاليه «النضال الثورى فى المجر» و«الحركة السلافية الديموقراطية» ثم فى كتابه «الثورة والثورة المعاكسة فى ألمانيا». فقد زعم، مثلا، أن سلافيي النمسا قد قاموا بدورهم التاريخى وليست لهم المقدمات الضرورية لتطور وطني مستقل. وكانت جذور هذا الرأى الخاطئ الذى كذبه التاريخ، تكمن فى تصورات انجلس غير الصائبة عن مصائر الشعوب الصغيرة فى المستقبل. فقد كان يعتقد ان هذه الشعوب ستذوب تدريجيا فى الامم الكبيرة فى مجرى التطور التاريخى. لم يكن أنجلس فى تفكيره هذا يأخذ بعين الاعتبار أن الرأسمالية خلال تطورها لا تولد ميلا الى التمركز والى تشكيل الدول الكبرى فحسب بل تولد أيضا ميلا آخر وهو نهضة الحركات الوطنية لدى الشعوب الصغيرة وسعيها وراء التحرر من الظلم القومى، وراء انشاء دول وطنية مستقلة. وبقدر ما تجتذب حركة التحرر الوطنى هذه الجماهير الى النضال وبقدر ما ترتفع درجة تنظيم هذه الجماهير ويتعاظم وعيها، بقدر ما تكتسب هذه الحركة طابعا ديموقراطيا تقدميا اكثر فاكثر ولا تؤول الى اضعاف جبهة الكفاح الثورى بل الى تقويتها وتوسيعها.

كان ماركس وأنجلس فى خوضهما النضال الدائب المتحمس ضد جميع القوى الرجعية يسعيان الى ايقاظ النشاط الثورى لدى البروليتاريا والفلاحين والقوميات المظلومة، والى حث الجماهير الشعبية على اتمام الثورة

البرجوازية الديموقراطية قصد خلق الشروط الملائمة للنضال اللاحق من اجل الثورة الاشتراكية.

كانت «الجريدة الرينانية الجديدة» تشغل مكانا مرموقا فى نشاط ماركس وأنجلس الثورى، وقد جعلا منها اداة قوية للتحريض والدعاية وأداة لتنظيم الجناح البروليتارى من الحركة الديموقراطية. وقد أشار أنجلس فيما بعد بحق الى أنه «ما من جريدة ألمانية امتلكت من قبل أو من بعد مثل هذه القوة ولا أحدثت مثل هذا التأثير ولا استثارت همم الجماهير البروليتارية بقدر ما صنعت ذلك «الجريدة الرينانية الجديدة»*.

كانت هيئة تحرير الجريدة تقوم فعلا بأعمال اللجنة المركزية السابقة «لعصبة الشيوعيين» موجهة، عن طريق الجريدة، اعضاء العصبة المبعثرين فى جميع انحاء البلاد والذين كانوا يديرون كثرة من الجمعيات العمالية التى تأسست فى أرجاء المانيا.

كان التفاف الجماهير البروليتارية حول الجريدة، وانشاء جبهة واسعة ديموقراطية تعوقهما بعض العناصر البرجوازية الصغيرة والانتهازية فى الحركة العمالية سواء أكانت تتجلبب بالجلباب اليمينى او «اليسارى». كان أحد ممثلى الميل الانتهازى اليمينى هو ستيفان بورن، عضو «عصبة الشيوعيين» الذى نظم اللجنة المركزية العمالية فى برلين ثم المنظمة العمالية لعموم المانيا «اخوة العمال».

كان بورن يتكيف للعمال المتأخرين والحرفيين الصغار موجها اهتمامهم بشكل رئيسى الى النضال الاقتصادى والى بعض المطالب العملية التافهة ويصرف العمال بالتالى عن

* انجلس، «ماركس و«الجريدة الرينانية الجديدة»».

المهام السياسية العامة للشعب الالماني، معرقلا تربية البروليتاريا الالمانية سياسيا.

وقد وصف لينين التباين بين مؤسسي الماركسية وبين ستيفان بورن فكتب عن «**اتجاهى الحركة العمالية** عام ١٨٤٨ فى ألمانيا واعنى بهما: اتجاه بورن (القريب من اتجاه اقتصاديينا) والاتجاه الماركسي»*.

وكان ثمة ممثل اخر للميل الانتهازى هو أندريس غوتشالك رئيس اتحاد عمال كولونيا. كان هذا، على نقيض بورن، مولعا بالجمل «اليسارية» التى البس بها انتهازيته. وكان غوتشالك تحت تأثير ويتلينغ و«الاشتراكية الحقيقية» فكان لا يفهم الطابع البرجوازى للثورة وينادى بشعار «يسارى» متطرف هو شعار النضال الفورى «فى سبيل جمهورية عمالية» ويصم «بالانتهازية» اشتراك العمال فى الحركة الديموقراطية العامة وينكر ضرورة التحالف مع جماهير الفلاحين.

كان غوتشالك يدعو العمال الى مقاطعة الانتخابات غير المباشرة للجمعية الوطنية ويهاجم «الجريدة الرينانية الجديدة» التى لم تأل جهدا فى سبيل اتحاد جميع القوى الديموقراطية وفى تأييد المرشحين الديموقراطيين فى الانتخابات. وكانت الانعزالية وحب الجمل «اليسارية» قد تحالفا عند غوتشالك تحالفا غريبا مع الدعاية لوسائل النضال «الشرعية» المعتدلة جدا.

كانت خطته الانتهازية خطرة لانها تؤدى الى انشقاق المعسكر الديموقراطى واضعاف هذا المعسكر أمام هجوم

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٢٢٦–٢٢٧.

الثورة المعاكسة، ولهذا كان انصار ماركس وأنجلس فى اتحاد عمال كولونيا يناضلون ضد خطته نضالا حازما. ولكن المنهاج السياسى للاتحاد قد تغير حينما انتخب جوزيف مول، زميل ماركس وأنجلس، رئيسا للاتحاد وذلك فى تموز - يوليو - ١٨٤٨، وحل محله ماركس فى شهر تشرين الاول - اكتوبر. وقد أحدث تغير الادارة تأثيرا مباشرا فى نشاط الاتحاد فشرع يقوم بنجاح بعمل كبير للدعاية والتنظيم ليس بين العمال فحسب، بل بين الفلاحين وفى وحدات الجيش ايضا.

كان مسرح نشاط ماركس وأنجلس السياسى والتنظيمى، عدا الاتحاد العمالى، الجمعية الديموقراطية الكولونية التى انتسبا اليها لدفع الديموقراطيين البرجوازيين الصغار الى الامام ولنقد اوهامهم واخطائهم ولجذب الجماهير الى جانبهما وذلك بتطبيق خطتهما الخاصة المستقلة.

وكان هذا النقد يزداد حدة بقدر ما يشتد هجوم الثورة المعاكسة وتقترب ساعة المعارك الحاسمة.

كانت الهزيمة القاسية التى منيت بها البروليتاريا الباريسية فى حزيران - يونيو - ١٨٤٨ نذير هجوم الثورة المعاكسة فى كل اوروبا. فى تلك الايام كانت باريس مسرح «أول حرب أهلية كبرى بين البروليتاريا والبرجوازية» (لينين). وقد ارغمت البرجوازية البروليتاريا على التمرد المسلح الذى أُغرق فى بحر من الدماء بعد أربعة أيام من المعارك البطولية وراء المتاريس. كانت الصحافة البرجوازية فى العالم كله تثنى على جندية الجنرال كافينياك، خانق الانتفاضة، مصبة سيولا من اقذر الافتراءات على البروليتاريا المندحرة. وفى تلك الايام بالذات تجلى طابع «الجريدة الرينانية

الجديدة » الثوري البروليتاري حقا. فمنذ الطلقة الاولى من وراء المتاريس الباريسية التزمت الجريدة بحزم قضية المتمردين، معلنة هذه القضية قضيتها الحيوية. كانت هى الجريدة الوحيدة فى ألمانيا بل فى اوروبا كلها تقريبا، التى رفعت عاليا راية البروليتاريين المندحرين الممعوسة بالدماء. وقد كرس ماركس لمقاتلى حزيران – يونيو – واحدة من اقوى مقالاته، انتهت بهذه الكلمات: «ان السوقة مزقهم الجوع، وبصقت عليهم الصحافة، وتخلى عنهم الاطباء، ووصمهم **الشرفاء** باللصوص ومشعلى الحرائق ونزلاء معتقلات الاشغال الشاقة؛ وتخبطت نساؤهم وأولادهم فى براثن بؤس متفاقم، أما خيرة ممثليهم الذين نجوا من المجزرة فهم منفيون وراء البحار... ان احاطة جباههم العابسة الفاجعة باكاليل الغار انما هو **الامتياز**، انما هو الحق للصحافة الديموقراطية».

وقد خصص أنجلس أيضا عدة مقالات لانتفاضة حزيران وكانت هذه أولى تجاربه فى القضايا الحربية، هذه القضايا التى بلغ فيها بعد وقت قريب نتائج ساطعة. وتجدر الاشارة الى أنه ابتدأ سلسلة دراساته عن الفن الحربى بمشاكل الانتفاضة المسلحة.

واعرب أنجلس فى مقالاته حول تمرد حزيران – يونيو – عن اعجابه ببطولة المنتفضين وسرعة تنظيمهم وتكاتفهم.

وقام انجلس بتحليل نقدى لخطة العمال الحربية متتبعا سير الكفاح المسلح خطوة خطوة حتى استنتج أن جيوش كافينياك احرزت انتصارها على المتمردين للاسباب التالية: أولا – لتفوقها بالعدد (١٥٠ الفا مقابل ٤٠–٥٠

الفا) على قوات المنتفضين؛ وثانيا – للوسائل البربرية التى استعملها الجنرال كافينياك من قنابل، وقنابل يدوية، وصواريخ محرقة. وقد اشار فى هذا الشأن الى خطأ المنتفضين الكبير: «ومن جديد كان الشعب طيب القلب بافراط»، فلم يجابه الصواريخ والقنابل بالوسيلة المضادة الناجعة الوحيدة وهى الحرائق.

وقد حلل أنجلس نتائج معارك باريس من وجهة النظر العسكرية فأشار الى الصدف المواتية للنضال المسلح ضد الجيوش فى ظروف المدن: «اذا كان ٤٠ الف عامل باريسى استطاعوا بلوغ مثل هذه القوة فى نضالهم ضد قوة تفوقهم أربعة اضعاف، فما بالك لو أن عمال باريس كلهم عملوا بنظام صفا واحدا!»

رفعت الثورة المعاكسة رأسها فى كل مكان من اوروبا بعد هزيمة البروليتاريا الباريسية.

كانت «الجريدة الرينانية الجديدة» تحذر قراءها من الانقلاب المناوئ للثورة الذى يهيأ فى ألمانيا. فقد تنبأت فى الثالث عشر من شهر ايلول – سبتمبر – قائلة: «أن الاسلحة قد تقرر كل شىء. وسوف يكون الغالب من يكون لديه قدر اكبر من الشجاعة ورباطة الجأش».

وبتأثير من زحف الثورة المعاكسة تحركت الجماهير الشعبية فى اقليم رينانيا. فطفق أنجلس بكل قوته ينظم مقاومة الشعب فى وجه الرجعية المنفلتة. وفى الثالث عشر من شهر ايلول – سبتمبر – تكلم فى اجتماع عام دعت «الجريدة الرينانية الجديدة» الى انعقاده فى كولونيا. وأيد المشتركون فيه بالاجماع اقتراح انجلس بارسال رسالة الى المجلس الوطنى فى برلين يطلبون فيها عدم

الخضوع لحله بالقوة ـ الامر الذى كانت الحكومة ترتبه ـ وتنظيم مقاومة مسلحة. ولقد ايد انجلس فى الاجتماع نفسه الاقتراح الذى تقدم به ولهلم وولف حول انشاء لجنة الامن فى كولونيا. وانتخب ماركس وانجلس فى عضوية هذه اللجنة التى من شأنها ان تغدو هيئة ثورية للجماهير الشعبية.

وفى السابع عشر من شهر ايلول ـ سبتمبر ـ دعت الجريدة واتحاد العمال فى كولونيا الى اجتماع عام آخر انعقد قرب ورينغن ـ قرية فى ضواحى كولونيا ـ وقد اشترك فى هذا الاجتماع آلاف عديدة من العمال والفلاحين. ولقد حضر هذا الاجتماع سكان من كولونيا جاؤوا اليه بالزوارق مع أعلامهم الحمر، وكذلك وفود من سائر المدن المجاورة. وانتخب أنجلس سكرتيرا للاجتماع. واعترف الحضور بلجنة أمن كولونيا وتضامنوا مع الرسالة الموجهة باسم الاجتماع السابق المنعقد فى ١٣ ايلول ـ سبتمبر ـ الى المجلس الوطنى فى برلين. وبناء على اقتراح أنجلس وافق الاجتماع على توجيه رسالة الى المجلس الوطنى فى فرانكفورت تدعوه الى الدفاع المتفانى عن المصالح الوطنية للشعب الالمانى فى حالة النزاع مع بروسيا. وقد أطلق أنجلس فى خطابه فى هذا الاجتماع نداء الى النضال فى سبيل «جمهورية حمراء اجتماعية ديموقراطية». وهذا الشعار ادخل فى قرار الاجتماع.

ولكن المجلس الوطنى فى فرانكفورت اقترف فى غضون ذلك نذالة جديدة اذ أيد الهدنة المعقودة فى مالميه مع الدانمارك فخان بذلك الحركة الوطنية فى شليزفيخ ـ غولشتاين. وصل نبأ هذا الحادث الى كولونيا

مع خبر التمرد الذى قام به عمال فرانكفورت وفلاحو ضواحيها ردا على هذه الخيانة التى اقترفها البرلمان الفرانكفورتي. فبادرت «الجريدة الرينانية الجديدة» الى تأييدهم علنا على الرغم من ادراكها أن فرص نجاح المتمردين قليلة جدا نظرا للوضع القائم. وبمبادرة من ماركس وأنجلس عقد لجنة الامن فى كولونيا و«اتحاد العمال» والجمعية الديموقراطية فى كولونيا اجتماعا عاما كبيرا فى ٢٠ ايلول – سبتمبر – جرى تحت رمز التضامن مع المكافحين وراء المتاريس.

وكما تنبأت «الجريدة الرينانية الجديدة»، سحق تمرد فرانكفورت. فكتبت الجريدة تستقى دروسا من هذه المعركة فقالت: «هل يوجد فى الدنيا مركز ثورى واحد لم يرفرف فيه، على المتاريس، خلال الاشهر الخمسة الأخيرة، العلم الاحمر، هذا الرمز الكفاحى للبروليتاريا الاوروبية التى تربطها روابط الاخاء؟

ففى فرانكفورت ايضا جرى النضال فى ظل هذا العلم ضد برلمان اليونكرات المتحالفين مع البرجوازيين.

...وضد الشعب الضعيف التسليح والقليل التنظيم، تقف سائر طبقات المجتمع، الحسنة التسليح والمنظمة بشكل ممتاز. هذا ما يفسر نزول الضربات بالشعب حتى الآن...» ولكن الجماهير الشعبية لم تقل بعد كلمتها الاخيرة. فكانت «الجريدة الرينانية الجديدة» تدعو الفلاحين الى النضال الحاسم من اجل التحرر من الاقطاعية، ذاكرة أن الحرب الفلاحية التى اضرمت نارها فى ربيع ١٨٤٨، لم تبلغ اغراضها بعد. كانت الحكومة البروسية تشعر بالقلق من تعاظم الحركة الجماهيرية فى اقليم رينانيا الذى كان فى مدينته المركزية

مقر هيئة تحرير «الجريدة الرينانية الجديدة» وقيادة «عصبة الشيوعيين» وعلى رأسها ماركس وأنجلس. وقد حشدت الحكومة فى الاقليم عددا ضخما من وحدات الجيش، منتظرة الفرصة السانحة لتستفز الجماهير وتعمل فيها القتل والتذبيح. كانت «الجريدة الرينانية الجديدة» لا تفتأ تحذر الجماهير من خطر الانتفاضة المبكرة قبل أوانها. وفى الخامس والعشرين من شهر ايلول – سبتمبر – اعتقل شابر وبيكر لغرض الاستفزاز وهما قائدان مرموقان فى الحركة العمالية فى كولونيا. وقد أريد أيضا اعتقال جوزيف مول، أحد الزعماء الاكثر شعبية فى اتحاد العمال. فقرر العمال منع اعتقاله فأخذوا يقيمون المتاريس حين عرفوا باقتراب الجيوش البروسية. ولم يكبح جماحهم الا بصعوبة، من قبل ماركس وانجلس وانصارهما الذين كانوا حريصين على تجنب كل عمل متسرع. كتبت «الجريدة الرينانية الجديدة» تقول: «ان القيام بانتفاضة فى وقت لا تدفع فيه الشعب كله الى الكفاح بأية قضية كبيرة، مما يحكم على كل انتفاضة بالهزيمة الأكيدة، لأمر غير معقول خصوصا وان حوادث مهمة جدا قد تنفجر فى الايام القريبة القادمة، وهكذا نكون قد عرضنا أنفسنا لخطر فقدان القدرة الكفاحية عشية اليوم الحاسم».

وفى اليوم السادس والعشرين من شهر ايلول – سبتمبر – اغتاظت الحكومة البروسية من فشل استفزازها فاعلنت الاحكام العرفية فى كولونيا وجردت التشكيلات الشعبية من اسلحتها، واغلقت منظمات عمالية وديموقراطية وجرائد ولا سيما «الجريدة الرينانية الجديدة»، وأمرت باعتقال بعض محرريها، وكان أنجلس

أحدهم، وقد امتاز بين أنشط منظمى وقادة حركة ايلول — سبتمبر — الجماهيرية فى اقليم رينانيا.

ما كان أنجلس راغبا بأن يقع فى ايدى العساكر البروسيين وان يجد نفسه فى السجن فى لحظة زاخرة بالاحداث الثورية، فبادر الى مغادرة كولونيا خفية مع ثلاثة اعضاء آخرين من هيئة تحرير الجريدة: درونكه والاخوان وولف. وقد التقى انجلس مع أهله فى بارمن، وحدث له اثناء هذا اللقاء تخاصما شديدا ولا سيما مع أبيه الذى اثار فيه نشاط ابنه الثورى سورة مسعورة. فهرب انجلس مع درونكه الى بروكسل حيث اعتقله فوراً البوليس البلجيكى وسجنه ثم طرده بعد عدة ساعات بتهمة «التسكع» الى الحدود الفرنسية. ومن هناك قصد باريس.

أما العاصمة الفرنسية، مدينة الثورة المعاكسة الظافرة، فقد أحدثت فى نفس أنجلس أثرا وخيما جدا.

وفى مذكرات رحلاته «من باريس الى برن»، قارن انجلس باريس جوادث شباط — فبراير — ١٨٤٨، اى ايام «السكر القصير خلال شهر عسل الجمهورية»، بباريس تشرين الاول — اكتوبر — وكتب يقول: «بين باريس الماضية وباريس الحاضرة، كان الخامس عشر من ايار — مايو — والخامس والعشرين من حزيران — يونيو —، كان صراع رهيب لا مثيل له، كانت سيول من الدماء، كما كان خمسة عشر الف قتيل. لقد قتلت قنابل كافينياك اليدوية بهجة الباريسيين العارمة. وما عاد المرء يسمع أنغام «المارسيلياز»... واما العمال فلا خبز ولا سلاح لديهم وهم يصكون الاسنان غيظا وغضبا... ولكن باريس قد ماتت. ولم تعد هذه باريس...»

ثم يقول: «لقد شعرت بمضض الاقامة فى باريس هذه التى لا حياة فيها. يجب أن اذهب الى أى مكان اخر. لقد ذهبت الى سويسرا. ولما كنت لا أملك مالا اضطررت الى السفر مشيا على الأقدام...

وذات يوم حملت عصا التسيار الى الجنوب حيث تقودنى خطاى».

قطع انجلس جنوب فرنسا مشيا ووصل الى سويسرا بعد اسبوعين. فزار جنيف أولا ثم لوزان وبعد ان استلم المال الذى ارسله اليه ماركس توجه الى برن حيث استقر موقتا.

كانت هذه الاقامة الجبرية فى سويسرا، بلد البرجوازية الصغيرة، البعيد عن العواصف الثورية، غير مطاقة لانجلس نظرا لطبيعته الكفاحية وسعيه الى الاشتراك المباشر بالنضال الثورى. وقد رد على ماركس الذى نصحه بتأخير عودته الى ألمانيا: «وما السبب؟ وهل لا يمكننى ان اعود؟» وانهال على صديقه برسائل جديدة تحمل كل سمات فراغ الصبر. كتب يقول فى الثامن من شهر كانون الثانى - يناير - ١٨٤٩: «اننى لا ازال أفكر انه سيكون فى الامكان أن اعود عما قريب. ان هذه الحياة العاطلة فى الخارج حيث لا املك شيئا لكى اشتغل به بانتظام وحيث اجد نفسى خارج الحركة، لا تطاق أبدا! سوف ينتهى بى الأمر عما قريب أن استنتج بان الاقامة فى سجن كولونيا افضل من الحياة فى سويسرا الحرة».

بيد أن حياته فى الخارج ما كانت «حياة عاطلة» اطلاقا كما كان يعتقد اذ انه كان يسعى الى خوض المعارك. وقد اشترك اشتراكا فعالا فى الحركة العمالية السويسرية،

وفى شهر كانون الاول - ديسمبر - من عام ١٨٤٨ أوفده اتحاد العمال بلوزان مندوبا الى مؤتمر العمال فى برن بصفته «مناضلا قديما فى سبيل قضية البروليتاريا». وفى برن كتب «للجريدة الرينانية الجديدة» عدة مقالات احداها «النضال الثورى فى المجر» التى حيا فيها بحرارة الطرائق الثورية التى استعملها المتمردون المجريون تجاه الثورة المعاكسة (الردة الرجعية). وقدكتب يقول: «لأول مرة فى حركة عام ١٨٤٨ الثورية، ولأول مرة بعد عام ١٧٩٣ تقوم أمة تحاصرها قوى متفوقة للثورة المعاكسة وتجرؤ على مجابهة حنق الرجعية الجبان بالحماسة الثورية، ومجابهة... الارهاب الابيض... بالارهاب الاحمر».

وفى اواسط شهر كانون الثانى - يناير - ١٨٤٩ تمكن أنجلس اخيرا من العودة الى ألمانيا.

وحينما وصل الى كولونيا كانت الثورة تجتاز طورا عصيبا جدا. كانت الثورة المعاكسة تهاجم على طول الجبهة. وفى الواحد والثلاثين من شهر تشرين الاول - اكتوبر - ١٨٤٨، بعد الدفاع البطولى من قبل العمال، ظفرت الثورة المعاكسة فى فيينا. وبهذه المناسبة، كتبت «الجريدة الرينانية الجديدة» تقول: «لقد انتهى فى فيينا منذ قليل الفصل الثانى من المأساة، أما الفصل الأول فقد جرى فى باريس باسم «أيام حزيران»... وسوف نشاهد الفصل الثالث فى برلين عما قريب». وبالفعل، تحمست الثورة المعاكسة البروسية من سير الحوادث فى النمسا فلم تتريث. ففى الثانى من شهر تشرين الثانى - نوفمبر - دعا الملك الى السلطة حكومة براندنبورغ الرجعية بصورة سافرة. وفى العاشر من الشهر نفسه احتلت برلين فرق الجنرال فرانغل،

هذه هى النتيجة المحتمة لخيانة البرجوازية الكبيرة ولتردد وتأرجح زعماء ديموقراطية البرجوازية الصغيرة والجبن الشائن من المجلس الوطنى.

لقد رفعت «الجريدة الرينانية الجديدة» برئاسة ماركس راية النضال الحاسم ضد الثورة المعاكسة ونادت بشعارات: «المقاومة بجميع الوسائل لجباية الضرائب»، «تسليح الجماهير»، «انشاء لجان للامن». وفى هذه الحقبة الفاصلة كانت الجريدة تدعو المجلس الوطنى الى اتخاذ التدابير الحاسمة السريعة التالية: اعلان الجنرال فرانغل خارجا على القانون، ودعوة الشعب والجيش الى مقاومة الثورة المعاكسة بالسلاح. ولكن المجلس الوطنى البروسى العاجز الجبان اقتصر على النداء بالمقاومة السلبية، ورفض دفع الضرائب. وفى الخامس من شهر كانون الاول - ديسمبر - حل المجلس.

وحاولت الثورة المعاكسة بعد ذلك ان تصفى حسابها مع قادة البروليتاريا. ففى السابع من شباط - فبراير - قدم ماركس وأنجلس الى القضاء بتهمة «اهانة السلطات». غير انهما مثلا أمام القضاة لا بصفة متهَمين بل بصفة متهِمين. ويذكر ليسنر، عضو «عصبة الشيوعيين» فيما بعد: «ما أمتع رؤية ماركس وأنجلس وسماعهما يهاجمان الرجعية السوداء - البيضاء بتفوق وضلاعة». ولم يجرؤ القضاة المحلفون على لفظ أى حكم واضطروا الى اطلاق سراحهما.

وفى ربيع عام ١٨٤٩ تفاقم الوضع فى ألمانيا تفاقما خاصا: كانت الرجعية تجمع قواها للقضاء على الثورة نهائيا.

وكانت ساعة المعارك الحاسمة بين المعسكرين المتضادين: معسكر الثورة ومعسكر الثورة المعاكسة تقترب.

وفى ذلك الحين اشتد بخاصة خطر العناصر الوسيطة والمتذبذبة، الساعية الى التوفيق بين ما لا يمكن التوفيق بينه، والميالة الى التهرب من المعارك الحاسمة وتفرقة صفوف الجماهير. ولما كان ثمة خطر يهدد بوقوع مقاليد قيادة المعارك المقبلة فى ايدى هذه العناصر بالضبط التى هى ممثلى البرجوازية الصغيرة الالمانية الكثيرة العدد، فان ماركس وأنجلس اللذين كانا يفضحان منذ العدد الأول من «الجريدة الرينانية الجديدة» ترددات زعماء الديموقراطية البرجوازية الصغيرة وجبنهم وأوهامهم، اخذا ينتقدانهم نقدا أقسى لاضعاف تأثيرهم فى الجماهير.

وفى اواسط نيسان – أبريل – ١٨٤٩ قطع ماركس وأنجلس وانصارهما صلتهم تنظيميا بالديموقراطية البرجوازية الصغيرة. وخرج اتحاد العمال فى كولونيا الذى كانوا يديرونه من الجمعية الديموقراطية. وان التجربة السياسية التى اكتسبتها الجماهير العمالية وخيبة آمال العمال الطليعيين من الديموقراطية البرجوازية الصغيرة، كل ذلك اتاح الآن العمل على خلق حزب بروليتارى. شدد ماركس وانجلس نشاطهما الساعى الى رص صفوف البروليتاريا والى جعل اتحاد عمال كولونيا مركزا لتوحيد المنظمات العمالية الرينانية والويستفالية، ومن ثم – الى تأسيس منظمة تضم منظمات العمال فى ألمانيا كلها. ولهذا الغرض، عززا صلاتهما باعضاء «عصبة الشيوعيين» المبعثرين فى أرجاء ألمانيا مبديين لهم تعليماتهما وطالبين اليهم عملا فعالا لانشاء منظمات عمالية محلية.

وكلما كانت المعارك الحاسمة تقترب، كانت لهجة «الجريدة الرينانية الجديدة» تزداد حدة وتحمسا. كانت الجريدة لسان حال الديموقراطية رسميا، غير انها اخذت تبرز بصورة اوضح فاوضح طابعها البروليتارى الحقيقى. وكان كل عدد من اعدادها العادية والخاصة يحمل علائم النضال الذى يجرى تحضيره. فكانت اعدادها الخاصة الصادرة فى شهرى نيسان – ابريل – وايار – مايو – من أولها الى آخرها، تؤلف نداء الى الشعب بالاستعداد للمعارك الحاسمة.

كان الجو فى البلاد مكهربا جدا حتى ان برلمان فرانكفورت رأى نفسه مضطرا الى «العمل». «فمجلس اللت»، هذا «النادى للمناقشات» المؤلف من «مساكين تعساء صاروا بلهاء تماما بعد عام من النشاط البرلمانى» (أنجلس) اخذ «ينقذ» البلاد بطريقه، البرلمانى.

فردا على زحف الثورة المعاكسة القوى، لم يجد برلمان فرانكفورت افضل من الاسراع فى تحضير «دستور الامبراطورية» بدلا من ان يدعو الجماهير الى الكفاح الثورى الحازم الجرىء. وهذه «التحفة»، مع بيان الحقوق المدنية والقانون الانتخابى الامبراطوري صارت جاهزة فى آذار – مارس – ١٨٤٩، ولكنها ارتطمت على الفور «بعقبة صغيرة»: فلم يقبل أن يوافق على هذا الدستور، لا ملك بروسيا الذى نادى به برلمان فرانكفورت امبراطورا على دولة ألمانية موحدة كانت موجودة على الورق فقط، ولا حكومات ألمانية اخرى. وتجاه هذا الوضع قامت الاغلبية «اليسارية» التى تألفت، عقب خروج النواب اليمينيين من البرلمان، من الديموقراطيين البرجوازيين الصغار ومن عدد

من الليبراليين واعلنت الدستور المذكور القانون الوحيد الاعلى المرعى الاجراء على أرض الامبراطورية. وعلى هذه التصريحات والاقتراعات البرلمانية ردت الحكومات بالاعمال. فقد حلت المجالس فى بروسيا أولا ثم فى هانوفر والساكس. وفى الثامن والعشرين من شهر نيسان - ابريل - أعلنت الحكومة البروسية دستور الامبراطورية وثيقة فوضوية وثورية. وأخذت الجيوش البروسية تتمركز فى ضواحى فرانكفورت. لقد اتضح ان النزاع لا يمكن أن يسوى الا بقوة السلاح.

وهبت جماهير البرجوازية الصغيرة للنضال من اجل دستور الامبراطورية الذى رأت فيه آخر «ظفر» ثورى بعد انتصار الثورة المعاكسة فى بروسيا والنمسا. وللحركة انضم الفلاحون الذين اثقلتهم الضرائب والاتاوات الاقطاعية. والشيء الاهم هو دخول الطبقة العاملة ميدان الكفاح بوصفها قوة نشيطة، فعالة. ولقد دخلت المعارك لا قصد الدفاع عن الدستور الامبراطوري وحسب، بل لتعجيل سير الثورة وللاستفادة من الوضع الناشيء لتعميق جذور الثورة وتوسيعها. وفى أوائل أيار - مايو - كانت نيران التمرد قد اضرمت فى غرب ألمانيا وجنوبها - فى اقليم ريننانيا والساكس ووستفاليا والبالاتينا والباد - وكانت البرجوازية الصغيرة على رأسه فى كل مكان.

أما برلمان فرانكفورت، الذى كان دستوره دافع الانتفاضة، فسرعان ما توارى من ميدان الكفاح. فقد اظهر اعضاؤه مرة أخرى عجزهم عن كل عمل ثورى. كتب عنهم أنجلس يقول: «كانوا يلتون ويحتجون ويصرخون ولكنهم ما كان لديهم الشجاعة والذكاء الضروريان للعمل». ولهذا

«لم تلبث الآثار الأخيرة من احترام هذا المجلس المحتقر ان امّحت. أما الثائرون الذين هبوا فى البدء للدفاع عنه فقد انتهى بهم الامر أن نسوه وعندما غاب من الوجود لم يلاحظ أحد اضمحلاله» .*

كان ماركس وأنجلس لا يدخران وسعا لمساعدة الجماهير الثائرة ولوضع هدف واضح امام الحركة والمساعدة فى تنظيمها. وقد كان الفضل التاريخى لانجلس فى وضع خطة الانتفاضة المسلحة التى كانت أول نموذج للموقف الماركسى من الانتفاضة بوصفها فنا.

فى المرحلة الاولى من الانتفاضة المتطورة كان انجلس يعتبر منطقة الباد اهم المناطق، اذ كانت قد تشكلت فيها حكومة موقتة ثورية تتمتع بتأييد من اغلبية الشعب الساحقة، وكانت تملك الجيش الذى انضم الى جانب الشعب وكانت تحت تصرفها أسلحة وذخائر. كانت المناطق المجاورة اما فى خضم الانتفاضة (البالاتينا واقليم رينانيا) أو على اهبة الانفجار (فيورتمبرغ، وهسن، وناساو، وفرانكونيا). وكان أنجلس يشير فى خطته الى ضرورة توسيع الانتفاضة ومدها الى خارج حدود الباد، الى هسن ــ دارمشتادت وفرانكفورت وناساو وفيورتمبرغ بدون تريث ولا سيما بارسال عدد يتراوح بين ٨ــ١٠ آلاف جندى من الجيش النظامى الى فرانكفورت بغية وضع المجلس الوطنى لعامة المانيا تحت تأثير ومراقبة الشعب والجيش المتمردين.

وهكذا، حدد انجلس بمهارة الخط العقلانى الوحيد للهجوم الاساسى من الباد الثائر نحو الشمال، الى فرانكفورت التى كانت تلعب السيطرة عليها دورا سياسيا

* انجلس، «الثورة والثورة المعاكسة فى المانيا».

ومعنويا هاما جدا اذ تضفى طابعا **وطنيا** على الانتفاضة: فقد كان المجلس الوطنى لالمانيا كلها مستقرا فى هذه المدينة. وفضلا عن ذلك، كانت للسيطرة على فرانكفورت اهمية كبيرة من الناحية الستراتيجية اذ انها تضع تحت اشراف المتمردين مجرى نهر الماين وتعطى القوى الثورية مركزا للزحف نحو الشمال الغربي، باتجاه المناطق المتمردة فى بروسيا الرينانية.

كان انجلس يعتبر التعزيز الداخلى لقوى الانتفاضة وتنظيمها شرطا ضروريا لظفر هذه العمليات العسكرية الجريئة. «كان لا بد من تركيز قوى الانتفاضة ومن وضع الموارد المالية الضرورية تحت تصرفها، واجتذاب الفلاحين الذين هم اغلبية السكان الى جانب الحركة وذلك عن طريق الغاء جميع الاتاوات الاقطاعية فورا. ولكى تعطى الحركة طاقة أكثر، كان يكفى أن تقام أولا فى الباد وبالاتينا سلطة مركزة مكلفة بالأعمال العسكرية والمالية ومخولة اصدار النقود الورقية، وكذلك الغاء جميع الاتاوات الاقطاعية فى أراضى الباد وسائر المناطق التى يحتلها الجيش الثورى. **ولكن كان يجب أن يجرى هذا كله منذ اللحظة الأولى وبسرعة لأن النجاح كان يتوقف على هذه السرعة وحدها.**» *

ان هذا الاعتماد على تشجيع الطاقة الثورية لدى الجماهير اقصى التشجيع على القيادة الثابتة المتمركزة للانتفاضة، على جرأة العمليات وسرعتها - انما هى السمة الرئيسية لخطة الانتفاضة المسلحة التى تقدم بها انجلس.

وكانت منطقة التمرد الكبيرة الثانية التى استرعت اهتمام انجلس بشكل خاص هى اقليم رينانيا العامر بالعمال الصناعيين

* انجلس، «الحملة الالمانية من اجل دستور الامبراطورية».

والذى تستقر فى مركزه قيادة البروليتاريا الثورية الممثلة بهيئة تحرير «الجريدة الرينانية الجديدة». ولكن أنجلس كان يرى، على ضوء الوضع السياسى والعسكرى، أن الشروط الملائمة بشكل خاص هى وحدها التى يمكن أن تجعل من رينانيا عاملا قويا فى التمرد، ما تزال معدومة. كانت هذه المنطقة مطوقة بسبع قلاع، ويحتل اراضيها ثلث الجيش البروسى تقريبا، وتجتازها الطرق الحديدية فى كل اتجاه، والخ.. ففى هذه الظروف كان لا بد من اعمال ثورية نشيطة **من خارج** المنطقة، ومساعدة فعالة من سائر مناطق التمرد، مساعدة من شأنها ان تقتحم خطوط القوات المسلحة التى ركزتها الثورة المعاكسة على ضفاف الراين وان تفكك قيادتها العسكرية وان تشدد التأثير الثورى فى صفوف الجنود. ففى هذه الحالة فقط كان يمكن أن يصبح التمرد فى اقليم رينانيا المعتمد الى جماهير عمال الصناعة، عاملا قويا فى الثورة الالمانية الشاملة وقوة قادرة على تعميق جذور الحركة ونقلها الى طور أسمى. كان أنجلس يربط خطته للانتفاضة بآفاق النضال الثورى العامة فى اوروبا وبنهوض الثورة الجديد فى فرنسا وايطاليا، وكذلك بالحرب الثورية فى المجر. وكانت خطته كلها للنضال المسلح فى ربيع عام ١٨٤٩ خطة جريئة للغاية ترتكز فى الوقت ذاته على التقدير العقلانى لشروط النضال السياسية والستراتيجية والعسكرية والتكنيكية.

وفى التاسع والعاشر من شهر أيار – مايو – اندلعت نار التمرد المسلح فى المنطقة الصناعية مارك وبيرغ من اقليم رينانيا وشملت فيما شملت مراكز مثل إلبرفلد وهاغن وزولنغن وايزرلون.

واثر وصول خبر التمرد، بادر أنجلس الى وضع خطة لمساعدة المناطق الثائرة على ضفة الراين اليمنى. وكان جوهر الخطة يتلخص فيما يلي:

« يجب قبل كل شيء تجنب الانفجارات التي لا فائدة منها في القلاع والمدن التي توجد فيها الحاميات؛

يجب القيام بعمليات الهاء في المدن الصغيرة والقلاع والحواضر الصناعية والقرى الواقعة على ضفة الراين اليسرى لتجميد الحاميات المحلية في مراكزها؛

وأخيرا، يجب الزج بجميع القوى الحرة لنجدة المنطقة المتمردة الواقعة على الضفة اليمنى من الراين، وتوسيع التمرد ومحاولة... تنظيم نواة الجيش الثوري هنالك ».*

وبعد ما اطلع أنجلس اصدقاءه على هذه الخطة، استعاض عن ريشته بالبندقية واتجه في العاشر من شهر ايار - مايو - الى وبرتال مسقط رأسه، الى مدينة البرفلد، لينفذ، على حد قوله، « المهمة المعروضة في البند الثالث ».

وما ان وصل الى البرفلد حتى شهد فوضى وارتباكا لا يوصفان، اذ كانت قيادة الحركة وهي لجنة الأمن المحلية المؤلفة من البرجوازيين الصغار، عاجزة عن اتخاذ التدابير الحازمة التي يتطلبها الموقف. غير أنه وجد ايضا عدة مئات من العمال المسلحين وكان ٤٠٠ منهم بروليتاريين من زولنغن يمتازون من بين الجميع بروح النظام والشجاعة. واعتمادا على طليعة العمال، أخذ انجلس يقوم بنشاط كفاحي شديد. وبعد ما حصل على اذن من لجنة الامن بالاشراف على اقامة المتاريس، شكل بسرعة فرقة خاصة

---

* انجلس، « الحملة الالمانية من اجل دستور الامبراطورية ».

مكلفة باعمال البناء العسكرى وانجز تشييد المتاريس ووزع الرجال والمدافع والخ..

وما كان يفتأ فى الوقت ذاته يطالب لجنة الأمن بانتهاج خطة ثابتة حازمة. وطالب بنزع السلاح على الفور من الحرس الأهلى فى البرفلد الذى أعلن «حياده» بينما كان فى الواقع تشكيلة للبرجوازية الكبيرة موجهة ضد البروليتاريا. واقترح استعمال فرقة من العمال من زولنغن لهذه العملية العاجلة، وطلب أن توزع الاسلحة المنزوعة من الحرس على العمال، وعرض فرض ضريبة اجبارية لاعاشة العمال المسلحين. وكانت خطته تنص فضلا عن ذلك على توسيع التمرد الى المناطق الأخرى المجاورة وتنظيم الدفاع المنظم عن منطقة مارك وبيرغ.

وقصد الحفاظ فى هذه المرحلة على الجبهة الموحدة مع الديموقراطيين البرجوازيين الصغار، لم يتقدم انجلس بمطالب بروليتارية صرفة، اشتراكية. كانت خطته خطة النضال الحازم، الديموقراطى الثورى الدائب ضد الثورة المعاكسة.

بيد أن مجيىء انجلس، احد زعماء «حزب الحمر» وأحد محررى «الجريدة الرينانية الجديدة» التى كان اسمها وحده يجعل فرائص البرجوازية ترتعد، كان مجيئه وحده الى البرفلد سببا لذعر البرجوازية المحلية. ان نشاط أنجلس الشديد وخططه للنضال والمطالب التى كان يصوغها، كل ذلك قد أثار حقيدة البرجوازية عليه الى حد انها أخذت تروج جميع انواع الافتراءات عن «مملكة الارهاب» التى كان هو – على حد زعمهم – مبشرا بها، وغيرها من الاختلاقات من نفس النوع لكى تثير عليه فئات البرجوازية الصغيرة.

وقد استسلمت لجنة الأمن لضغط البرجوازيين فأرادت أن تعتقله، ولكنها اكتفت بطرده من المدينة خوفا من العمال المسلحين. كتب أنجلس يقول فيما بعد معبرا عن شكره للعمال من زولنغن: «لولا عمال زولنغن لزج بى أولئك البرجوازيون فى السجن حيث استبقونى - دونما ريب - بصفة ضحية فداء للسادة البروسيين».

وفى صباح الرابع عشر من أيار - مايو - أعلنت لجنة الأمن لانجلس: «ان البرجوازية المحلية قد راعها وجوده الى اقصى حد وخشيت أن ينادى بالجمهورية الحمراء فارادت ان يترك البرفلد». وفى نفس اليوم اصدرت لجنة الامن قرارها بطرد انجلس حالا مبررة هذا التدبير بأن «اقامته قد تخلق سوء فهم حول طابع الحركة». وفى اليوم التالى، عندما اطلع السكان على أمر الطرد، تملك الغضب والاستياء العمال وطالبوا ببقاء انجلس وأكدوا له أنهم مستعدون «للدفاع عنه بارواحهم». ولكن أنجلس الذى كان يقدر الوضع حق التقدير ويدرك أن الوقت لم يحن بعد للاصطدام المكشوف مع الديموقراطية البرجوازية الصغيرة، هدأ خواطر العمال وغادر البرفلد تاركا مكانه لمساعده.

وبعد هذه الخيانة من قبل السادة البرجوازيين الصغار من لجنة الامن، عاد انجلس الى كولونيا. ونشرت «الجريدة الرينانية الجديدة» على صفحاتها تعليقا حول هذا الحادث انتهى بهذه الكلمات الموجهة الى العمال:

«فليعلم عمال مارك وبيرغ الذين ابدوا لزميلنا آيات الود والعطف، أن الحركة الراهنة ليست الا فاتحة لحركة اخرى أهم بآلاف مرات، سوف تنسرف الى مصالحهم، هم

العمال، الخاصة. وستكون هذه الحركة الثورية الجديدة نتيجة للحركة الراهنة. وحينما تبدأ هذه الحركة سيتخذ أنجلس، كسائر محررى «الجريدة الرينانية الجديدة» مكانه فيها – وهذا ما يستطيع العمال أن يتأكدوا منه! – وما من قوة فى الدنيا حينذاك تقدر أن تحمله على ترك هذا المكان».

كان وضع المتمردين فى البرفلد فى غضون ذلك قد صار عصيبا. فنظرا لاستياء العمال من جبن قادة البرجوازية الصغيرة وتردداتها وعطالتها الخائنة، تركت فرق العمال البرفلد قاصدة اقتحام مناطق اخرى حيث كانت نار التمرد لا تزال تلتهب. وبنتيجة الخيانة المباشرة من البرجوازية الكبرى وجبن القيادة البرجوازية الصغيرة، سقطت بايدى البروسيين مدينتى هاغن وزولنغن بسرعة، ثم، بعد مقاومة قصيرة، ايزرلون. وقد نجح قسم من عمال البرفلد وزولنغن وتوصل الى بالاتينا الثائرة حيث انضم كثير منهم الى فرقة المتطوعين التى كان يقودها الشيوعى ويليخ والتى دخل أنجلس صفوفها بعد قليل للقتال.

كانت «الجريدة الرينانية الجديدة» خلال انتفاضة أيار – مايو – تدعو الجماهير للنضال بلا هوادة ضد الثورة المعاكسة التى يتزعمها آل هوهنزولرن، «أولئك الاوباش الجبناء الدجالون الذين يعذبون البلاد».

وفى ظروف نهوض الحركة الجماهيرية لم تتجرأ الرجعية المسلحة حتى اخمص اقدامها على مطاردة هذه الجريدة التى كان صوتها يدوى راعدا فى ارجاء ألمانيا كلها.

ولكن هزيمة الانتفاضة على ضفاف الراين قد أتاحت لها القضاء على لسان حال البروليتاريا الثورية. وقامت الحكومة

بملاحقات قضائية ضد محرريها الذين هم من أصل بروسى وأمرت الآخرين بمغادرة بروسيا حالا. وقد استفادت الحكومة من أن ماركس كان قد تخلى فى عام ١٨٤٥ عن تبعيته البروسية فاعتبرته «اجنبيا» انتهك «حق الضيافة» واصدرت امرا بطرده من بروسيا. وكان كل ذلك يعنى نهاية «الجريدة الرينانية الجديدة».

وفى ١٩ أيار – مايو – ١٨٤٩ صدر العدد الاخير من الجريدة مطبوع بالحبر الاحمر. وكان يحتوى نداء هيئة التحرير «الى عمال كولونيا» الذى ختمته الكلمات التالية: «ان محررى «الجريدة الرينانية الجديدة» اذ يودعونكم، يشكرونكم على العطف الذى اعربتم عنه لهم. ولسوف يكون شعارهم فى كل زمان ومكان: **فى سبيل تحرير الطبقة العاملة!**»

وبعد خمس وثلاثين سنة قال أنجلس باعتزاز مشروع، وهو يتذكر نهاية الجريدة: «كنا مضطرين الى تسليم قلعتنا ولكننا انسحبنا حاملين معنا اسلحتنا وذخائرنا، على قرع الطبول وتحت الراية المترفرفة لعددنا الأخير المطبوع بالاحمر...» *

وبعد اغلاق «الجريدة الرينانية الجديدة» قصد ماركس وأنجلس جنوب غربى ألمانيا الذى اجتاحته نيران التمرد. فلم يألوا جهدا فى سبيل توسيع وتعميق التمرد وفى سبيل حث الديموقراطيين البرجوازيين الصغار على اتخاذ خطة حازمة ثورية. وقد حاول الصديقان فى مانهايم (منطقة الباد) اثناء التحادث مع قادة الحركة المحلية اقناعهم بتطبيق خطة أنجلس العسكرية الآنفة الذكر. ولكن قادة

---

* انجلس، «ماركس و«الجريدة الرينانية الجديدة»».

الباد الجبناء الاغبياء الخالين من الجرأة والبأس ما شاؤوا أن يأخذوا بنصائحهما.

وغادر ماركس وأنجلس الباد قاصدين بالاتينا المركز الثانى للتمرد فتحادثا فيها مع اعضاء الحكومة المحلية الموقتة. وفى طريق العودة أوقفهما جنود هسن ثم ارسلا الى فرانكفورت بتهمة الاشتراك فى التمرد، ولكن هناك سرعان ما أطلق سراحهما.

عندما رأى ماركس أن الوضع الناشىء فى ألمانيا لا يبشر بأى نتيجة جدية ذهب الى باريس بصفته مندوبا من اللجنة المركزية الديموقراطية، وهو مقتنع بأن احداثا جساما تنضج فى فرنسا. أما أنجلس فقد عاد الى كايزرسلوترن (منطقة بالاتينا) «ليشغل المنصب الوحيد الجدير «بالجريدة الرينانية الجديدة» فى هذه الحركة وهو منصب الجندى» (انجلس).

وقد رفض انجلس رفضا قطعيا جميع المناصب المدنية والعسكرية التى كانت تعرض عليه باستمرار اذ انه ما كان يريد أن يحمل مسؤولية الاخطاء اللامتناهية التى كان يرتكبها فى كل خطوة قادة البرجوازية الصغيرة الذين ما كان ثمة سبيل الى تصحيح خطتهم السياسية، كما دلت الخبرة على ذلك. بيد أن طبيعته المتحمسة الثورية كانت تتنافر مع العطل. وفى ذلك الحين كان المتطوعون الذين يقودهم ويليخ يحاصرون بنجاح قلعة لانداو البروسية وكان فى مستطاع الفرقة ان تستولى عليها بسهولة لولا عدم وجود المدفعية تحت تصرف ويليخ. فكان انجلس يوميا يرهق القيادة فى كايزرسلوترن طالبا ارسال المدافع على عجل الى المقاتلين، ولكن عبثا. وقد كانت تدخلاته ونقده القاسى

لترددات السلطات المحلية وأخطائها سببا لاعتقاله فى احدى مدن منطقة بالاتينا الواقعة على حدودها ثم ارساله الى كايزرسلوترن مخفورا مصفد اليدين وسعيا على الاقدام حيث سجن فيها. وقد أثار اعتقاله موجة من السخط بين طليعة المتمردين فى بالاتينا ولا سيما بين عمال فرقة المتطوعين من رينانيا وهسن. وقد اعلنوا عن عزمهم على الانسحاب من الفرقة اذا لم يطلق سراح أنجلس. وفى النتيجة، بعد أن أمضى يوما كاملا فى الزنزانة، أطلقت الحكومة الموقتة سراحه واعتذرت منه.

وفى هذه الاثناء شاع نبأ هجوم الجيوش البروسية المناهضة للثورة فالتحق أنجلس فورا بفرقة ويليخ.

وقد قام أنجلس فيها بشرف بواجبه كجندى متمرد. وقد كتب فيما بعد يقول باعتزاز: «كان أحزم الشيوعيين هم اشجع الجنود» فى جيش بالاتينا – الباد. ان هذه الصفة يمكن أن تطلق عليه أول ما تطلق.

وصل انجلس فى الثالث عشر من شهر حزيران – يونيو – الى اوفنباخ حيث كان مقر ويليخ فصار الضابط المرافق له. ومنذ ذلك الحين اشترك فى جميع المعارك التى قامت بها الفرقة حتى منتصف شهر تموز – يوليو – حينما اعتقلت سلطات سويسرا جيش بالاتينا – الباد. وليس من باب الصدفة ان كانت فرقة ويليخ من احسن الفرق فى جيش المتمردين اذ انها كانت تضم عددا كبيرا من العمال ممن برزوا اشجع المقاتلين واكثرهم انضباطا. وكانت هى التى غطت انسحاب جيش الثوار البادى ضد هجمات الجيوش البروسية.

وسرعان ما برز أنجلس جنديا رابط الجأش كما

ابدى فى الوقت ذاته صفات عالية كمنظم لا يصدف عن اى عمل كان. كانت الفرق المقاتلة تعانى من سوء التسليح وسوء التموين، وأخذ انجلس على عاتقه مهمة الاستحصال على الاسلحة والذخائر والاغذية والملابس التى كانت تحتاج اليها. كان معلما متحمسا للجنود فى ساعات الراحة وكان دائما فى الطليعة فى القتال، وقد اشترك باربعة معارك ومن جملتها معركة راشتنات. كتبت ايليانور ماركس تقول: «ان جميع الذين رأوه فى غمار المعركة لم يكونوا يكلون من الحديث عن رباطة جأشه الفذة وعن استخفافه المطلق بالمخاطر» *.

وفى الثانى عشر من شهر يوليو - تموز -، أى بعد انسحاب جيش بالاتينا - الباد بيوم كامل، عبرت فرقة ويليخ حدود سويسرا، وكان انجلس فى صفوفها. وكانت هذه آخر فرقة من جيش بالاتينا - الباد المهزوم الذى غادر أرض ألمانيا.

وهكذا كانت الانتفاضة فى جنوب المانيا وغربها قد قمعت نهائيا فى اواسط تموز - يوليو - عام ١٨٤٩.

ان هزيمة الانتفاضة فى جنوب غربى ألمانيا كانت ايضا الهزيمة النهائية للثورة الألمانية فى ١٨٤٨-١٨٤٩.

وقد كان سببا لهذه الهزيمة خيانة البرجوازية الالمانية الكبيرة وترددات البرجوازية الصغيرة وكذلك ضعف البروليتاريا وسوء تنظيمها الناتجان من تأخر ألمانيا الاقتصادى وتجزؤها السياسى.

لقد وضعت الأحداث الثورية لعامى ١٨٤٨-١٨٤٩ الاحزاب والطبقات ونظرياتها وبرامجها السياسية موضع

* قصص عن ماركس وانجلس. الطبعة العربية. موسكو. ص ١٨٩.

تجربة قاسية. وقد انزلت ثورات عامى ١٨٤٨ـ١٨٤٩ ضربة قاضية بجميع أنواع تيارات الاشتراكية الطوباوية السابقة للماركسية وبينت بجلاء تفوق مذهب البروليتاريا العلمى الذى قطع امتحانه التاريخى الاول بصورة جيدة. «فقد اثبت مجرى الاحداث الثورية فى ١٨٤٨ـ١٨٤٩ كما اثبتت فيما بعد جميع الحركات البروليتارية والديموقراطية فى جميع بلدان العالم صحة النظرية الجديدة على نحو ساطع»*.

قبل عام ١٨٤٨ كان اهتمام ماركس وانجلس متجها بصورة رئيسية الى وضع اسس فلسفية للشيوعية العلمية. اما فى مجرى المعارك الثورية فى عامى ١٨٤٨ـ١٨٤٩، فقد تقدمت الى مكان الصدارة الافكار السياسية والمسائل الستراتيجية والتكتيكية.

كانت خطتهما هى الخطة الوحيدة الصحيحة فى ثورة ١٨٤٨ـ١٨٤٩، كما أشار لينين الى ذلك غير مرة فى سياق كفاحه ضد مختلف محاولات التروتسكيين والمناشفة لتشويه هذه الخطة. واذا كانت لم تستطع أن تؤدى الى النصر فذلك بسبب نقص اعداد البروليتاريا وضعف تطور الرأسمالية.

كتب لينين مشيرا الى أهم ناحية واحسمها فى خطة ماركس وأنجلس السياسية فى تلك الحقبة فقال: «انهما كانا علّما البروليتاريا التكتيك الثورى، تكتيك تطوير النضال حتى أرفع أشكاله، التكتيك الذى يجر الفلاحين وراء البروليتاريا ولا يجر البروليتاريا وراء الخونة الليبراليين»**.

---

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ١١.

** لينين، «على طول السبيل المطروق».

* * *

منذ مطلع شهر حزيران – يونيو –، حينما غادر ماركس ألمانيا قاصدا فرنسا، انقطعت الاتصالات بين ماركس وانجلس لمدة اكثر من شهرين. كان ماركس يعرف أن صديقه يسعى دائما الى ان يكون فى أخطر الامكنة فكان يشعر بقلق عظيم عليه، وهو شعور كان أنجلس يشعر به تجاه ماركس أيضا. وقد عبر عنه فى أول رسالة استطاع أن يرسلها من سويسرا الى زوجة ماركس (فى الخامس والعشرين من شهر تموز–يوليو–عام ١٨٤٩): «لو اننى كنت متأكد من ان ماركس حر! فقد كنت كثيرا ما افكر فى اننى تحت وابل رصاص البروسيين كنت اتعرض لخطر اقل من الخطر الذى يتعرض له سائر انصارنا فى ألمانيا ولا سيما ماركس فى باريس. خلصينى بسرعة من هذا القلق».

وقد رد عليه ماركس بنفسه فكتب له: «لقد قلقت عليك شديد القلق واننى لسعيد حقا اذ استلمت البارحة رسالة منك». واستطرد يقول: «لديك الآن فرصة سانحة جدا لكتابة تاريخ ثورة بالاتينا والباد او مقال سخرى عنها... وفى وسعك أن توضح فى هذا العمل بصورة بارزة جدا موقف «الجريدة الرينانية الجديدة» من الحزب الديموقراطى».

كان هذا الاقتراح من ماركس يطابق تماما خطط أنجلس، فشرع يكتب كراسا لم يلبث طويلا حتى صدر باسم «الحملة الالمانية من اجل دستور الامبراطورية». وقد قدم فيه وصفا حيا مفصلا بارعا للنضال المسلح فى بروسيا الرينانية والباد وبالاتينا منذ شهر أيار–مايو–حتى شهر تموز–يوليو–عام

١٨٤٩، وحلل ممهدات النضال فى سبيل دستور الامبراطورية وسير هذا النضال، ووصف وصفا دقيقا قويا موقف مختلف الطبقات فى هذا النضال ولا سيما دور البروليتاريا والفلاحين.

وعلى حد قول انجلس، كان العمال، والفلاحون ايضا فى أماكن كثيرة، على أهبة النضال فى سبيل دستور الامبراطورية «صحيح انه بشرط ضمنى، ولكنه معروف جيدا عند جميع الاحزاب وهو أنه سيتعين، بعد انتصار البرجوازية الصغيرة، الدفاع عن هذا الدستور نفسه ضد هؤلاء العمال والفلاحين انفسهم».*

ان أنجلس، اذ يصف الكفاح المسلح فى غرب المانيا وجنوبها، لا بصفته مشاهدا لامباليا، بل بصفته رجلا قد ساهم شخصيا فى هذا الكفاح، ما كان يستطيع أن يخفى ازدراءه لقادة البرجوازية الصغيرة للحركة والمسؤولين عن هزيمتها. وفى تحليله لسير العمليات العسكرية خطوة خطوة، رسم صورة واضحة للطريقة التى **لا يجب** اتباعها فى قيادة الانتفاضة المسلحة. وان النظرية الماركسية عن الانتفاضة المسلحة التى ارسى انجلس اسسها فى مقالاته المكرسة لمعارك حزيران - يونيو - التى قام بها العمال الباريسيون وللنضالات الثورية فى المجر وايطاليا، قد تطورت لاحقا فى عمله «الحملة الالمانية من اجل دستور الامبراطورية».

وفى أواخر شهر آب - أغسطس - **١٨٤٩** تلقى أنجلس رسالة من ماركس يقول فيها انه سينفى من باريس الى منطقة مليئة بالمستنقعات فى بريتان فى محافظة موربيهان.

---

* انجلس، «الحملة الالمانية من اجل دستور الامبراطورية». المقدمة.

وما كان ماركس يريد ان يقبل هذه المحاولة المقنعة لاغتياله فقرر مغادرة فرنسا قاصدا لندن وفى نيته نشر مجلة ألمانية فى تلك المدينة. كتب لانجلس: «يجب اذن أن تقصد لندن حالا. وان سلامتك لتقتضى ذلك فى نهاية الامر. ان البروسيين سيعدمونك بتهمتين: أولا بسبب الباد، ثانيا بسبب البرفلد. وعم تبحث فى سويسرا حيث لا عمل لك؟ لن تلقى أية صعوبة للمجىء الى لندن، سواء جئت باسم أنجلس أم باسم ماير... ارجو ان اعتمد على ذلك... وفى لندن سنعمل اعمالا».

أخذ أنجلس بنصيحة صديقه الملحة فذهب الى ايطاليا حيث ركب فى جنوا فى ٦ اكتوبر – تشرين الاول – سفينة شراعية وفى منتصف شهر تشرين الثانى – نوفمبر – وصل الى لندن. وان طابعه النشيط وعطشه الى المعرفة ما كانا يسمحان له ان يبقى عاطلا فى رحلته البحرية هذه، فقد انكب على دراسة علم الملاحة. وقد سجل فى دفتره ملاحظات مواقع الشمس واتجاه الرياح وأحوال البحر، والخ..

وما ان وصل أنجلس الى انكلترا حتى واصل مؤسسا الشيوعية العلمية نشاطهما الثورى المشترك.

كان الوضع غاية فى الصعوبة. فى كل مكان، كانت تسود الرجعية الظافرة. ولا دواعى للدهشة اذا كان الشعور بالانحطاط والتشاؤم وعدم الثقة بقضيتهم قد اخذ يروج بين قسم من اللاجئين السياسيين اقل ثباتا. وفى هذه الظروف، ظهر ماركس وانجلس فى مستوى وضعهما كقائدى البروليتاريا الثورية. وآنذاك برز بقوة خاصة كل ما يتميزان به من صلابة ومتانة طابع وتفاؤل راسخ قائم على ثقتهما العميقة والمدعومة علميا بعدالة قضيتهما.

وقد شرع مؤسسا الماركسية فى بعث عصبة الشيوعيين واعادة تنظيمها. كان اعضاء العصبة الذين اشتركوا فى الحركة اشتراكا نشيطا مبعثرين الآن فى كل مكان، وكانت الصلات منقطعة، وصار تبادل الرسائل مستحيلا موقتا بهذا السبب وبسبب مراقبة البوليس للمراسلة.

ولكن، بفضل نشاط ماركس وهمته، تمت اعادة تنظيم اللجنة المركزية لعصبة الشيوعيين فى ايلول - سبتمبر - ١٨٤٩، وادخل انجلس فيها بعد وصوله الى لندن. وبعد وقت قليل، التف حول ماركس وانجلس فى لندن جميع قادة العصبة القدامى تقريبا، كما ظهر مناضلون جدد برز بينهم ويليخ الذى قام أنجلس معه بحملة بالاتينا والباد وكونراد شرام وولهلم ليبكنخت.

كان بناء حزب بروليتارى مستقل امرا مستحيلا بدون التغلب على تأثير المهاجرين البرجوازيين الصغار المحتشدين فى لندن اذ انهم شنوا نضالا ضد ماركس وانجلس وحاولوا ان يوحدوا تنظيميا، تحت اشرافهم، جميع اللاجئين الثوريين.

كان ماركس وانجلس يناضلان ضد هذه المحاولات «التوحيدية» من جانب الديموقراطيين البرجوازيين الصغار ويدافعان عن منظمة الثوريين البروليتاريين المستقلة، الخاصة.

وفى الوقت نفسه، شغل العمل الذى بدأ بمبادرتهما على مساعدة اللاجئين مساعدة مادية شطرا عظيما من نشاطهما؛ ولقد استغلا هذا العمل ايضا لتوسيع تأثير الحزب البروليتارى فى نضالهما ضد محاولات زعماء

الديموقراطية البرجوازية الصغيرة للاستيلاء على زمام الادارة فى هذه الشؤون ايضا.

ولاقامة الاتصال مع ألمانيا أرسلت اللجنة المركزية للعصبة فى آذار – مارس – ١٨٥٠ رسولا خاصا هو هينريخ باوير، الذى حمل معه «نداء اللجنة المركزية الى «عصبة الشيوعيين»» الذى حرره ماركس وانجلس. وفى هذه الوثيقة الهامة، عرض ماركس وأنجلس النتائج الاساسية لثورة ١٨٤٨ – ١٨٤٩ فى ألمانيا ودققا خطة الشيوعيين التكتيكية فى الثورة الديموقراطية البرجوازية واعطيا صيغة موسعة لفكرتهما عن الثورة المستمرة.

قبل كل شيء، اشار ماركس وانجلس فى هذا النداء الى ان اعضاء «عصبة الشيوعيين» خلال الثورة، كانوا قد ناضلوا فى طليعة البروليتاريا – الطبقة الوحيدة الثورية حتى النهاية – والى أن برنامج العصبة السياسى قد ظهر البرنامج الصحيح الوحيد. ولكن تنظيم العصبة المتين السابق قد ضعف بشكل ملحوظ. فكانت منظماتها الفرعية فى عدد من الاماكن قد وقعت تحت تأثير الحزب الديموقراطى للبرجوازية الصغيرة. وقد اشار ماركس وأنجلس الى ان حزب العمال يجب أن يبدو أكثر تنظيما ووحدة واستقلالا فى الثورة المقبلة فى ألمانيا.

وكان النداء يشير ايضا الى أن الديموقراطيين البرجوازيين الصغار سيؤدون فى الثورة القادمة ذلك الدور الخائن الذى لعبه البرجوازيون الليبراليون الالمان فى عام ١٨٤٨. فالبرجوازيون الصغار يدعون البروليتاريا فى الوقت الحاضر الى الوحدة معهم ويسعون الى جذب البروليتاريا فى حزب معارض كبير واحد تحت اشرافهم. على أنه لا بد

من شن نضال حازم ضد هذه المحاولات الرامية الى تحويل الطبقة العاملة ذيلا للديموقراطية البرجوازية الصغيرة. يجب أن يكون للطبقة العاملة منظمة خاصة بها شرعية وسرية فى وقت واحد. وان موقف حزب العمال الثورى من الديموقراطية البرجوازية الصغيرة يجب ان يكون كالآتى: النضال المشترك معها ضد الرجعية؛ النضال ضدها فى جميع الحالات حينما تهم أن تعزز مراكزها نفسها. وفى حين ان الديموقراطيين البرجوازيين الصغار يسعون الى الحد من الثورة باصلاحات تفيدهم فى نطاق النظام الاجتماعى القائم، محافظين على اساسه - عبودية العمال المأجورة، «تتقوم مصالحنا ومهامنا - كما يقول النداء - فى جعل الثورة مستمرة حتى ننحى جميع الطبقات المالكة عن السلطة مهما كانت درجة ملكيتها، وحتى تستولى البروليتاريا على سلطة الدولة... ونحن لا نقصد تحويل الملكية الخاصة بل القضاء عليها، ولا نسعى الى تخفيف التناقضات الطبقية بل الى تصفية الطبقات، ولا نستهدف تحسين المجتمع القائم بل تأسيس مجتمع جديد».

وانطلاقا من هذه المهام، ينبغى للعمال أن ينشئوا، الى جانب الحكومة الجديدة الرسمية البرجوازية الصغيرة التى ستنجم عن انتصار الثورة على الرجعية، «حكومات عمالية ثورية خاصة بهم» على شكل مجالس المشاعات او النوادى او اللجان العمالية.

وينبغى للعمال أن يكونوا مسلحين وأن تكون لهم منظمة عسكرية خاصة لكى يستطيعوا أن يقاوموا سياسة الديموقراطيين البرجوازيين الصغار الخائنة. واخيرا، ينبغى النضال ضد محاولات الديموقراطيين البرجوازيين

لربط جماهير الفلاحين بهم عن طريق اصلاحات نصفية. يجب ان يطالب العمال بتحويل الاراضى المصادرة من الملاكين الاقطاعيين الى «ملكيـة الدولـة، لكى تصبح مستعمرات عمالية تستغلها البروليتاريا الريفية المتشاركة التى ستستخدم جميع مزايا الزراعة الكبيرة».

وعلى عكس الديموقراطيين البرجوازيين الصغار الذين ينادون بجمهورية اتحادية مع استقلال واستقلال ذاتى اوسع ما يمكن للمشاعات والاقاليم، ينبغى للعمال أن يدافعوا عن مطلب جمهورية ألمانية موحدة غير مجزأة وان يلحوا على تركيز شديد لجميع القوى فى أيدى سلطة الدولة.

ينبغى للعمال ان يسعوا وراء دفع الثورة ابعد ما يمكن الى الامام «وينبغى أن يكون شعارهم الكفاحى: «الثورة المستمرة»».

وقد وجدت فكرة الثورة المستمرة، الواردة فى «النداء»، تطويرها اللاحق فى نظرية لينين حول تحويل الثورة البرجوازية الديموقراطية الى الثورة الاشتراكية وفى استراتيجية وتكتيك الحزب البلشفى اللذين تأكدا اروع التأكد فى المعارك الثورية عام ١٩١٧.

ان العمل الدائب الذى قام به ماركس وأنجلس لاعادة انشاء «عصبة الشيوعيين» وتجديدها لم يلبث أن حمل ثماره. وقد استطاعا فى نداء اللجنة المركزية الثانى الى «عصبة الشيوعيين» (حزيران ـ يونيو ـ عام ١٨٥٠) أن اطلعا الجمهور، باسم اللجنة المركزية، على نجاحات المنظمة الجديدة. كان ماركس وأنجلس فى نضالهما فى سبيل انشاء حزب بروليتارى جماهيرى فى ألمانيا يبذلان جهدهما

للف خيرة العناصر الثورية للحركة العمالية الاممية حولهما. وقد أعلن النداء الثانى أن اللجنة المركزية للعصبة على الاتصال بالحزب الثورى الحقيقى للفرنسيين والمجريين والانكليز وذلك بواسطة مندوبيها الخاصين.

ولقد اشترك انجلس انشط الاشتراك فى هذا العمل الرامى الى تراص الثوريين البروليتاريين على النطاق العالمى. وقد تكلم غير مرة فى الاجتماعات الاممية فى لندن وكان على اتصال وثيق بالميثاقيين الثوريين الذين ناضل فى صفوفهم فى عامى ١٨٤٢ـ١٨٤٣.

وفى قضية تراص الثوريين البروليتاريين كان ماركس وانجلس يعيران دورا كبيرا للسان الحال الدورى الجديد الذى كرسا كثرة من جهدهما ووقتهما من أجل تحضير اصداره. ففى عام ١٨٥٠، صدرت ستة اعداد من مجلة «الجريدة الرينانية الجديدة. الحوليات الاقتصادية والسياسية». كانت المجلة تطبع فى هامبورغ وكان ماركس محررها. وقد نشرت المجلة، فيما نشرت، سلسلة من مقالات ماركس وانجلس المكرسة لنتائج ثورة عامى ١٨٤٨ـ١٨٤٩ فى فرنسا وألمانيا وكذلك تعليقاتهما واستعراضاتهما للوضع الدولى.

ويتضح من استعراضات الوضع الدولى الصادرة فى عددى شباط ـ فبراير ونيسان ـ ابريل ـ ان ماركس وأنجلس كانا يأملان فى نهضة ثورية جديدة فى ذلك الحين. بيد أنه قد صار جليا لهما منذ صيف عام ١٨٥٠ أن الوضع قد تغير تغيرا شديدا وان آمالهما فى قرب وقوع الثورة لا اساس واقعيا له. كانت الازمة الصناعية لعام ١٨٤٧ التى هيأت ثورة عام ١٨٤٨ قد فسحت

المجال لفترة جديدة من النهوض الصناعى العاصف. وقد شرح ماركس وأنجلس هذه الحقيقة بكل جلاء ووضوح فى «الاستعراض الدولى» الذى كتباه للعدد المزدوج الخامس والسادس من المجلة الصادر فى خريف ١٨٥٠.

وكتبا يقولان: «فى مرحلة الازدهار الصناعى العام، عندما تتطور القوى المنتجة للمجتمع البرجوازي تطورا باهرا، بقدر ما يمكن ذلك، على وجه العموم، فى نطاق العلاقات البرجوازية، لا يمكن حتى ان يدور الحديث بصدد ثورة حقيقية... **ان الثورة الجديدة ليست ممكنة الا عقب الازمة الجديدة. ولكن وقوع الثورة لا مناص منه شأنه شأن الأزمة**».

اخذ ماركس وأنجلس بالحسبان الظروف الموضوعية الجديدة وطالبا بشجاعة واستقامة تليقان بقادة البروليتاريا الحقيقيين، باعادة النظر فى تكتيك الحزب ايضا. وقد رأيا أنه لا بد من تغيير التكتيك فى المرحلة الراهنة طبقا للطور الجديد من النضال وذلك مع الحفاظ على الدوام بالخط الاستراتيجى الاساسى المعتمد على حتمية الثورة. لقد نضب معين ثورة عامي ١٨٤٨-١٨٤٩. ولذلك كان ينبغى الشروع بعمل طويل دقيق ومنهجى لجمع القوى وتحضيرها الدائب للثورة المقبلة التى تأجل موعدها الى ما بعد.

ان هذا الموقف الجديد لماركس وانجلس قد أثار تفاقم النضال فى داخل «عصبة الشيوعيين» وفى لجنتها المركزية. وقد قام قسم من اعضاء اللجنة المركزية، وعلى رأسهم ويليخ وشابر، بتأييد من عدد كبير من اعضاء العصبة فى لندن، ضد ماركس وأنجلس. وتلك الكتلة كانت القسم الانتهازى «اليسارى» العاجز عن مواصلة النضال البروليتارى الدائب

فى الظروف الصعبة الملازمة لمرحلة جزر موجة الثورة. وكانت تعكس امزجة فراغ الصبر عند البرجوازية الصغيرة اذ طرحت القضية على النحو التالى: اما الثورة فورا واما الارفضاض «للاستراحة» (كلمات شابر). كانوا لا يأخذون بعين الاعتبار الشروط الموضوعية ولا يفهمون التبدلات الجذرية الطارئة على الوضع فكانوا يدعون الى التمرد المسلح الفورى، مقتنعين اعتقاد الفوضويين والمغامرين أنه يمكن «اشعال نار» الثورة فى كل لحظة. وما كان كل ذلك الا اللعب الاشد خطرا وضررا، «اللعب بالثورة»، اللت الثورى بدلا من النشاط الثورى الجدى.

ولقد انتقد ماركس آراء هذه المعارضة انتقادا شديدا وصرح فى جلسة اللجنة المركزية فى ١٥ ايلول – سبتمبر – ١٨٥٠ يقول:

«ان الاقلية تضع مفاهيم عقائدية مكان المفاهيم الانتقادية كما تضع المفاهيم المثالية مكان المفاهيم المادية. لقد صارت، بالنسبة لهذه الاقلية، **الارادة البسيطة** هى القوة المحركة للثورة بدلا من العلاقات القائمة فى الواقع. وبينا نقول للعمال: «لا بد لكم من أن تقطعوا ١٥، ٢٠، ٥٠ عاما من الحرب الأهلية والكفاحات العالمية لا لتغيير الوضع القائم فحسب، بل لتغيير أنفسكم حتى تصيروا أكفاء للسلطة السياسية»، فانكم تقولون لهم على العكس: «يجب أن نصل فورا الى السلطة، والا فما علينا الا أن نغط فى سبات عميق»».

وتجدر الاشارة الى ان كتلة ويليخ – شابر «اليسارية»، فى سعيها وراء نجاح فورى مباشر، وفى بحثها عن حلفاء لتنظيم «الفتن»، كانت على أهبة مساومات

عديمة المبادئ مع الديموقراطيين البرجوازيين الصغار والاتحاد معهم تنظيميا. وعلى هذا الصعيد، جرت بعض المخاصمات بين ماركس وانجلس من جهة، وويليخ من جهة اخرى.

وفى ايلول - سبتمبر - ١٨٥٠، اشتد الصراع الى اقصى حد مع كتلة ويليخ - شابر التى سلكت طريق الافتراءات والتشهير بماركس وانجلس. وبلغ الامر حتى حدوث مبارزة بين عضوين فى اللجنة المركزية للعصبة هما شرام وويليخ.

ولكن الخاتمة كانت قريبة: ففى ١٥ من شهر ايلول - سبتمبر - حدث الانقسام اثناء جلسة اللجنة المركزية بعد مناقشات حادة وبعد تحطيم المعارضة من قبل ماركس. واقرت اكثرية اللجنة المركزية التى ظلت وفية لماركس وأنجلس نقل مقر اللجنة المركزية «لعصبة الشيوعيين» الى كولونيا وتكليف لجنة كولونيا الاقليمية بصلاحيات اللجنة المركزية. تم ذلك بدافع من ضرورة عزل الادارة المركزية للعصبة عن تأثير انصار ويليخ وشابر الكثيرين فى لندن.

فى السنوات الاولى بعد ثورة عامى ١٨٤٨-١٨٤٩ رأى ماركس وانجلس واحدة من اهم مهماتهما النظرية فى تحليل دروس هذه الثورة وتعميم التجربة الجديدة المكتسبة خلال النضال الثورى. ولقد كرس ماركس لهذا الغرض مؤلفيه «النضال الطبقى فى فرنسا ١٨٤٨ - ١٨٥٠» و«١٨ برومير للويس بونابارت»، كما كرس أنجلس ايضا له مؤلفيه «حرب الفلاحين فى ألمانيا» و«الثورة والثورة المعاكسة فى ألمانيا».

وهذه تآليف تشهد شهادة بليغة على أن الماركسية، بوصفها مذهبا حيا خلاقا، كانت تتشكل وتتطور مرتبطة ارتباطا وثيقا بالنشاط العملى الثورى. وان ماركس وأنجلس بتعميمهما تجربة نضالات البروليتاريا والجماهير الكادحة خلال تلك الحقبة الثورية العاصفة، التى كانت قد تجلت فيها باقصى قوة روح المبادرة والنشاط عند الجماهير الشعبية ودورها الخلاق فى عملية التاريخ، قد أغنيا مذهبهما باستنتاجات جديدة بالغة الاهمية.

وقد أشار ماركس بقوة فى «النضال الطبقى فى فرنسا» (عام ١٨٥٠) الى أن أهم درس من ثورة **١٨٤٨-١٨٤٩** يكمن فى تأكيد الحكم الاساسى الوارد فى «بيان الحزب الشيوعى» حول الثورة البروليتارية وديكتاتورية البروليتاريا.

وعلى الاشتراكية الطوباوية البرجوازية الصغيرة التى منيت بالافلاس السياسى فى مجرى الثورة والتى كان اتباعها ينكرون صراع الطبقات، بحسب «عقائدهم»، انهال ماركس بسوط الانتقاد وعارضها بالاشتراكية الثورية، بالشيوعية التى لم تكن سوى «**اعلان الثورة المستمرة، والديكتاتورية الطبقية** للبروليتاريا كمرحلة انتقال ضرورية **لتصفية الفوارق الطبقية بصورة عامة**، لتصفية جميع العلاقات الانتاجية التى تقوم عليها هذه الفوارق، لتصفية جميع العلاقات الاجتماعية التى تطابق هذه العلاقات الانتاجية، لاجراء انقلاب فى جميع الافكار المنطلقة من هذه العلاقات الاجتماعية».*

---

* ماركس، «النضال الطبقى فى فرنسا ١٨٤٨-١٨٥٠».

لقد اتاحت تجربة ثورات ١٨٤٨-١٨٤٩ لماركس وأنجلس تطوير نظريتهما عن الدولة واضفاء طابع ملموس واضح عليها. وقد توصل ماركس فى كتابه «١٨ برومير للويس بونابارت» (عام ١٨٥٢)، فى سياق حديثه عن آلة الدولة القديمة، الى الاستنتاج الهام التالى:

«ان جميع الانقلابات قد حسنت هذه الآلة بدلا من ان تحطمها».

استشهد لينين بهذه الكلمات فكتب بدوره يقول: «فى هذه العبارات الرائعة تخطو الماركسية خطوة كبرى الى الامام بالمقارنة مع «البيان الشيوعى». ففى «البيان الشيوعى» طرحت مسألة الدولة بصورة مجردة للغاية وبمفاهيم وتعابير عامة جدا. وهنا تطرح المسألة بصورة ملموسة ويستخلص الاستنتاج فى منتهى الدقة والوضوح وملموس حسيا: جميع الثورات السابقة قد حسنت آلة الدولة فى حين ينبغى تحطيمها وتكسيرها.

ان هذا الاستنتاج هو الاستنتاج الرئيسى الاساسى فى تعاليم الماركسية عن الدولة»*.

وقد أعار ماركس فى «النضال الطبقى فى فرنسا» وفى «١٨ برومير للويس بونابارت» اهتماما عظيما لمسألة العلاقات بين البروليتاريا والفلاحين وحلل الاسباب التى من أجلها لم تستطع البروليتاريا أن تجذب الفلاحين الى جانبها فاسفرت عن ذلك هزيمة الثورة. ويشرح ماركس ان مصالح الفلاحين المفهومة فهما صحيحا لا بد لها من أن تدفعهم الى التحالف مع بروليتاريا المدن. «ان الفلاحين...

---

* لينين، «الدولة والثورة». الطبعة العربية. موسكو. ص ٣٢.

يجدون حليفهم وقائدهم الطبيعى فى **بروليتاريا المدن** المدعوة الى الاطاحة بالنظام البرجوازى». وكان ماركس قد طور هذا الاستنتاج السياسي الهام الذى استخلصه من دروس ثورة عامى ١٨٤٨–١٨٤٩، فى رسالته الى انجلس المؤرخة فى ١٦ نيسان – أبريل – ١٨٥٦ اذ كتب يقول: «كل شيء فى ألمانيا سيتوقف على امكانية دعم الثورة البروليتارية بطبعة ما جديدة لحرب الفلاحين».

وقد طور لينين هذه الفكرة العميقة فيما بعد وجعلها نظرية جديدة للثورة الاشتراكية التى تحققها لا البروليتاريا المنعزلة بل البروليتاريا المتزعمة التى لها حلفاء فى شخص العناصر نصف البروليتارية من السكان وفى شخص ملايين الجماهير الكادحة والمستغلة.

وانه لمفهوم ذلك الاهتمام البالغ الذى اعاره انجلس ايضا لمسألة الفلاحين. ففى العدد الأخير، المزدوج من «الحوليات» (٥–٦) الصادر فى تشرين الثانى – نوفمبر – ١٨٥٠، نشر بحثه التاريخى «حرب الفلاحين فى ألمانيا».

فى هذا المؤلف، حلل انجلس، على اساس المفهوم المادى للتاريخ، اسباب انتفاضة الفلاحين المعادية للاقطاعية فى المانيا عام ١٥٢٥ وسيرها ونتائجها. صحيح ان هذا البحث كان تحليلا عميقا للماضى التاريخى البعيد، الا انه لم يكن مع ذلك تحليلا مجردا، «اكاديميا»، بعيدا عن عواصف المصارعة السياسية الراهنة. وكان هذا البحث، بالنسبة لانجلس، وسيلة للاشارة بكل قوة الى دور واهمية الفلاحين فى صراع الطبقات والى واجب البروليتاريا الثورية خوض النضال من اجل الاشراف على جماهير الفلاحين.

واستنادا الى الوقائع التاريخية للنضال الطبقى فى

عام ١٥٢٥، يفسر انجلس للجماهير دروس المعارك الثورية فى عامى ١٨٤٨ـ١٨٤٩. وقد بين أن هزيمة انتفاضات الفلاحين كانت من جملة اسبابها خيانة «البورغير» ـ أسلاف البرجوازيين المعاصرين، والتجزئة السياسية للبلاد، والانفراد المحلى الذى ادى الى وقوع مئات الانتفاضات المحلية التى سحقتها الرجعية واحدة واحدة، بدلا من القيام حركة واحدة تشمل عموم المانيا.

وقد ذكر أنجلس فى كتابه للشعب الالمانى تقاليده الثورية واستعرض الشخصيات القوية فى حرب الفلاحين الكبيرة. وكتب يقول: «فى ذلك الوقت ابرزت ألمانيا رجالات يمكن أن يقارنوا بخيرة ثوريى البلدان الأخرى، وأظهر الشعب الألمانى تجلدا وهمة لو كانا فى أمة موحدة لاعطيا أعظم النتائج، وتولدت فى خواطر الفلاحين والعامة الألمان تلك الأفكار والمشاريع التى ما يزال خلفهم يرتاع منها اليوم»*.

أما كتاب انجلس «الثورة والثورة المعاكسة فى ألمانيا» (١٨٥١ـ١٨٥٢) فكان ايضا مكرسا لاستخلاص نتائج المعارك الثورية فى عامى ١٨٤٨ـ١٨٤٩. لقد كان أنجلس، بفضل امتلاكه ناصية اسلوب المادية التاريخية ومعرفته وفهمه العميقة للحوادث التى كتبها اذ كان مشتركا مباشرا فيها، قادرا على ان يقدم على الفور تحليلا رائعا لممهدات الثورة الالمانية لعامى ١٨٤٨ـ١٨٤٩، ولقواها المحركة وأطوارها الاساسية، والوضع الدولى ونتائج الثورة ودروسها.

---

* انجلس، «حرب الفلاحين فى المانيا».

وفى هذا التأليف، شغلت مكان الصدارة المسائل المتعلقة بالانتفاضة المسلحة. أما الدروس التى استخلصها من النضال المسلح ابان عامى ١٨٤٨-١٨٤٩ وعممها فى هذا التأليف، فقد دخلت للابد فى كنز استراتيجية والتكتيك العلميين البروليتاريين.

ان كتاب أنجلس هذا يحتوى الصيغة الكلاسيكية للتعليم الماركسى حول الانتفاضة المسلحة بوصفها فنا، ويبين باقصى الوضوح «القواعد» الاساسية التى يجب على البروليتاريا أن تسترشد بها لاحراز النصر على العدو: «ان الانتفاضة هى الفن مثله مثل الحرب وغيره من انواع الفن. وهو خاضع لبعض القواعد التى يؤول نسيانها الى هلاك الحزب المذنب بعدم مراعاتها... أولا: يجب ألا يجازف بالانتفاضة اذا لم يتوافر العزم على السير الى النهاية... ثانيا: ما دامت الانتفاضة قد انفجرت، يجب العمل باكبر الحزم والانتقال الى الهجوم. ان الدفاع هو الموت لكل تمرد مسلح؛ وهو خاسر فى موقف الدفاع قبل الصدام مع العدو. يجب مهاجمة العدو بغتة حينما تكون قواه مبعثرة؛ ولا بد من احراز نجاحات جديدة يوميا وان كانت صغيرة؛ ويجب الحفاظ على التفوق المعنوى الذى تعطيك اياه اول حركة ناجحة يقوم بها المتمردون. وينبغى جذب الى جانب التمرد تلك العناصر المترددة التى تتبع دائما اقوى الطرفين وتقف دائما الى جانب الطرف الموثوق اكثر. ويجب ارغام العدو على الانسحاب قبل أن يتمكن من حشد قواه ليلقيها ضدك».

قبل العزم على الانتفاضة يجب تقدير الوضع السياسى والعسكرى تقديرا سليما. ولكن حالما يتقرر الانتفاضة ويبدا

اعدادها، يجب اعتبارها **فنا** والعمل باعظم الحزم والجرأة وباندفاع هجومى لا انقطاع فيه.

ان هذه النظرية الماركسية عن الانتفاضة المسلحة قد طورها لينين فيما بعد، على أساس تجربة نضال البروليتاريا المسلح اللاحق ولا سيما تجربة تمرد كانون الاول – ديسمبر – ١٩٠٥ فى موسكو. وفى عام ١٩١٧، خلال أيام اكتوبر الحاسمة، استطاع الحزب البلشفى أن يعطى نموذجا كلاسيكيا لاعداد الانتفاضة المسلحة الظافرة واجرائها.

كان ماركس وأنجلس الى جانب نشاطاتهما النظرية يتابعان العمل الدائب لرص وتربية ملاكات الثوريين البروليتاريين.

كانت «عصبة الشيوعيين» بعد انشقاق ايلول – سبتمبر – ١٨٥٠ تجتاز مرحلة عصيبة جدا: فقد أضيفت ملاحقات الشرطة الى النشاط التخريبى من جانب ويليخ وشابر وأتباعهما. وفى أيار – مايو – ١٨٥١ اعتقل فى ألمانيا فريق من ابرز المناضلين لعصبة الشيوعيين وشرعت الحكومة، بمساعدة عملائها الاستفزازيين من الشرطة تعد محاكمة ملفقة ضد الشيوعيين المعتقلين.

وقد قام ماركس بمساعدة أنجلس بنشاط شديد بمناسبة هذه المحاكمة. فكتبا فى بعض الصحف الانكليزية والالمانية فاضحين استفزازات وتلفيقات عميل الشرطة البروسية شتيبر وجمعا فى الوقت نفسه الوثائق الضرورية للدفاع عن المتهمين.

كانت كتلة ويليخ وشابر واللاجئون البرجوازيون الصغار الذين يتبعونهما لا يفتأون فى غضون ذلك يسددون الافتراءات ضد ماركس وانجلس.

وقد نشر ماركس وانجلس مقالا سخريا فى ايار–مايو –حزيران – يونيو –١٨٥٢ عنوانه: «كبار اللاجئين» يرسم لوحة قاضية عن القادة البرجوازيين الصغار اللاجئين فى لندن الذين كانوا يثرثرون بدلا من القيام بنشاط ثورى حقيقى.

وفى تشرين الاول – اكتوبر – وتشرين الثانى – نوفمبر – ١٨٥٢ جرت فى كولونيا محاكمة احد عشر عضوا فى «عصبة الشيوعيين»، حكم على سبعة منهم بالسجن مددا مختلفة. وقد كشف ماركس الوسائل الدنيئة التى التجأت اليها الحكومة البروسية لتلفيق المحاكمة، وفضحها فى كراس «اضواء على محاكمة الشيوعيين فى كولونيا» ونشر أنجلس مقالا فى «نيويورك تريبون» عنوانه: «محاكمة الشيوعيين فى كولونيا».

كانت اعتقالات الشيوعيين فى المانيا ثم هذه المحاكمة فى كولونيا قد أنزلت ضربة قاضية «بعصبة الشيوعيين». فانقطعت اتصالات وروابط فريق لندن الذى يديره ماركس وأنجلس مع اوروبا. وكفت العصبة عن الوجود فى الواقع. وفى اواسط شهر تشرين الثانى – نوفمبر –١٨٥٢ أعلنت حل نفسها بناء على اقتراح قدمه ماركس.

صحيح ان «عصبة الشيوعيين» كانت مضطرة الى حل نفسها تحت ضربات الرجعية والملاحقات الحكومية ولكنها قد تركت آثارا لا تمحى فى تاريخ الحركة العمالية بصفتها جنين الحزب البروليتارى وبصفتها منظمة كان برنامجها «بيان الحزب الشيوعى» الخالد. وحتى بعد انحلالها واصل خيرة ممثلى الطبقة العاملة الذين رباهم ماركس وأنجلس نشاطهم الحزبى لنشر المذهب الثورى ولتربية جماهير العمال واعدادها للمعارك الثورية القادمة.

٦

أنجلس فى مرحلة سيطرة الرجعية والنهوض الجديد فى الحركات البرجوازية الديموقراطية

بعد انتصار الرجعية قامت فى وجه ماركس وأنجلس مصاعب فائقة العادة لمواصلة نشاطهما النظرى والسياسى الحزبى. لقد انهالت عليهما جميع انواع ويلات المنفى والمتاعب المادية. كان المجتمع البرجوازى ينتقم من زعيمى البروليتاريا ويحرمهما من أبسط شروط الوجود. واذا كان العمل الصحافى قد اتاح لانجلس ان يسد رمقه نوعا، فان ذلك كان مستحيلا لماركس اذ كانت لديه أسرة. ان عدم ثبات معاشات الصحافى البروليتارى فى ظروف انعدام صحافة عمالية انعداما كليا تقريبا كان من شأنه ان يؤول لا الى هلاك عبقرية ماركس وحسب اذ يحرمه من كل امكانية للنشاط النظرى والسياسى، بل ويقضى عليه وعائلته بالموت تحت وطأة البؤس.

وما من تضحية لم يوافق عليها انجلس فى هذه الظروف لكى يمهد الطريق لعبقرية ماركس ويحفظ للبروليتاريا زعيمها.

وفى الظروف الناشئة، لم يجد انجلس مخرجا آخر لمساعدة صديقه غير العودة الى المكتب، الى «التجارة اللعينة»، فرجع اليها مذعنا غير شاك ولا متأفف. أما ماركس فقد قبل بنفس البساطة هذا البرهان العظيم على

تفانى أخيه فى السلاح. وبالفعل، كانا ما يزالان يناضلان جنبا الى جنب فى سبيل القضية التى نذرا لها حياتهما. فان الظروف الجديدة لم ترغمهما الا على أن يتقاسما عبء المهمة المشتركة بشكل جديد. وأنجلس الذى كان يعترف دائما بتفوق عبقرية ماركس ويجلها، رأى من الطبيعى ان يكلف نفسه بأعباء قسم كبير من المتاعب المادية التى يعانيها ماركس واسرته وذلك ليتيح له مواصلة نشاطه النظرى والسياسى.

وما ان أتخذ القرار بعودة انجلس الى المكتب التجارى حتى ذهب للاستقرار فى مانشستر وصارت شركة «ايرمن وأنجلس» تراه مجددا فى مكتبها ابتداء من تشرين الثانى – نوفمبر – ١٨٥٠.

ان عودة أنجلس الى المكتب ومشاغل ماركس الدائبة فى مكتبة المتحف البريطانى قد أثارت سيلا من الافتراءات بحقهما من قبل اللاجئين البرجوازيين الصغار الذين استمروا فى اللعب «باللجان الاوروبية» و«بالحكومات الموقتة» والذين نظموا «الاقتراض الثورى» من اميركا لاشعال نار الثورة حالا، والخ.. ان رسائل ماركس وأنجلس التى يعود تاريخها الى تلك الحقبة تروى لنا، مثلا، أن «الاخوان اللاجئين» فى شخص روغه وويليخ وغيرهما أخذوا يحملون باشد فظاظة على ماركس وانجلس زاعمين انهما «وحيدان ومخذولان من لدن الجميع» كما لم يتورعوا عن اتهام أنجلس «بالمتاجرة».

ولكن ادراك أنجلس بانه يؤدى واجبه، كان يحميه من هذه الوخزات فكان يسعى جهده لتهدئة حنق ماركس وحثه على ألاّ يعير اهتماما ل«مدرسة الافتراء والدناية»

اللاجئية وان يتجاهل هذه الهجمات اذ « اننا تحملنا، والحمد لله، هجمات اشد من هذه ». كان أنجلس يعتقد أنه اذا سهل لماركس عمله فى كتابة « رأس المال » اسهم فى انتصار الثورة البروليتارية اكثر من كل فرسان الجمل الثورية البرجوازيين الصغار. ولكنه كان يأمل، مع ذلك، بانه لن يمكث وقتا طويلا يحمل عبء « التجارة المقيتة »، مقتنعا بأن النهوض الصناعى سيعقبه عما قريب أزمة كبيرة تجر وراءها عاصفة ثورية جديدة.

غير ان هذه الآمال فى وقوع الثورة التى ستدعوه هو وماركس الى منصبيهما الثوريين الكفاحيين لم يقدر لها ان تتحقق. ولذلك دام « اسره المصرى » عشرين سنة تقريبا. بدأ عمله بصفته مستخدما فى مكتب شركة الغزل وصار منذ ١٨٦٠ وكيلا لها وفى عام ١٨٦٤ أصبح مساهما فيها.

كان وضعه يضطره الى العيش فى وسط غريب على عقليته والى مراعاة القواعد التى كان يمقتها، والى أن يحيا، بالتالى، حياة مزدوجة. ففى البيت فقط، قرب زوجته مارى بورنز العاملة الارلندية البسيطة، التى عشقها منذ أول اقامته فى مانشستر، كان يجد الراحة بالتحادث مع رفاقه الشيوعيين من مانشستر وولف ومور وشورلمر أو مع قادة الجناح اليسارى من حركة الميثاق. كانت زوجته ودودة مخلصة، فكانت له سندا معنويا ومعينا فى العزاء خلال تلك الفترة القاسية من حياته.

وحينما توفيت فى ٦ كانون الثانى – يناير – ١٨٦٣ بمرض القلب بقى قلبه لا يجد له عزاء. كتب لماركس رسالة يشتكى له فيها قائلا: « لا يمكن للمرء، اذا عاش

طويلا مع زوجته، ألا يحزن حزنا شديدا لفقدها. كنت أشعر انني أدفن معها آخر بقية من شبابي».

وبالرغم من ان ماركس وأنجلس كانا مضطرين الى أن يعيشا عشرين سنة بعيدين احدهما عن الآخر، الا أن صداقتهما التي ليس لها نظير في التاريخ، قد تثبتت خلال هذه الفترة. صحيح انه لا يندر لهما ان يعربا عن اسفهما لانهما ما عادا يتمكنان «من العيش والعمل والضحك جنبا الى جنب».

كان ماركس نادرا ما يجد امكانية الذهاب الى مانشستر، كما لا يجد أنجلس سبيلا الى الذهاب الى لندن، ولكن التراسل بينهما كان شديداً. كان يكفي أن يتأخر أنجلس في الجواب حتى ينفد صبر ماركس ويقلق: «يا عزيزي أنجلس! أأنت تبكي أم تضحك؟ أأنت تنام أم تسهر؟» وبفضل هذا الفراق الطويل الامد بين مؤسسي الشيوعية العلمية واضطرارهما الى اقامة الصلة بينهما عن طريق الرسائل بصورة رئيسية، وصلت الينا تلك المراسلات الوفيرة التي هي نوع من مختبر خلاق لهما ودرة في تراثهما الأدبي كله.

ما كان هناك من فرع علمي أو سياسي لم يعالجاه في هذه المراسلات. كانا يناقشان في رسائلهما مختلف المسائل: الفلسفة وعلوم الطبيعة، الاقتصاد السياسي والاشتراكية، التاريخ وعلم اللغة، الرياضيات والتكنيك، الفن العسكري والادب وكانا يفعلان ذلك بعمق كبير بحيث ان جملة واحدة أو ملاحظة صغيرة تكون في كثير من الاحيان مفتاحا لفهم علمي حقيقي لمجموعة كاملة من القضايا المعقدة.

كان ماركس وأنجلس لا يقتصران على المسائل العلمية

الصرف فكانا يتناولان فى مراسلاتهما سياسة الطبقة العاملة وستراتيجية الصراع الطبقى وتكتيكه، ومشكلة النضال فى سبيل حزب بروليتارى. وهذه المراسلات هى اخيرا كنز فائق الغنى لدراسة الحياة الاقتصادية والسياسة الدولية والحركة العمالية فى تلك الحقبة من الزمن.

وقد كتب لينين عن مراسلات ماركس وانجلس يقول ان «قيمتها العلمية والسياسية هائلة. فليس ماركس وانجلس هما اللذان يبدوان وحدهما فى هذه الرسائل، امام القارئ، ويبرزان بخاصة، بكل عظمتهما. فان محتوى الماركسية النظرى الفائق الغنى يبرز فى هذه الرسائل بوضوح أخاذ، لأن ماركس وانجلس يعودان مرارا عديدة فى هذه الرسائل الى شتى نواحى مذهبهما؛ وهما يلاحظان وينيران ـ احيانا بالمناقشة او باقناع احدهما الآخر ـ ما هو جديد (بالنسبة للمفاهيم السابقة)، واهم واصعب...

واذا حاولنا ان نعرّف بكلمة واحدة، اذا جاز القول، مركز كل المراسلات، ـ النقطة المركزية التى تلتقى فيها كل اشعة الافكار المطروحة والمدروسة، كانت هذه الكلمة كلمة **الديالكتيك**. فان تطبيق الديالكتيك المادى على الاقتصاد السياسى، قصد تعديله برمته، وعلى التاريخ، والعلوم الطبيعية، والفلسفة، وسياسة الطبقة العاملة وخطتها، ـ هو ما يهتم له ماركس وانجلس اشد الاهتمام؛ وهما فى هذا الحقل يقدمان خيرما هو جوهرى وجديد؛ وفى ذلك قوام خطوتهما العبقرية الى امام فى تاريخ الفكر الثورى» *.

ان ما يميز ايضا هذه المراسلات هو روح التفاؤل

---

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٧٨ـ٧٩.

والكفاح. فعلى الرغم من تعرض ماركس وانجلس لملاحقات الاعداء وليسيول الاكاذيب والافتراءات من قبل الصحافة البرجوازية، وعلى الرغم من اضطرارهما الى خوض نضال تافه ولكنه مضن فى سبيل الوجود، ما كانت لتغيب عنهما ابدا الحيوية وروح الفكاهة وارادة النضال التى لا تقهر.

بعد ما أعاد أنجلس قراءة هذه الرسائل حين تفحص ورتب تراث ماركس الأدبى كتب لبيكر يقول: «لقد انبعثت امامى تلك الازمنة السالفة وتلك اللحظات الدعبة التى عشناها على حساب خصومنا. ان تلك الحوادث القديمة تضحكنى ضحكا شديدا. ان روح الفكاهة هى الشىء الذى لم يستطع خصومنا أن يجردونا منه».

وحينما أطلق أحد الكتاب على ماركس فى مقال له بعد وفاة ماركس لقب «ماركس التعيس»، كتب أنجلس بهذه المناسبة لبرنشتاين يقول: «ربما، حين اكون داعب المزاج بصورة خاصة سأريه. لو قدر لهؤلاء الحمير أن يقرأوا المراسلات بينى وبين «موهر» لدهشوا كثيرا. ان شعر هاينه ليس سوى لعبة صبيان اذا قورن بنثرنا الجرىء الطافح بالحياة. كان «موهر» قد يستبد به الغيظ أما أن يبكى فابدا!»

ان مراسلات ماركس وأنجلس تعطى مادة غنية عن دورهما كواضعى نظرية وكقائدين للبروليتاريا وكابرز رجلين فى عصرهما يثيران الدهشة والاعجاب بقوة ذكائهما الوقاد وهمتهما العظيمة وسعيهما الدائب الى الهدف. واخيرا، تعطى المراسلات وحدها لوحة مؤثرة عن الكفاح المضنى المستمر الذى كان ماركس – عبقرى البروليتاريا – مضطرا الى أن يخوضه كل يوم كيلا يرزح تحت كابوس البؤس:

ان المراسلات فقط تعطى القارئ الصورة الرائعة لصديق ماركس النزيه الوفى الذى هو فريدريك أنجلس.

ففى الوقت الذى كان أنجلس فيه يعمل كاتبا تجاريا بسيطا، لم تكن أجرته لتتيح له أن يساعد ماركس مساعدة كافية. كانت الحاجة تخنق ماركس، بكل معنى الكلمة، فكان يرى نفسه وأسرته محرومين من أكثر الاشياء ضرورة، وكان غرض حملات دائمة من لدن الدائنين، فكان صاحب المسكن واصحاب الحوانيت المجاورة يتكالبون على ملاحقته. كان البؤس ينتزع أولاده الاعزاء عليه واحدا تلو الآخر، وقد نزلت به اقسى الضربات حين اختطف الموت ابنه «موش» وكان بهجة البيت. لم يدخر أنجلس تضحية عن انقاذ الصبى ولكن حم القضاء ووقعت الفاجعة ولم يجد كل ذلك فتيلا. كتب ماركس يحكى لانجلس عن سير مرض ابنه الحبيب فقال: «لا اعرف كيف اشكرك على صداقتك، وعلى العمل الذى تقوم به بدلا منى، وعلى العطف الذى أظهرته للولد».

وبعدما دفن ماركس ابنه، كتب لانجلس يقول: «سبق أن مررت بجميع اصناف الآلام الا اننى الآن فقط عرفت ما هى المصيبة الحقيقية... ففى غمرة العذابات الفظيعة التى مررت بها فى هذه الايام كان تفكيرى بك وبصداقتك وأملى باننا الاثنين سنقدر على ان نعمل شيئا ذا شأن على هذه الأرض، هو الذى شد من أزرى دائما».

كان أنجلس يتألم ألما شديدا لعجزه عن تخفيف شقاء ماركس وأسرته. ولذا حينما سنحت له الفرصة أن يهب لمساعدة ماركس ماديا عن طريق توفير امكانية العمل الادبى له، تلقف الفرصة بكل قواه. ففى شهر آب-أغسطس-

١٨٥١ تلقى ماركس من جريدة « نيويورك تريبون » وهى جريدة أمريكية تقدمية، اقتراحا بالكتابة لها، فتوجه الى صديقه انجلس بهذا الطلب: « أما فيما يتعلق « بنيويورك تريبون » فيجب عليك أن تقدم لى يد العون، وذلك فى هذه اللحظة التى غرقت فيها حتى أذنى فى الاقتصاد السياسى اكتب سلسلة من المقالات عن ألمانيا ابتداء من ١٨٤٨ ». وانكب انجلس حالا على هذا العمل وشرع يرسل بانتظام الى ماركس مقالا تلو آخر وكان ماركس يسلمها الى « نيويورك تريبون ». وهكذا رأت النور سلسلة شهيرة من المقالات: « الثورة والثورة المعاكسة فى المانيا ». ولم يعرف ان مؤلف هذه المقالات هو انجلس لا ماركس الا بعد نشر المراسلات.

وفضلا عن عدد كبير من المقالات التى ألفها انجلس عوضا عن ماركس لجريدة « نيويورك تريبون » كان انجلس يساعد صديقه بترجمة مقالات ماركس بالذات الى اللغة الانكليزية (فقد كان ماركس غير ضليع آنذاك بالانكليزية ولم يتملك ناصية الكتابة بها مباشرة الا فى عام ١٨٥٣). وفى عداد المقالات الكثيرة جدا التى ارسلها ماركس الى « نيويورك تريبون » فى غضون بضع سنوات، كان الثلث على أقل تقدير من قلم أنجلس. لقد حددا تقسيم العمل فيما بينهما: فكان أنجلس يعالج بشكل خاص المسائل العسكرية بينما كان ماركس مختصا بالسياسة الخارجية.

على انه، بالرغم من العمل الادبى الكبير الذى قام به ماركس لـ« نيويورك تريبون » بمساعدة انجلس، لم تكن مداخيله كافية لسد حاجات معيشته. وقد كان دانا، محرر الجريدة، يستغل ماركس على عادة الرأسماليين فكان يخفض

بجميع الوسائل أجوره الادبية حتى انتهى به الامر الى اقتطاع نصف أجوره، فساءت حالة ماركس المادية من جديد.

ففى هذه الحقبة الصعبة لماركس، دعاه دانا هذا نفسه للعمل فى الموسوعة الامريكية التى كان يقوم باصدارها. صحيح ان هذا العمل لم يكن شيقا، فى اغلبيته على الاقل، الا ان انجلس وافق بسرور على الاشتراك فيه اذ رأى فى ذلك فرصة سانحة لمؤازرة ماركس. وبما أن أنجلس كان يشتغل نهارا فى المكتب، تعين عليه ان يشتغل من أجل الموسوعة الى ساعة متأخرة من الليل. ومن جراء ذلك، نوى ماركس غير مرة لو أن يبعث بكل هذا العمل «الى الشيطان». ولكنه هو أيضا كان يكتب طوال الليالى لكيلا ينصرف عن عمله فى موضوع الاقتصاد الذى رأى فيه مذ ذاك هدف حياته الرئيسى.

كان أنجلس لا يساعد ماركس فى نشاطه الصحفى وحسب. فقدكان ماركس يستفسر صديقه فى مختلف الاسئلة النظرية فكان يتلقى دائما اجوبة ناضجة وشاملة و«مدبرة» بشكل خاص. وكان ماركس فى بعض الأحيان يدرجها بكاملها فى نصوصه بدون أى تغيير.

واذا كان انجلس يساعد ماركس فى اعماله النظرية، فان ماركس، من جانبه، كان يساعد صديقه بالافضاء اليه بأفكاره حول المسائل النظرية التى تهم انجلس ولا يندر ان كان ماركس يغرق فى قاعات مكتبة المتحف البريطانى اياما كاملة فى التنقيب فى الكتب للبحث عن مواد يحتاج اليها انجلس بهذه المسألة الخاصة او تلك من العلوم العسكرية والتاريخ والادب واللغة، والخ..

ومن بين اعمال انجلس النظرية التى تعود الى حقبة



كارل ماركس وفريدريك انجلس وبنات ماركس (من اليسار الى اليمين) جيني وايليونور ولاورا (في سنوات العقد السابع)

اقامته فى مانشستر، تشغل مكان الصدارة دراسات فى العلوم العسكرية التى كان قد شغف بها خلال خدمته العسكرية فى برلين. فان حاجات النضال الثورى خلال عامى ١٨٤٨ــ ١٨٤٩ جعلته ينصرف عن كثب الى دراسة المسائل العسكرية وبالدرجة الاولى مسائل الانتفاضة المسلحة. وخلال اقامته بمانشستر، كان انجلس يشتغل بالعلوم العسكرية بدأب وانتظام وتعمق.

وبدرجة ما، كان يقوم بذلك من أجل مساعدة ماركس فى اعماله لـ «نيويورك تريبون» والموسوعة الاميركية. بيد أن الشيء الرئيسى الذى دفعه الى دراسة العلوم العسكرية الدراسة الدائبة هو ادراكه الواضح لذلك الدور العظيم الذى سوف تضطلع به مسائل الحرب والكفاح المسلح فى الثورة العتيدة. كان انجلس، اذ انكب على دراسة العلوم العسكرية، يكرس لذلك حتى ساعات فراغه. فان الفروسية التى شغف بها كثيرا منذ صباه كانت قد اتخذت معنى جديدا فى نظره. كانت تمارين انجلس فى قفزات العوائق التى يقوم بها على متن الجواد تقلق ماركس كثيرا فكتب لصديقه يقول: «لا تقم بقفزات مبالغة فى الخطر اذ أنه سوف تسنح لنا عما قريب فرص اهم للمخاطرة برأسينا». فاجابه أنجلس ان الفروسية بالنسبة له هى الاساس المادى لكل دراساته العسكرية. «وعلى كل حال، اطمئن بالا. فاذا اندقت عنقى فلن يكون هذا بالسقوط عن جوادى».

كان أنجلس عدوا لدودا لكل معارف سطحية ولذا وقف من المسائل العسكرية لا موقف هاو بل موقف رجل جدى اعتاد استيعاب القضية التى قرر ان ينكب عليها حتى «ادق تفاصيلها». وقد كلف نفسه فى البداية بمهمة

استيعاب المعارف الضرورية للامتحان من اجل الحصول على رتبة ضابط فى مختلف انواع الاسلحة.

ففى عام ١٨٥١، قدم انجلس برهانا مدهشا على النتائج العظيمة التى توصل اليها فى دراسة العلوم العسكرية خلال الاشهر الاولى من اقامته فى مانشستر. وفى مخطوطته التى لم تتم، والمكرسة للنتائج الممكنة لحرب الحلف المقدس ضد فرنسا، فى حالة ظفر الثورة فى عام ١٨٥٢، قدم أنجلس لوحة عن تاريخ الفن العسكرى ابتداء من حروب الثورة البرجوازية الفرنسية فى اواخر القرن ال١٨ ورسم آفاق تطور هذا الفن خلال الثورة البروليتارية وبعدها.

ولقد رسم انجلس صورة نبوئية عن القوة العسكرية الجبارة للمجتمع الجديد بفضل تمركز الانتاج الوطنى وتقويته وبفضل تصفية الطبقات. ان الجيوش التى سينظمها المجتمع الاشتراكى سوف تتميز «بقوة رهيبة لا مثيل لها، وهذا يتطلب من الجنود مستوى أرفع من المرونة التكتيكية خلال خدمة الدوريات وفى صفوف الرماة وفى ميادين القتال. ان هؤلاء المحاربين سيكونون أشد بأسا وأكثر مرونة ووعيا وثقافة من محاربى المجتمع القائم».

واخيرا، ستمتلك الجيوش الاشتراكية تجهيزا تكنيكيا ممتازا. ومثلما كان نمو القوى المنتجة تمهيدا لاسلوب نابوليون فى خوض الحرب، فان القوى المنتجة الجديدة ستكون تمهيدا للتصليحات الجديدة فى الفن العسكرى.

وانها لطريفة جدا ملاحظات أنجلس حول حتمية انحلال الجيش القديم فى مجرى كل ثورة ظافرة قبل ان تشرع هذه الاخيرة فى انشاء جيش جديد وانضباط جديد.

كان أنجلس كاتبا خصبا فى مادة الفن العسكرى. فمنذ

عام ١٨٥٣ حتى ١٨٥٥ كتب سلسلة كبيرة من المقالات المكرسة لحرب القرم. وفى عام ١٨٥٥ نشر فى صحف الولايات المتحدة الاميركية عددا من المقالات حول الجيوش الاوروبية. ومن عام ١٨٥٧ حتى عام ١٨٥٨ ألف مقالات حول «حرب الافيون» الثانية التى شنتها انكلترا وفرنسا لاخضاع الصين، وحول الانتفاضة التحررية الوطنية فى الهند ضد المستعمرين الانكليز، وحول التدخل الانكليزى فى ايران. وبهذه المقالات، ساهم انجلس فى دراسة المسألة الوطنية والاستعمارية التى كان ماركس يهتم بها فى ذلك الحين. ان مقالات ماركس وأنجلس حول الهند والصين المنشورة خلال العقد السادس من القرن الماضى فى «نيويورك تريبون»، وتقديراتهما للمسألة الوطنية فى اوروبا قد أرست أسس السياسة الثورية البروليتارية فى المسألة الوطنية والاستعمارية.

كانت مقالات أنجلس عن الحوادث فى الصين والهند (وكذلك الاغلبية الساحقة من مقالاته الاخرى «العسكرية») تتعدى كثيرا نطاق التحليل العسكرى الصرف. وعلى الرغم من ان انجلس كان مضطرا الى ان يكيف مقالاته لمستوى مطاليب «نيويورك تريبون» الا ان لهجتها ومضمونها كانا يدلان على ان كاتبها ليس «باختصاصى عسكرى» صرف بل ثورى بروليتارى. مثلا، كانت مقالات أنجلس لهذه الجريدة حول الانتفاضة التحررية الوطنية فى الهند، علاوة على التحليل الماهر للعمليات الحربية، تحتوى أيضا اتهاما قاضيا للسياسة الانكليزية الاستعمارية.

وبفائق الاهتمام وبالغ العطف، رأى انجلس الى مصائر شعوب افريقيا، والى نضالها التحررى الوطنى ضد الاستعمار

الضاري. فاستناداً الى مثال استيلاء الفرنسيين على الجزائر، فضح انجلس السيطرة الاستعمارية وطرائقها القاسية وعواقبها الوخيمة على الشعوب المستعبدة.

«ان الجزائر، ان هذا البلد التعيس، لا يزال منذ احتلاله للمرة الاولى من قبل الفرنسيين حتى اليوم مسرحاً للمجازر ولاعمال النهب والعنف غير المنقطعة. وكل مدينة، كبيرة ام صغيرة، يتم الاستيلاء عليها شبراً وبثمن تضحيات جسيمة. ان قبائل العرب والبربر التي يعز عليها الاستقلال كشيء مقدس، والتي تضع الحقد على السيطرة الاجنبية اعلى من الحياة بالذات، يخضعونها ويقمعونها بغارات وحشية يحرقون اثناءها ويدمرون مساكنها واملاكها، ويدوسون غلالها، بينما تتعرض الكائنات التعيسة الباقية قيد الحياة اما للرمي بالرصاص واما لجميع فظائع الانفلات والقساوة».

وبارتياح يلاحظ انجلس ان الطبقات الحاكمة فى فرنسا لم تتمكن، رغم حروب دموية دامت ثلاثين سنة، من تحطيم مقاومة الشعب الجزائرى وان «القبائل تواصل الذود عن استقلالها وتكره النظام الفرنسى»...

ومع ماركس، ربّى انجلس الطبقة العاملة والجماهير الكادحة بروح الاممة البروليتارية، بروح التضامن مع شعوب البلدان المستعمرة والتابعة، المناضلة فى سبيل تحررها.

وقد اعرب ماركس وانجلس فى مقالاتهما عن آرائهما بصدد جميع الاحداث الدولية الكبيرة. وتبعا لتقسيم العمل بينهما، كان على انجلس ان يقوم بتحليل الحروب الجارية فى ذلك الوقت، وتسليط النور على مجرى العمليات الحربية.

وفى عام ١٨٥٩ نشر أنجلس فى « نيويورك تريبون » وفى الصحيفة الألمانية « الشعب » (« داس فولك ») الصادرة فى لندن، أكثر من عشرين مقالا حول الحرب التى قامت بها فرنسا بالتحالف مع البيمونت ضد النمسا. وفى عام ١٨٦٠ كتب لجريدة « نيويورك تريبون » عدة مقالات عن الحرب التى قام بها الاسبان ضد مراكش وعن حملات غاريبالدى الثورية فى جنوب ايطاليا. وفى عام ١٨٦١ ساعد ماركس فى تأليف مقالات عن الحرب الاهلية فى الولايات المتحدة الاميركية لاجل الجريدة الفيينية « الصحافة » (« دى بريسه »). ومنذ عام ١٨٦٠ حتى ١٨٦٢ ساهم فى الكتابة لواحدة من المجلات العسكرية الانكليزية ثم فعل كذلك منذ ١٨٦٢ حتى ١٨٦٤ لجريدة عسكرية المانية. وقد نشر انجلس سلسلة من المقالات عن الحرب النمساوية البروسية لعام ١٨٦٦، ثم سلسلة كبيرة أخرى عن الحرب بين فرنسا وبروسيا فى ١٨٧٠-١٨٧١. وفضلا عن ذلك، كتب ماركس وانجلس « للموسوعة الامريكية الجديدة » زهاء ٨٠ مقالا عسكرياً وكان أغلبها من قلم انجلس (بينها مقالات كبيرة مثل: « الجيش » و « المدفعية » و « الفرسان » و « المشاة » و « التحصينات » و « الاسطول »).

وحينما يطالع المرء اليوم مقالات انجلس العسكرية، يندهش قبل كل شيء بثقافته وبعمق تحليله للمواد الاساسية والوقائع الملموسة. وليس من المستغرب ان القراء كانوا يعزونها الى اختصاصى عسكرى بارز اذ كانت هذه المقالات غير مذيلة عادة باسم المؤلف.

كان ماركس يقدر تقديرا عاليا معارف صديقه العسكرية وكان يقول انه يعتمد اطلاقا على « الوزارة

الحربية فى مانشستر » المستعدة دائما لتقديم التعليمات اليه حول أى مسألة عسكرية كانت.

كان أنجلس أول اختصاصى عسكرى للبروليتاريا الثورية، وأول نظرى عسكرى لها. وقد كان أفقه السياسى الواسع ومعارفه الاقتصادية واحساسه المرهف بالعلاقات الدولية ولا سيما المهارة التى كان يحسن بها تطبيق الديالكتيك المادى، كان كل هذا قد اتاح له، بالعكس عن سائر العلماء العسكريين المحترفين، أن يرى فى الحرب ظاهرة اجتماعية مشروطة بتطور المجتمع والصراع الطبقى.

ففى كتاب «ضد دوهرينغ» يعطى انجلس صيغة معممة لاحكام الماركسية عن الحرب والفن العسكرى. «لا شىء أكثر تعلقا بالشروط الاقتصادية من الجيش والاسطول. ان التسليح والتركيب والتنظيم والتكتيك والاستراتيجية تتعلق قبل كل شىء بالمستوى الذى بلغه الانتاج فى الوقت المعنى وكذلك بالمواصلات. فليس «الابداع الحر» لقواد الجيوش العبقريين هو الذى يؤثر فى هذا المضمار تأثيرا ثوريا، بل أن هذا يعود الى اختراع أفضل الاسلحة وتغيير المادة الانسانية وهى الجندى؛ وان تأثير القواد العبقريين، فى أفضل الحالات، يقتصر على ان يكيفوا طريقة القتال على الاسلحة الجديدة والمحاربين الجدد »*. ومن هذه الزاوية، يعرض انجلس فى كتابه هذا لوحة تاريخية عن تطور الفن العسكرى.

لقد تنبأ أنجلس فى نفس الكتاب بأن تعاظم العسكرية الذى بدأ بعد الحرب بين فرنسا وبروسيا عام ١٨٧٠ سيجعل تناقضات المجتمع الرأسمالى تتفاقم الى أقصى

* انجلس، «ضد دوهرينغ».

حد، وسوف ينتهى الامر بتحويل الجيش من أداة للطبقات المسيطرة الى عامل جبار للثورة البروليتارية الظافرة. واستطرد أنجلس فى قوله: «لقد صار الجيش هدف الدولة الرئيسى، صار هدفا بحد ذاته؛ وليس للشعوب الا ان تقدم الجنود وتغذيهم. ان العسكرية تسيطر على اوروبا وتبتلعها. ولكن هذه العسكرية تحمل فى قرارتها عامل دمارها نفسها. ان تنافس الدول فيما بينها يضطرها، من جهة، الى أن تنفق كل عام مزيدا من الاموال على الجيش والاسطول والمدافع، والخ.. مما يؤدى، بالتالى، الى الانهيار المالى؛ ومن جهة اخرى، يضطرها الى زيادة التشبث بالخدمة العسكرية الالزامية فينجم عن ذلك تدريب الشعب كله على استعمال الاسلحة مما يجعله قادرا على تحقيق ارادته فى لحظة معينة رغما عن القيادة العسكرية. وان هذه اللحظة تحين عندما **تكون لدى** جماهير الشعب ـ اى عمال المدن والقرى وكذلك الفلاحين ـ ارادتها. فيتحول جيش الملك جيشا شعبيا وترفض الآلة العمل، وتهلك العسكرية بدافع من تطورها الديالكتيكى الذاتى» .*

ان تراث أنجلس الادبى الضخم فى المسائل العسكرية ما يزال يحتفظ بكل قيمته حتى ايامنا هذه. وان لينين الذى كان يعير اهتماما كبيرا للعلوم العسكرية، كان دائما يدعو الحزب لان يحذو حذو انجلس فى دراسة هذه العلوم، مشيرا الى الأهمية البالغة للمعارف العسكرية والتكنيك الحربى والتنظيم الحربى باعتبارها وسائل تستخدمها جماهير الشعب وطبقات الشعب لحل الاصطدامات التاريخية العظيمة.

---

* انجلس، «ضد دوهرينغ».

والى جانب الاهتمام بالعلوم العسكرية، انكب انجلس فى مانشستر على دراسة اللغات، وكان هذا الولع قد ظهر عنده منذ حداثته وصباه. فشرع يدرس اللغات بانتظام ودأب واحرز نتائج مدهشة فى هذا المضمار. وقد كان لا يستحثه على ذلك حب المعرفة فحسب بل ومستلزمات النشاط العملى الثورى الاممى الذى كان يقوم به حينذاك والذى تعين عليه ان يقوم به فى المستقبل ايضا.

كان يتقن اللغات الاوروبية الرئيسية الحية ويحسن اللاتينية واليونانية وقد أخذ منذ عام ١٨٥٢ يتعلم الروسية «بحب وعمق»، على حد قوله.

ولكى نعطى فكرة عن الاهتمام العميق الذى كان انجلس يبديه تجاه دراسة اللغة الروسية والادب الروسي يكفى أن نقول انه قد عثر فى أوراقه على خمسة عشر بيتا من قصيدة بوشكين «يفغينى أونيغين» ترجمها هو الى الالمانية كما عثر على سلسلة من الملاحظات سجلها اثناء قراءته «الفارس البرونزى» لبوشكين، و«فرط الذكاء مصيبة» لغريبوييدوف.

كتب أنجلس فيما بعد يقول ان اللغة الروسية «...تستحق الدراسة المتعمقة سواء لكونها واحدة من أقوى اللغات الحية واغناها أم من أجل الادب الذى تكشفه لنا...».

وقد دفعته حرب القرم ودراساته الجدية للمسائل الشرقية الى دراسة اللغة الفارسية. وفى نهاية العقد السادس، تعلم اللهجات الالمانية القديمة. وقد حثته الحرب الدانماركية من اجل شليسفيغ-هولشتين عام ١٨٦٤ على دراسة اللغات السكندينافية.

وفى اواخر العقد السابع، حينما طرحت المسألة الارلندية بقوة على الاممية الاولى، شرع يدرس اللهجات الارلندية السلتية. وفى نفس الحقبة، راح يدرس اللغات الهولندية والفلمنكية السكوتلندية. وعند غروب حياته، عكف على الرومانية والبلغارية، وذلك نظرا لحاجات قيادة الحركة الاشتراكية التى بدأت فى هذين القطرين.

كان أنجلس يعرف لغات كثيرة، فكان يتقن الكلام والكتابة بأثنتى عشرة لغة، ويحسن القراءة بعشرين لغة.

وكانت دراساته اللغوية اقل ما تشبه استيعاب «آلية» هذه اللغة او تلك. ان معرفة لغة من اللغات كانت تعنى بالنسبة له النفاذ الى روحها ومعرفة خصائصها وأصولها وتطورها بالارتباط مع تاريخ الشعب المعنى وأدبه وثقافته، والخ..

وان معرفته لعدد عديد من اللغات اتاحت له أن ينكب على المسائل العامة لعلم اللغة، وعلم اللغة المقارن وان يرسى قاعدة ماركسية متينة لدراسة هذين العلمين.

وقد كانت دراساته فى حقل اللغات مفيدة له فى ابحاثه (فى العقد التاسع من القرن الماضى) حول تاريخ الالمان القدماء وفى تأليف كتابه «أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة». وقد كانت معارفه اللغوية مصدرا هاما لدى دراسة المراحل الاولى من تطور البشرية التاريخى.

أما الصيغة المعممة للآراء الماركسية حول اصل اللغة، فقد اعطاها انجلس فى كراسه الذى لم ينجزه «دور العمل فى تحول القرد الى انسان» (١٨٧٦).

وبارتباط وثيق بدراساته اللغوية، واصل انجلس، اثناء اقامته بمانشستر، دراسة الآداب العالمية. وفى هذا

المضمار ايضا، توصل انجلس، وهو من اوسع الرجال ثقافة فى عصره، الى نتائج باهرة. وكان أحد كبار عارفى آداب مختلف الشعوب، لا آداب الشعوب الاوروبية فحسب، بل كذلك آداب الشعوب الشرقية، وآداب العصور السالفة والراهنة على السواء. وبالمناسبة نقول انه عرف جيدا الآداب الروسية وقرأ مؤلفات الكتاب الروس ومنهم بوشكين ودرجافين وغريبوييدوف وسالتيكوف - شيدرين، ودوبروليوبوف وتشيرنيشيفسكى. وانطلاقا من هذه الفكرة القائلة بأن الأدب والفن هما شكل من اشكال الوعى الاجتماعى تحدده فى آخر المطاف قاعدة المجتمع الاقتصادية، كشف انجلس عن الجذور الطبقية لصراع مختلف التيارات فى الادب والفن. ودافع عن حقيقة الحياة فى الأدب والفن، وعن الاخلاص الفكرى وعن الواقعية التى «تنادى، فضلا عن صحة التفاصيل، بصحة تصوير الطبائع النموذجية فى الظروف النموذجية».

ان مؤلفاته ورسائله تحتوى ملاحظات عديدة هى نماذج قيمة للموقف الماركسى من مسائل الآداب والفنون.

وفى اواخر العقد السادس تمعن أنجلس فى دراسة العلوم الطبيعية: الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا والخ.. وببالغ الاهتمام، تتبع جميع المستحدثات فى هذا الميدان. وان كتاب داروين «اصل الانواع» الصادر فى ذلك الحين أثار اعجابه وقد وصفه بانه محاولة جليلة وناجحة للبرهان على صحة نظرية التطور التاريخى على صعيد الطبيعة.

وان المرء لا يمكنه ألا يندهش من ذلك العمل النظرى والأدبي والسياسى العظيم الذى قام به انجلس وذلك بعد

العمل المضنى فى مكتب شركة التجارة حيث كان يشرف على المراسلات مع الخارج.

كان اشتراك أنجلس فى حركة الميثاق يشغل قسطا كبيرا من نشاطه الثورى العملى خلال اولى سنوات اقامته بمانشستر. فقد كانت حركة الميثاق تمر بايام عصيبة بعد هزيمة نيسان - أبريل - ١٨٤٨. فان النهوض الصناعى العاصف وتحول انكلترا الى «المشغل الصناعى العالمى» وكذلك استغلال البرجوازية الانكليزية مستعمرات واسعة، كل ذلك كان قد أدى الى بعض التحسينات فى حالة قسم من العمال الانكليز اكثر مهارة مما مهد الطريق امام انبثاق الميول الانتهازية لدى هذا القسم. وفى هذه الظروف، كان فريق من زعماء حركة الميثاق يقومون بجهد وصعوبة باعادة تنظيم العمل لكى يبعثوا حياة جديدة فى الحركة، بينما كان آخرون، وعلى رأسهم أوكونور، قد تخلوا عن برنامج الحركة وسلكوا طريق المساومة مع الراديكاليين البرجوازيين.

كان ماركس وانجلس يحثان الميثاقيين اليساريين الذين يرأسهم هارنى وجونس على النضال الحاسم ضد الجناح الانتهازى لأوكونور وعلى الانفصال عنه. ولم يكن هذا باليسير لان هارنى وجونس نفسيهما ما كانا ليفهما فهما واضحا وافيا طابع التكتيك الذى يجب تطبيقه فى الظروف الناشئة. وما كان ماركس وأنجلس ليألوا جهدا فى مساعدة الميثاقيين اليساريين فيوضحان لهم الخطة السياسية الصحيحة وضرورة الارتباط الوثيق بين حركة الميثاق والاشتراكية (لقد أشار أنجلس الى ذلك فى كتابه «وضع الطبقات الكادحة فى انكلترا») وضرورة الجمع بين النضال

السياسى فى سبيل الميثاق وبين المعارك الاقتصادية اليومية التى تخوضها الطبقة العاملة.

وقد كتب أنجلس حينذاك كثيرا فى الصحيفتين الميثاقيتين «ملاحظات من أجل الشعب» («نووتس تو ذى بيبل») و«جريدة الشعب» («بيبلز بيبار») كما قام بنشاط فعال فى الدعاية والتنظيم بمانشستر. كتب لماركس فى الثامن من شهر كانون الثانى - يناير - ١٨٥١ يقول: «سأحاول أن انظم مع هؤلاء الفتيان (أى مع الميثاقيين اليساريين - المؤلفة) ناديا صغيرا أو اجتماعات منتظمة وسأناقش «البيان الشيوعى» معهم». وفى شهر شباط - فبراير - اخبر ماركس بتأسيس منظمة ميثاقية جديدة فى مانشستر.

كان أنجلس فى البداية يؤثر تأثيرا عظيما فى هارنى. غير أن هذا الاخير، بعد انشقاق عصبة الشيوعيين، أخذ ينهج سياسة التلون ويقوم بالمناورة بين مختلف جماعات اللاجئين، مغازلا «كبار» اللاجئين امثال لوى بلان وويليخ وأتباعه، وصار يبتعد عن ماركس وأنجلس تدريجيا.

وفى ١٣ من شهر شباط - فبراير - ١٨٥١ كتب أنجلس الى ماركس يعلمه بقرب مجىء هارنى الى مانشستر وقال: «...اذ ذاك سوف أؤنبه كاللازم. يجب أن يفهم اننا لا نميل الى الدعابة معه».

وقد رد ماركس على هذه الرسالة ناعتا هارنى بأنه: «رجل مزدوج العقل: الأول ذلك الذى اعطاه اياه أنجلس والثانى خاص به. والأول بالنسبة اليه هو نوع من القماط والثانى هو نفسه بشكله الطبيعى». ولكن الجهود التى بذلها ماركس وأنجلس لم تثمر شيئا: فقد كان هارنى يغرق اكثر

فاكثر فى مستنقع البرجوازية الصغيرة، مما اضطر ماركس وأنجلس الى القطيعة معه.

وبعد هذه القطيعة، عزز ماركس وانجلس صلاتهما بارنست جونس الزعيم الثانى للجناح اليسارى من حركة الميثاق الذى انكب بحماسة على اعادة تنظيم الحركة وكان فى البداية ينتبه الى ارشادات ماركس وانجلس ونصائحهما ونجح جونس فى نشر جريدة خاصة به «ملاحظات من اجل الشعب». وقد كان النجاح الذى احرزه جونس مدينا فى قسم كبير منه الى مرشديه ماركس وأنجلس اللذين ساعداه بالكتابة بانتظام لجريدته وفى تأسيس القاعدة المادية والمالية لها. كذلك اشترك ماركس مباشرة فى تحرير الجريدة.

كان ماركس وأنجلس يبذلان كل ما فى وسعهما لبعث حركة الميثاق الدستورية على أساس جديد ولكنهما ما كانا يغذيان أى وهم بهذا الصدد. فقد كانا يريان انحطاط حركة الميثاق التى كانت تتفسخ اكثر فاكثر الى زمر منفردة تتحول عمليا اذنابا للراديكاليين البرجوازيين. وقد اضطرا بعد قليل الى أن يقاطعا جونس الذى وقع بدوره فى شباك الانتهازية وسلك طريق التخلى عن الحركة العمالية المستقلة، طريق التحالف مع الراديكاليين البرجوازيين على غرار الميثاقيين اليمينيين.

كتب أنجلس فى رسالة الى ماركس مؤرخة فى ٧ تشرين الاول ــ اكتوبر ــ ١٨٥٨ يخبره فيها عن «المنهاج الجديد» لجونس نحو التحالف مع الراديكاليين البرجوازيين ويكشف عن اسباب الانحطاط الموقت الذى طرأ على الحركة العمالية الثورية الانكليزية:

«...ان انعطاف جونس الجديد، مثله مثل جميع

المحاولات السابقة والناجحة بهذه الدرجة او تلك، لبلوغ تحالف كهذا، يمكن تفسيره، على ما يبدو، بكون البروليتاريا الانكليزية تتبرجز اكثر فاكثر فى الواقع الى حد أن هذه الأمة التى هى أكثر الامم برجوازية تريد، كما يظهر، أن تبلغ فى نهاية الامر هذا الشىء: أن يكون لها أرستقراطية برجوازية وبروليتاريا برجوازية **الى جانب** البرجوازية نفسها. ومن البديهى ان مثل هذا المطمح لدى أمة تستغل العالم كله له ما يبرره بعض التبرير».

ان هذا التحليل الرائع، من حيث عمقه، لجذور الانتهازية فى الحركة العمالية الانكليزية فى العقد السادس قد استشهد به لينين غير مرة فى دراساته لأصول الانتهازية فى الحركة العمالية العالمية فى عصر الاستعمار.

* * *

فى أواخر العقد السادس من القرن الماضى بدأ فى اوروبا انتعاش الحركات الديموقراطية البرجوازية من أجل التحرر الوطنى التى سحقتها الثورة المعاكسة فى ١٨٤٨–١٨٤٩.

وفى جملة من البلدان كانت المسائل المعلقة للثورة البرجوازية تعاود الظهور على جدول الاعمال بحزم متزايد. وفى كل من ألمانيا وايطاليا، مع تطور الرأسمالية، اخذت قضية توحيد البلاد المجزأة فى دولة واحدة تتعاظم حدتها. ولكنه طرحت المسألة حول القوى والوسائل والطرق التى ستحل بها هذه المهمة.

لقد تفاقمت المسألة الوطنية فى المانيا بصورة خاصة فى عام ١٨٥٩ بسبب الحرب التى شنها نابوليون الثالث (لويس بونابارت) على النمسا من أجل شمال ايطاليا.

وكان يخوضها تحت الشعار التدجيلى، شعار تحرير ايطاليا الوطنى من نير النمساويين لكى يجعلها اكثر « شعبية » ويعزز عرشه المزعزع.

وكان النزاع الفرنسى النمساوى يطرح على جدول الاعمال مسألة موقف بروسيا فى هذه الحرب ووسائل الوصول الى توحيد ألمانيا. وقد رأى أنجلس أنه حان الحين لنشر كراس يحلل فيه الحرب بين ايطاليا والنمسا من وجهة النظر الستراتيجية العسكرية ويقدر هذه الحرب فى الوقت نفسه تقديرا سياسيا كما يحدد ايضا الموقف الذى يجب أن تقفه الديموقراطية الألمانية من هذه الحرب.

وفى هذا الكراس المعنون « نهرا البو والراين » والصادر فى عام ١٨٥٩، دافع انجلس بحرارة عن تحرر ايطاليا الوطنى وفضح سياسة نابوليون الثالث الذى كان يجلب معه اغلالا جديدة للشعب الايطالى تحت راية النضال فى سبيل استقلاله الوطنى. وبين أنجلس أن لويس بونابارت، وان كان يحارب على ضفاف البو، الا أنه يصوب عينيه الى الراين، اى انه يستعد للانقضاض على ألمانيا. كانت فرنسا البونابارتية ذات مصلحة فى تجزئة جارتها المانيا اقتصاديا وسياسيا. ولذا رأى أنجلس من الضرورى شن الحرب على بونابارت معتقدا أن حرب بروسيا ضد نابوليون الثالث سوف تبعث حركة شعبية واسعة وأن هذه الحركة ستطيح بالحكومة البروسية وتوحد ألمانيا « من الاسفل »، عن طريق الثورة.

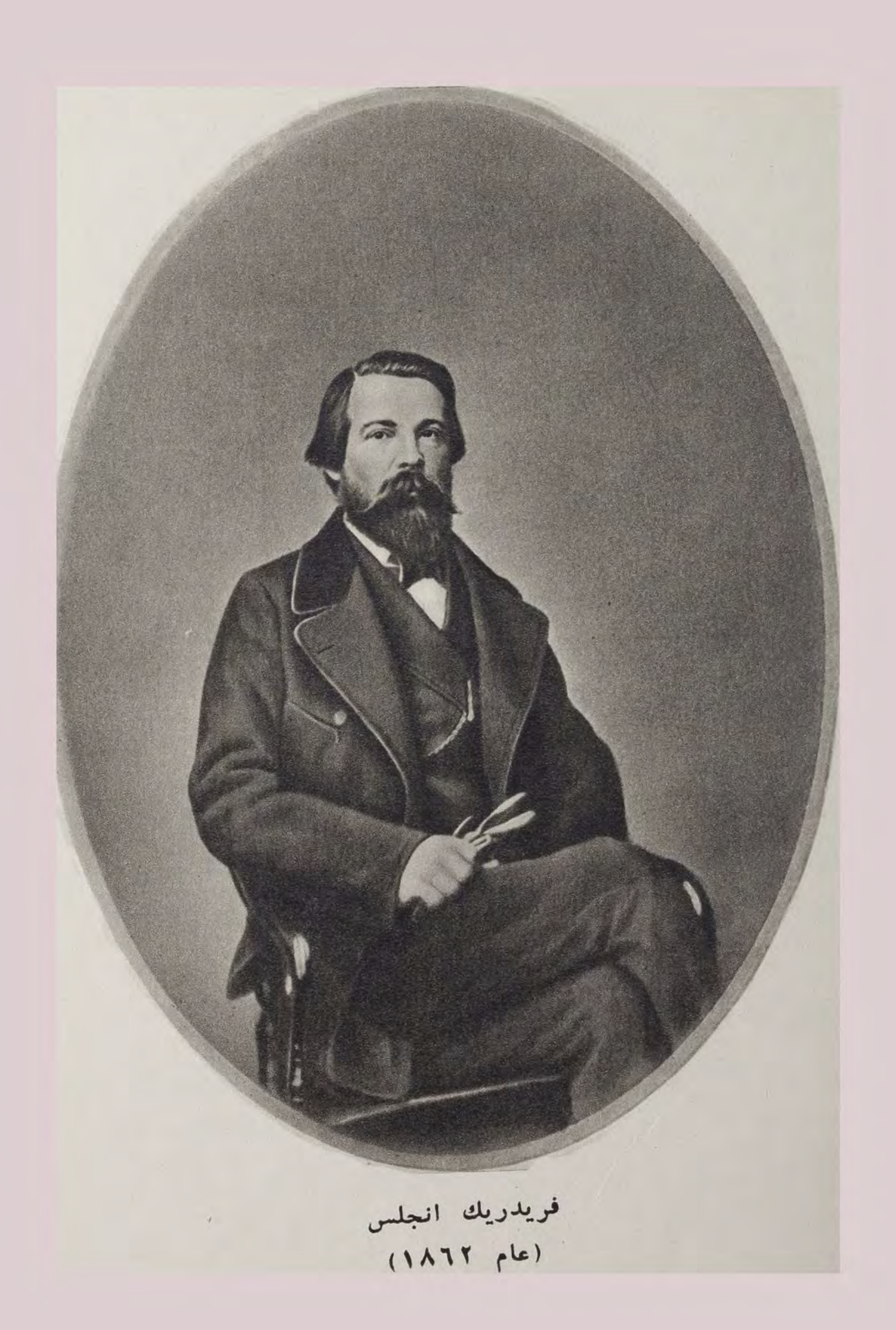
وقد اضفى انجلس بمهارة فائقة على موقفه الحزبى السياسى هذا فى قضية توحيد المانيا شكل البحث

الستراتيجى العسكرى ونشره مغفلا من الاسم بناء على نصيحة ماركس.

وفى عام ١٨٦٠ نشر انجلس كراسا آخر مغفلا من الاسم ايضا، عنوانه «سافويا ونيس والراين» وكان الى حد ما تتابعا للكراس السابق.

وبسبب الموقف الذى اتخذه ماركس وأنجلس من الحرب الفرنسية الايطالية النمساوية ظهرت خلافات عميقة بينهما وبين فرديناند لاسال الذى كان ماركس يتراسل معه منذ عام ١٨٤٨ والذى كان قد أعلن غير مرة وفاءه لحزب ماركس. فقد نشر لاسال ابان هذه الحرب مقالا سخريا «الحرب الايطالية والاغراض البروسية»، موجها، من حيث الاساس، ضد كراس أنجلس «نهرا البو والراين». وعلى نقيض ما قاله انجلس، رأى لاسال أن بروسيا يجب أن تؤيد فرنسا ضد النمسا، اذ انه – اولا – كانت فرنسا فى هذه الحرب تهدف – حسب زعمه – الى تحرير ايطاليا من النير الاجنبى؛ وثانيا – لان هذه الحرب ستساعد بروسيا على تحطيم منافسها القديم، النمسا، وعلى توحيد ألمانيا تحت هيمنتها. وكتب لاسال يقول لو أن حكومة بروسيا كانت قد أخذت على عاتقها هذه المهمة «لكانت الديموقراطية الالمانية بنفسها قد رفعت العلم البروسى واطاحت بجميع العوائق من طريقها...».

وعليه، كان لاسال يؤيد بروسيا الرجعية بوصفها المهيمنة فى توحيد المانيا، على عكس ماركس وأنجلس اللذين كانا يناضلان بدأب وانتظام فى سبيل توحيد ألمانيا من الاسفل عن طريق الجمهورية الديموقراطية.



فريدريك انجلس
(عام ١٨٦٢)

وبينا كان ماركس وأنجلس يفضحان طموح فرنسا البونابارتية الى دور الهيمنة فى اوروبا، ويدعوان الشعب الايطالى الى الاخذ بقضية تحرير بلاده وتوحيدها، كان لاسال ينشر الاوهام حول «الرسالة التحريرية» للويس بونابارت تجاه الشعب الايطالى، مؤيدا، بالتالى، السياسة التوسعية التى ينتهجها الامبراطور الفرنسى.

ولقد نقد ماركس وانجلس موقف لاسال نقدا شديدا. كتب ماركس للاسال حول مقالته يقول: «ان بحثك لا يعبر اطلاقا عن وجهة نظرى ووجهة نظر رفاقى فى الحزب فى انكلترا».

كان الاختلاف بين ماركس وأنجلس من جهة وبين لاسال من جهة أخرى قد ازداد خطورة حينما قام لاسال بدور منظم حزب العمال فى ألمانيا وواضع نظريته، بينما هو لم يكن حتى عام ١٨٦٢، على حد تعبير أنجلس «سوى ديموقراطى مبتذل بروسى بشكل نموذجى ذى ميول بونابارتية قوية». كان انتعاش الحركة الديموقراطية البرجوازية فى المانيا والنزاع الحاد بين الحكومة ومجلس النواب فى بروسيا يسهلان يقظة الحركة العمالية، فرأى لاسال هذه اللحظة سانحة ليبرز نفسه زعيما لاتحاد العمال العام فى ألمانيا الذى قد تألف للتو.

وكان برنامج هذا الاتحاد الذى رسم لاسال خطوطه فى سلسلة من خطبه ومقالاته يختلف اختلافا جذريا عن المبادئ التى نادى بها ماركس وأنجلس فى «بيان الحزب الشيوعى» وفى «نداء اللجنة المركزية لعصبة الشيوعيين».

كان الخلاف الجذرى بين آراء ماركس وأنجلس من

جهة وآراء لاسال من جهة أخرى يبدو بارزا بشكل خاص فى اهم مسألة ألا وهى الموقف من الدولة.

كان مؤسسا الشيوعية العلمية يريان ان الدولة فى المجتمع الطبقى، المتناحر ليست سوى منظمة للطبقة المسيطرة لقمع الطبقات المظلومة؛ اما لاسال فكان يرى أن «هدف الدولة هو تربية البشرية وتطويرها الى الحرية».

كان لاسال يصوب الطبقة العاملة الى مجرد الكفاح السلمى، الشرعى. وكان يرى أن الدولة بعد ادخال حق التصويت العام ستصير «دولة شعبية حرة» قادرة لا على تأمين مساواة الجميع أمام القانون فحسب، بل ايضا على تأمين المساواة المادية لجميع رعاياها. وكان يؤكد من جهة أخرى ان هذه الدولة، عن طريق مساعدتها على تنظيم تعاونيات الانتاج، ستساهم فى ان «تجعل من الطبقة العاملة رب عملها ذاتها». وعلى هذا النحو، كان لاسال يوحى الى العمال أوهام مضرة جدا تزعم ان الدولة البروسية، بعد تطبيق الاقتراع العام، ستساعدهم على اكتساب وسائل الانتاج وستخلصهم من الاستثمار. كان لاسال يقف موقفا سلبيا من كل حركة عمالية حقيقية ومن النضال الطبقى والاضرابات والنقابات.

ان الخلاف المبدئى فى الآراء النظرية بين ماركس وانجلس من جهة ولاسال من جهة أخرى كان ينطبق عليه خلاف جذرى بين خططهم السياسية وتكتيكهم. وقد قال ماركس للاسال بصراحة: «اننا نختلف رأيا حول كل شىء فى حقل السياسة ما عدا بعض الاهداف النهائية البعيدة كل البعد».

وبينما كان ماركس وأنجلس، فى قضايا توحيد المانيا

الوطنى، يعتمدان على الثورة التى ستسير فيها جماهير الفلاحين الواسعة تحت زعامة البروليتاريا، كان لاسال لا يرى فى الفلاحين سوى «جمهور رجعى بكليته» وكان يعتبر جميع حركات الفلاحين ضد الاقطاعيين واصحاب الاراضى حركات رجعية. كتب أنجلس حول موقف لاسال هذا: «...فى بلاد زراعية أساسا مثل بروسيا، من الدناءة شن الحملات باسم البروليتاريا الصناعية على البرجوازية فقط، دونما أى اشارة الى ما تعانيه البروليتاريا الريفية من استغلال بطريركى بشع وعذاب من قبل النبلاء الاقطاعيين الكبار».

كان لاسال يؤيد بكل ترحاب سعى حكومة بيسمارك الى توحيد ألمانيا «من الأعلى»، تحت هيمنة الملاكين العقاريين البروسيين. وفى خلال النزاع الدستورى، عندما أخذ بيسمارك يداعب البروليتاريا لكى ينال تأييدها فى الكفاح ضد البرجوازية الليبرالية، دخل لاسال فى مفاوضات مباشرة مع بيسمارك الذى وعد بمنح حق التصويت العام.

صحيح ان ماركس وأنجلس كانا لا يعرفان وقائع هذه المفاوضات بين لاسال وبيسمارك الا انه لم تكن تغيب عنهما مغازلات لاسال مع حكومة بيسمارك ومع الملاكين الاقطاعيين البروسيين. كتب أنجلس عن لاسال يقول: «لقد صار واضحا اليوم أن صاحبنا يعمل مباشرة من أجل بيسمارك».

وقد تأكدت شكوك ماركس وأنجلس عندما عرفا بعد وفاة لاسال (توفى فى الواحد والثلاثين من شهر آب – أغسطس – ١٨٦٤ بسبب من الجراح التى اصيب بها خلال مبارزة) خططه السياسية الاخيرة. وقد اخبرهما ليبكنيخت ان لاسال كان ينوى استنفار العمال الالمان من أجل تأييد

بيسمارك فى حربه ضد الدانمارك التى كان هدف بروسيا فيهم ضم امارة شليسفيغ-هولشتين. ولقاء هذه «الخدمة»، كان لاسال يأمل فى ان يمنح بيسمارك حق التصويت العام الموعود. وحينما عرف انجلس عن نوايا لاسال هذه، كتب لماركس يقول: «ما كان ذلك، موضوعيا، سوى خساسة وخيانة للحركة العمالية كلها لصالح البروسيين».

وحينما شرع لاسال بدعايته بين العمال الالمان، وقف ماركس وأنجلس منه، فى البداية، موقف التريث فما كانا ينتقدانه علنا، اذ كان لاسال، فى مرحلة معينة، يلعب دورا ايجابيا بعض الشيء لأنه كان يساعد العمال على التحرر من تأثير حزب التقدميين البرجوازى. وكان ماركس وانجلس يسعيان الى التأثير فى اتحاد عمال المانيا العام من داخله قصد مساعدة العمال الاعضاء فى هذا الاتحاد على الوقوف مواقف صحيحة، وذلك بواسطة انصارهما وبالدرجة الاولى ولهلم ليبكنيخت. بيد انهما ما ان علما عن خيانة لاسال حتى شنا نضالا علنيا على اللاسالية. ولكن التقاليد اللاسالية كانت قد غرست جذورها فى الحركة العمالية الالمانية، ولذا اضطر مؤسسا الشيوعية العلمية الى خوض نضال مضن طويل ضد تركة لاسال، رائد الانتهازية فى الاشتراكية الديموقراطية الالمانية.

ان نضال ماركس وأنجلس ضد الشيعة اللاسالية الانتهازية والقومية التعصبية قد اتخذ اشكالا حادة بشكل خاص خلال فترة الاممية الاولى.

٧

أنجلس خلال مرحلة الاممية الاولى وكومونة باريس

ان النضال العنيد الدائب فى سبيل توحيد عمال جميع البلدان الذى لم يفتأ ماركس وأنجلس يخوضانه فى أشق ظروف الرجعية قد تتوج فى عام ١٨٦٤ بتأسيس جمعية العمال العالمية اى الاممية.

كان الوضع التاريخى حينذاك مناسبا جدا لانشاء منظمة بروليتارية على الصعيد العالمى. وكان سور الرجعية فى أواخر العقد السادس من القرن الماضى قد أخذ يتصدع وكان نهوض الحركات الديموقراطية البرجوازية وخاصة حركات التحرير الوطنى فى اواخر العقد السادس ومطلع العقد السابع يساهم فى يقظة الطبقة العاملة السياسية.

وقد كانت الازمة الصناعية فى عام ١٨٥٧ نقطة الانطلاق لنهوض الحركة العمالية الجديد. ومع تطور الرأسمالية كان يظهر بجلاء متعاظم أن للبروليتاريا فى مختلف البلاد نفس الآلام والمصائر. وكان العمال يشعرون بذلك فى أيام الازمة بشكل خاص، عندما كانت البرجوازية تحاول أن تلقى كل اعباء الازمة على كواهل الشغيلة

وحدهم. ولقد رد العمال على ذلك باعلان الاضرابات التى كان الرأسماليون يقاومونها باستحضار عمال من الخارج. وقد اقتنع العمال بتجربتهم انفسهم بأن النضال ضد زحف رأس المال يتطلب جهودا متضافرة متناسقة من لدن بروليتاريا جميع البلدان.

لم يقتصر العمال على النضال الاقتصادى الصرف بل اخذوا يسلكون طريق النضال السياسى. فالبروليتاريا الفرنسية، مثلا، كانت تقوم بنشاط سياسى يزداد اتساعا على الرغم من نداءات البرودونيين للكف عن السياسة.

وفى ألمانيا كانت البروليتاريا تتحرر شيئا فشيئا من تأثير البرجوازية السياسى. وخلافا للمبادئ اللاسالية الانعزالية التى كان يدافع عنها اتحاد عمال المانيا العام، كانت الحياة هى نفسها تقنع العمال بضرورة النقابات والاضرابات. وعليه، اخذت تتكون الممهدات لانشاء حزب عمالى يختلف عن الحزب اللاسالى.

اما جماهير البروليتاريا الانكليزية التى شلتها حتى ذلك الحين التريديونيونات الليبرالية، فقد دبت فيها الحركة ايضا. لقد دلت على ذلك الاضرابات الضارية وتوسع النضال السياسى من أجل حق التصويت العام وانشاء مجلس التريديونيونات فى لندن الذى تحول الى مركز الحركة العمالية الصاعدة. حتى زعماء التريديونيونات الانكليزية انفسهم الذين كانوا يحصرون انفسهم فى حلقة ضيقة من النضال الاقتصادى وتنظيم التعاضد، قد أخذوا يدركون انه لا بد من التنسيق بين اعمال العمال فى مختلف البلدان: فان وقائع عديدة من استحضار الرأسماليين الانكليز عمالا اجانب اثناء الاضرابات قد قدمت لهم دروسا ممتازة.

ان الحملة التى شنها العمال الانكليز بمناسبة الحرب الاهلية فى الولايات المتحدة قد ساهمت فى تعزيز التضامن الاممى البروليتارى: فان تظاهراتهم واجتماعاتهم الجماهيرية قد منعت الطبقات المسيطرة فى بلادهم عن تنظيم التدخل للدفاع عن الجنوب المستعبد ضد الولايات الشمالية الاكثر تقدما.

وبسطوع اكثر، تجلى ازدياد تضامن البروليتاريا الاممى اثناء الانتفاضة البولونية فى عام ١٨٦٣: ففى الاجتماعات العمالية الاممية العديدة، اعرب المشتركون فيها بقوة عن عطفهم الحار على البولونيين المظلومين وسخطهم على طاغيتهم الدموى: القيصرية الروسية.

لقد توصل ماركس، اذ قدر الوضع الاقتصادى والسياسى العالمى التقدير الصحيح وأخذ بعين الاعتبار نهوض الحركة العمالية الجديد، الى هذا الاستنتاج وهو أن فكرة التضامن البروليتارى العالمى التى كان هو وانجلس يخوضان من أجلها نضالا طويلا دائبا، يمكن فى نهاية الامر أن تصبح حقيقة قائمة. وفى الثامن والعشرين من شهر ايلول – سبتمبر – ١٨٦٤ تأسست فى لندن جمعية العمال العالمية، خلال اجتماع اممى عقد فى سانت مارتنس هال. كان ماركس قائد الجمعية والنظرى لها.

رأى ماركس المهمة الرئيسية لهذه الجمعية فى فصل الطبقة العاملة عن الديموقراطية البرجوازية، والمساهمة فى انشاء حركة عمالية مستقلة، وتحرير العمال من تأثير مختلف الشيع الاشتراكية و شبه الاشتراكية، وتربية الجماهير العمالية بروح الاممية البروليتارية المنسجمة الى النهاية.

لقد أنشأ زعيم البروليتاريا العظيم جمعية العمال العالمية على أساس ديموقراطى تماما. كان يقطع بحزم كل طريق يمكن أن يؤدى الى عبادة الفرد الغريبة عن الماركسية كل الغرابة والتى كان يغرسها بعض القادة البرجوازيين الصغار فى المنظمات التى يقودونها. وفى شهر تشرين الثانى – نوفمبر – من عام ١٨٧٧ كتب فى احدى رسائله يقول: «...ان كرهى لكل عبادة للفرد كان يمنعنى من أن اسمح بنشر النداءات العديدة الآتية من مختلف البلاد أثناء وجود الاممية، والتى كانت تزعجنى بحديثها عن مأثرتي حتى اننى لم ارد قط عليها اللهم فى بعض الحالات لتوبيخ اصحابها. وعندما انتسبت أنا وأنجلس الى جمعية الشيوعيين السرية فعلنا ذلك بشرط ان يلغى من نظامها الداخلى كل ما يساعد على الاستعباد الخرافى للاقطاب...».

ان تعقد مهمة ادارة جمعية العمال العالمية قد برز منذ الايام الاولى لوجودها: فكان على قيادتها أن توحد الحركات العمالية التى كان مستواها يختلف فى بلدان شتى، وأن تنظم عملا مشتركا للعناصر المتنافرة بالتغلب على ميولها الانعزالية والبرجوازية الصغيرة وبرفع الحركة العمالية الى درجة اسمى فى تطورها.

ولهذا ليس من المستغرب اذا كان ماركس قد اصطدم بمصاعب لدى تحريره الوثائق البرنامجية الاولى للاممية امثال «البيان التأسيسى» والنظام الداخلى، وقد شرح لانجلس هذه المصاعب فى احدى الرسائل على النحو التالى: «كان من الصعب جدا صياغة آرائنا بشكل يجعله ملائما للمستوى الراهن للحركة العمالية.. سيمر وقت قبل أن يتيح نهوض

الحركة بجرأة التكلم السابقة. يجب أن نكون اقوياء فى اعمالنا ومعتدلين فى الاشكال ».

ولقد حل ماركس هذه المعضلة حلا رائعا. فبدون أن يغير أدنى تغيير من مفاهيمه، ألف ماركس برنامجا يترك باب الاممية مفتوحا لاعضاء التريديونيونات الانكليزية وللبرودونيين الفرنسيين وللاساليين الالمان.

كان ماركس فى تحريره « البيان » يعتمد على ان تجربة الجماهير والنضال الذى كان لا يفتأ يخوضه مع أنجلس ضد مختلف المفاهيم البرجوازية الصغيرة، سيساعدان العمال على التغلب على هذه المفاهيم، كما سيساعدانهم على فهم الشيوعية العلمية. ومنذ بداية جمعية العمال العالمية اخذ ماركس بالكفاح منتظما دائبا فى سبيل الظفر الايديولوجى لمذهبه فى صفوفها.

اما انجلس، وان كان ما يزال يعيش فى مانشستر مضطرا الى ان يكرس قسما كبيرا من وقته « للتجارة الملعونة » وما كان يستطيع ان يشترك فى تأسيس الاممية بشكل مباشر ولا فى عمل هيئتها القيادية وهى المجلس العام، فانه، رغم ذلك، كان يساعد ماركس مساعدة فعالة فى ادارة الاممية وفى كفاحه ضد مختلف التيارات البرجوازية والبرجوازية الصغيرة فى الحركة العمالية. وكان ماركس يطلعه بانتظام على الوضع فى الاممية وعلى النضال الذى كان يخوضه فى المجلس العام. وكثيرا ما كان يستشير انجلس فى مختلف المشاكل ويطلب منه ان يعد هذه المواد او تلك لجلسات المجلس العام. فمثلا، ان أنجلس هو الذى كتب التقرير المفصل حول نقابات عمال مناجم الفحم فى الساكس، الذى نشره المجلس العام للاممية فى عام ١٨٦٩

كتقرير ماركس بصفته أمينا للمجلس العام فى شؤون ألمانيا.

وبسبب من النضـال الذى كان يجرى داخل الاممية شرع انجلس القلم مرارا عديدة ليدافع فى الصحف عن الماركسية ضد خصومهـا البرجوازيين والبرجوازيين الصغار.

ان العدو الاول الذى جابهه ماركس منذ تأسيس الاممية هو البرودونية. وكان ما يزال لبرودون تأثير كبير فى فرنسا وبلجيكا وايطاليا وفى عدد من البلدان الاخرى حيث كان يسيطر الانتاج الصغير والحرف الصغيرة. وكانت آراء برودون البرجوازية الصغيرة وانكاره للنضال السياسى وتأليفه المشاريع الخيالية لازالة البؤس بدون اللجوء الى الثورة الاشتراكية والقضاء على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، كان كل هذا يلعب دورا رجعيا فى الحركة العمالية.

وقد شن البرودونيون أول حملة لهم على ماركس فى الاممية حول موضوع استقلال بولونيا. فقد عارضوا ادراج هذا الموضوع فى جدول الاعمال لمؤتمر الاممية فى جينيف الذى تقرر عقده عام ١٨٦٦، متذرعين بحجة أن هذا الموضوع «سياسى» ولا علاقة له بالعمال. وبناء على طلب ماركس نشر أنجلس سلسلة من المقالات المناهضة للبرودونيين عنوانها: «بماذا تخص المسألة البولونية الطبقة العاملة؟» بين فيها على اساس الوقائع التاريخية ان الطبقة العاملة، حيثما كانت تشترك بشكل مستقل فى الحركات السياسية، كانت تطالب بتحرير الشعب البولونى من نير الظلم القومى وباعادة استقلال بولونيا، وأن البرودونيين اذ يتجاهلون المسألـة الوطنية ويرفضون كل تأييد

للبولونيين، انما يدعمون، فعلا، سياسة طغيان القيصرية الروسية الرجعية.

كان ماركس وأنجلس، الى جانب نضالهما ضد البرودونية، قد شنا نضالا ضد التقاليد اللاسالية التى كانت تعيق انتساب العمال الالمان الى المنظمة العالمية للبروليتاريا.

كان ماركس قد تلقى بعد تأسيس الاممية بوقت قليل، رسالة من شويتزر، أحد قادة اتحاد عمال المانيا العام يدعوه فيها الى الكتابة لجريدة «الاشتراكى الديموقراطى» (سوسيال-ديموقراط) التى نوى ان يصدرها. وقد اشار شويتزر فى رسالته الى دور ماركس باعتباره مؤسس حزب العمال الالمانى ومناضله الطليعى، والحقها بمشروع العدد الاول من الجريدة المقبلة، خاليا من الشعارات اللاسالية المألوفة، وهذا ما أوحى بالثقة الى ماركس وأنجلس وبعث فيهما الامل بامكانية الاستفادة من هذه الجريدة لنشر أفكار الاممية فى ألمانيا. ولذا قبلا المساهمة بالكتابة فيها. فى البدء، ارسل ماركس اليها «البيان التأسيسى» للاممية. ولكن الجريدة لم تلبث أن أقلقتهما: فمنذ الاعداد الاولى أخذت تغازل حكومة بيسمارك الاقطاعية بطريقة مطابقة كل التطابق للتقاليد اللاسالية. وقد استفاد ماركس من اول فرصة، وكانت هذه مقالة بمناسبة وفاة برودون، لكى يندد على صفحات «الاشتراكى الديموقراطى» بـ«كل **مساومة وان كانت ظاهرية** مع السلطة القائمة» واصفا تغزل برودون بلويس بونابارت «بالدناءة». أما أنجلس فقد أرسل الى محررى «الاشتراكى الديموقراطى» ترجمة لاغنية قديمة يغنيها الفلاحون

الدانيماركيون، وذلك ليلفت انتباه القراء الى ضرورة الكفاح ليس ضد البرجوازية فحسب بل ضد الارستقراطية والملاكين العقاريين أيضا. كانت الاغنية تذكر فترة حرب الفلاحين ضد الملاكين العقاريين فى سودرهرد، وقد الحقها انجلس بتعليق أشار فيه الى الوسائل العنيفة التى قضى فيها الفلاحون الدانماركيون على تحكم السادة الاقطاعيين. كان هذا التعليق ينتهى بهذا الاستنتاج الوازع:

«فى بلاد مثل ألمانيا حيث الطبقات المالكة تشمل من البرجوازية قدرما تشمل من الارستقراطية الاقطاعية، وتتألف البروليتاريا من عدد من العمال الزراعيين يساوى عدد العمال الصناعيين او حتى يفوقه، فى هذه البلاد تكون الاغنية الفلاحية الحماسية القديمة ملائمة كل الملاءمة».

على أن محاولات ماركس وأنجلس هذه وغيرها لتصليح اتجاه الجريدة بقيت بدون جدوى، اذ كانت الجريدة ما تفتأ تغازل حكومة بيسمارك الاقطاعية. ولم يمض وقت طويل حتى اضطر ماركس وانجلس الى نشر بيان رسمى ضد «الاشتراكى الديموقراطى». وقد اعلنا فى هذا البيان الصادر فى ٢٣ شباط-فبراير-١٨٦٥ انهما يكفان عن المساهمة فى الجريدة اذ ان هيئة تحريرها لم تأخذ بالحسبان متطلباتهما العديدة حول ضرورة القيام بنضال ضد وزارة بيسمارك والحزب الاقطاعى المطلق لا يقل ضراوة عن النضال ضد البرجوازية على الاقل.

لقد فضح أنجلس «الاشتراكية الحكومية الملكية البروسية» التى ينادى بها اللاساليون وعبر أكثر من مرة عن اشتباهه بان جريدة «الاشتراكى-الديموقراطى» قد

رشاها بيسمارك بكل بساطة. وقد أكد المستقبل اشتباه انجلس كل التأكيد.

وبعد القطيعة مع «الاشتراكى - الديموقراطى» بوقت قليل نشر انجلس كراسا خاصا عنوانه: «المسألة العسكرية فى بروسيا وحزب العمال الالمانى» (١٨٦٥) ونقد فيه اللاساليين نقدا مفصلا. كانت المسألة العسكرية، اى مشكلة اعادة تنظيم الجيش البروسى، قد اكتسبت آنذاك فى المانيا اهمية خاصة حتى انها سببت فى عام ١٨٦١، «نزاعا دستوريا» بين البرجوازية والحكومة.

فاستنادا الى هذا المثال الملموس، يبين انجلس الموقف الذى ينبغى للحزب البروليتارى ان يقفه حيال الفئتين المتنازعتين من الطبقتين المالكتين: الملاكين الاقطاعيين وحكومتهم من جهة والبرجوازية الليبرالية من جهة أخرى.

وعلى النقيض من اللاساليين، برهن انجلس على أن البروليتاريا لا ينبغى لها أبدا أن تؤيد الحكومة البروسية الرجعية والملاكين الاقطاعيين. فان الرجعية تعمد فى بعض الاحيان، انطلاقا من اغراض نضالها ضد البرجوازية، وتغازل العمال وتمنحهم بعض التسهيلات بما فيها السماح بحق التصويت العام، مثلما فعل لويس بونابارت. الا أن الحكومة لا تفعل ذلك الا ريثما يجديها نمو خصم جديد للبرجوازية. وعندما تصير الحركة العمالية قوة مستقلة، ستبذل هذه الحكومة نفسها كل جهودها للقضاء على هذه الحركة.

على أن حزب العمال، اذا كان لا يستطيع أبدا أن يؤيد حكومة الملاكين الاقطاعيين، فأى خطة اذن يجب أن ينتهجها حيال البرجوازية؟

وقد أجاب أنجلس على هذا السؤال شارحا: ان

البرجوازية لا يمكن أن تستولى على السلطة السياسية دون أن تسلح البروليتاريا فى الوقت نفسه. وعلى المعارضة البرجوازية، لكى تكون منسجمة، ان تطالب بحق الاقتراع العام والمباشر، وحرية الصحافة والجمعيات والاجتماعات، والخ.. اما حزب العمال فيمكنه ان يستغل ذلك كله فى صالحه، اى للنضال ضد البرجوازية نفسها.

غير ان انجلس، فى تحليله سلوك البرجوازية اثناء النزاع الدستورى، توصل الى الاستنتاج القائل بان البرجوازية البروسية تكشف عن انعدام الرجولة فيها بدرجة لا مثيل لها حتى فى تاريخ هذه الطبقة التى لم تكن تتسم بالشجاعة ابدا. وهو يبين ايضا ان البرجوازية قد ارتاعت من الحركة العمالية المستقلة فاخذت تميل اكثر فاكثر الى الاتفاق مع الملكية، مستعدة لأن تخون نفسها مثلما حدث لها فى عام ١٨٤٨. أما العمال فكان ينبغى لهم أن يفضحوا السياسة المتخاذلة الجبانة التى تنتهجها البرجوازية وأن يتابعوا الدعاية لصالح المطالب الديموقراطية البرجوازية أمثال حرية الصحافة والاجتماعات، والخ..، وذلك اذا أقدمت البرجوازية، بدافع من جبنها، على خيانتها لنفسها. «وبديهى أن حزب العمال فى جميع هذه الحالات لن ينجر وراء ذيل البرجوازية، بل سيبرز كحزب مستقل متميز كل التميز عنها». ان الحزب العمالى سيشرح للعمال مصالحهم الطبقية الخاصة «وسيكون مستعدا للعمل فى اقرب عاصفة ثورية قادمة ــ وان هذه العواصف ستتكرر منذئذ بانتظام مثل الازمات التجارية ومثل العواصف فى الطبيعة خلال فترات الاعتدال الموسمية».

هذه هى الافكار الرئيسية لكراس أنجلس الذى

دقق فيه التكتيك المرسوم فى « بيان الحزب الشيوعى »، مطبقا هذا التاكتيك على ظروف المانيا فى سنوات العقد السابع.

كان لنضال ماركس وأنجلس ضد اللاسالية تأثير بالغ فى انشاء منظمة للعمال فى المانيا تختلف عن الحزب اللاسالى.

وان تجربة جماهير العمال الذاتية قد اسهمت فى ذلك ايضا اذ انها كانت تقنع الجماهير اكثر فاكثر بضلال العقائد اللاسالية. ولقد دلت هذه التجربة على أن بيسمارك، وان اصدر مرسوما بالتصويت العام اثناء انتخابات برلمان المانيا الشمالية (١٨٦٦)، الا ان سلطات الدولة كانت بعيدة كل البعد عن أن تخلص العمال من الاستثمار وذلك عن طريق انشاء تعاونيات الانتاج. أما لاسال الذى كان ينكر ضرورة النقابات والاضرابات، انطلاقا من « قانون الأجور الحديدى » الخاطئ الذى صاغه هو، فقد فشلت « نظرياته » الاقتصادية بتأثير من الاضرابات الناجحة التى قام بها عمال انكلترا وفرنسا وسويسرا، والتى كانت الأممية تروج تجربتها. وهكذا كانت تنبثق ظروف ملائمة لانشاء حزب جديد، اشتراكى، على النقيض من الشيعة اللاسالية التى هى اتحاد العمال فى عامة المانيا.

وقد وقعت هذه المهمة على كاهل اوغوست بيبيل الخراط وعلى كاهل ويلهلم ليبكنخت أحد مناضلى ثورة ١٨٤٨. ففى مؤتمر الجمعيات العمالية التثقيفية المنعقد فى عام ١٨٦٨ فى نورنبرغ، تقرر، على الرغم من معارضة الليبراليين، فصل القسم ذى الميول الاشتراكية من هذه الجمعيات عن الحركة البرجوازية الليبرالية وارساء دعائم حزب عمالى مستقل.

وقد تبنى المؤتمر المنعقد فى عام ١٨٦٩ فى ايزيناخ برنامج حزب العمال الاشتراكى الديموقراطى الالمانى المعروف منذئذ باسم «الحزب الايزيناخى».

يتسم تاريخ الحركة العمالية الالمانية حتى عام ١٨٧٥ بنضال حاد بين اللاساليين والايزناخيين. اما السبب التاريخى لهذا النضال فهو ان هؤلاء وأولئك كانوا يعتنقون وجهات نظر متعارضة كل التعارض حول المسألة الاساسية للحياة السياسية فى ألمانيا: مسألة السبل الواجب سلوكها للوصول الى توحيد البلاد.

هذا التوحيد «كان من الممكن ان يتم، نظرا للنسبة الطبقية القائمة آنذاك، على احد شكلين: اما عن طريق الثورة التى تقودها البروليتاريا والتى تنشىء جمهورية ألمانية كاملة، أو عن طريق حروب بين العائلات الاميرية فى بروسيا، حروب تعزز هيمنة الاقطاعيين البروسيين فى ألمانيا الموحدة.

كان لاسال واللاساليون، اذ رأوا ان للطريق البروليتارى والديموقراطى احتمالات ضعيفة، ينهجون سياسة متأرجحة، مكيفين انفسهم مع هيمنة بيسمارك. وكانت اخطاؤهم تكمن فى انحرافهم بحزب العمال صوب الطريق البونابارتية الاشتراكية الحكومية. وبالمقابل كان بيبل وليبكنيخت يدافعان دفاعا حازما عن السبيل الديموقراطى والبروليتارى منتبذين أدنى التنازلات للروح البروسية والنظام البيسماركى والتعصب القومى»*.

ووفقا لموقف لاسال وشويتزر القومى، كان اللاساليون يرفضون الدخول فى الأممية. أما الايزناخيون

---

* لينين، «اوغوست بيبل».

فقد انضموا الى الأممية وأعلنوا فى برنامجهم عن تضامنهم مع مبادئها. ولكن ماركس وأنجلس اعربا لليبكنيخت غير مرة عن عدم رضائهما من اشتراك الايزناخيين غير الكافى فى نشاط الاممية العام ومن ضعف دعايتهم لمبادئها فى ألمانيا ولتفاهة مساهمتهم المالية.

كان مؤسسا الماركسية ينتقدان ويرشدان الايزناخيين كذلك فى عدة من النقاط الأخرى. فمثلا، كانت عملية تشكيل الايزناخيين فى حزب عمالى مستقل تجرى ببطء، مما حمل ماركس وأنجلس على تذكير ليبكنيخت غير مرة بضرورة قطيعة أحزم مع المنظمات البرجوازية الديموقراطية. كان ماركس وأنجلس ينتقدان ليبكنيخت عندما كان هذا، بسبب حقده الحميد على البروسيين، يقع فى التحزب المنطقى ويمجد منافس بروسيا اى النمسا. ولكن عدم نضوج الايزناخيين يظهر بشكل خاص فى الميدان النظرى: كان برنامجهم يحمل ايضا سمات تأثير اللاسالية (كان برنامجهم يطالب «بالدولة الشعبية الحرة» وتعاونيات الانتاج). على أن تأثير اللاسالية لم يكن عندهم أبدا قويا مثلما كان عليه فى اتحاد العمال الالمانى العام.

وبفضل توجيه ماركس وأنجلس وارشاداتهما الدائمة وبفضل الخطة الصحيحة التى سلكها الايزناخيون فى القضايا الجذرية المعروضة آنذاك على البروليتاريا الألمانية، نجحوا بالرغم من كل أخطائهم فى «وضع أساس مكين لحزب عمالى اشتراكى ديموقراطى حقا. وكان المقصود آنذاك هو **أساس** الحزب بالضبط»*.

كانت نجاحات الايزناخيين فى النضال ضد اللاسالية

* لينين، «اوغوست بيبل».

مدينة فى قسط كبير منها الى نشر الجزء الأول من كتاب ماركس الاساسى «رأس المال» فى عام ١٨٦٧، وهذا الكتاب هو ثمرة سنين طويلة من العمل النظرى الجبار.

لقد أنجز ماركس الجزء الأول من كتاب «رأس المال» فى أشق الظروف.

كان ماركس، الى جانب أبحاثه النظرية العديدة، يقوم بعمل ضخم معقد فى قيادة الاممية. وان هذه النشاطات النظرية والعملية الشاقة قد اساءت الى صحته التى شوشتها الهموم السابقة؛ ناهيك عن ان وطأة البؤس المادى كانت تضغط عليه اقوى من ذى قبل. ففى سنة ١٨٦٢، بسبب من الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة الاميركية، انتهت كتابته لـ«نيويورك تريبون». صحيح ان مساعدة أنجلس، منذ ان اصبح وكيلا ثم شريكا فى الشركة التجارية التى كان يشتغل فيها، قد ازدادت بصورة ملحوظة، الا أن حاجات أسرة ماركس قد ازدادت ايضا مع نماء اولاده. ولذا غالبا ما كان يضطر الى رهن اشيائه المنزلية، وحتى ثيابه الامر الذى كان يلزمه بيته. وفى بعض الاحيان كان لا يستطيع أن يكتب لعدم وجود دراهم يشترى بها ورقا.

وقد توجه فى احدى هذه الفترات العصيبة الى أنجلس فكتب له: «أؤكد لك أننى افضل لو أن تقطع اصابعى على أن اكتب لك هذه الرسالة. قد تحملنى على اليأس فكرة اننى ابقى حياتى معلقا بالآخرين. ولكن الفكرة الوحيدة التى تعزينى هى اننا شريكان وأننى فى عملنا أعطى وقتى للقسم النظرى والحزبى من قضيتنا المشتركة».

وكان أنجلس يخف الى نجدة ماركس بحب ووفاء الصديق وبالعناية التى لا حد لها من قبل عضو فى الحزب

تجاه قائد حزبه العظيم. وقد كانت رسائله الى ماركس التى كانت تبدأ عادة بخبر تحويل مقدار من الجنيهات الاسترلينية، تدل كلها على عناية طيبة متأثرة بماركس وأسرته. ونظرا لتردى صحة ماركس الشديد، قلق انجلس واستشار الاطباء، واستدعى ماركس بالحاح الى مانشستر ليستريح ويستشفى من العلة التى أصابته، والتى يمكن ان تكون نهايتها قاضية.

«...اسمح لى ولاسرتك تنازلا وحيدا: **دعنا نشفيك.** ماذا يكون مصير الحركة كلها اذا حدث لك شىء؟ فاذا سلكت كما تفعل فان هذا سيحدث **لا محالة.** وبالفعل، لا يملك بالى هدوءا ليل نهار وسيستمر ذلك حتى انزعك من هذا الوضع. واننى لاقلق واحسب أن صحتك ساءت من جديد حين لا تصلنى أخبارك».

وقد اشار لينين فى مقاله «كارل ماركس» الى انه لولا المساعدة المالية الدائمة المخلصة من أنجلس لما انجز ماركس «رأس المال» ولوقع فريسة البؤس.

ولم تكن مساعدة أنجلس لماركس فى كتابة «رأس المال» مادية فحسب. فقد كان ماركس يستشيره عادة فى اهم المسائل النظرية عارضا استنتاجاته فى رسائله وطالبا من انجلس ابداء آرائه فى هذه المسألة او تلك. وكثيرا ما كان ماركس يستشير صديقه فى جملة من المسائل الاقتصادية العملية التى كان أنجلس يعرفها اوسع المعرفة.

وكان انجلس كثيرا ما يلوم صديقه عن ود لذمته العلمية المبالغة، ولعادته على عدم اعتبار أى مخطوطة بحكم المنتهية قبل ان يقتنع بأنه قرأ جميع الكتب ووزن جميع الاعتراضات حول موضوعه الذى يعالجه.

كان أنجلس على اتم المعرفة لهذه الخصائص من عمل ماركس التى تأجل كثيرا بسببها طبع الجزء الاول من كتابه «رأس المال»، فكان دائما يستعجل ماركس ويطالب بنشر الجزء الاول قبل انجاز الاجزاء التالية.

فأجاب ماركس: «لا استطيع أن اعتزم ارسال اى قسم دون أن ارى الكل جاهزا. ومهما كانت عيوب مؤلفاتى فان لها ميزة واحدة وهى انها تؤلف وحدة فنية».

وفى السابع والعشرين من شهر آذار - مارس - عام ١٨٦٧ أخبره ماركس أخيرا أن مخطوطة الجزء الأول قد صارت جاهزة وأنه سيذهب الى هامبورغ ليسلمها الى الناشر. فرد عليه أنجلس بصيحة تهليل وفرح: «مرحى!»

كان ماركس يرسل بروفات الطبع الى مانشستر بانتظام كلما تلقى منها شيئا ليعرف رأى أنجلس اذ كان يقدره سامى التقدير.

وفى السادس عشر من شهر آب - أغسطس - ١٨٦٧ أعلمه أنه قد أنجز تصحيح بروفة الملزمة الأخيرة (التاسعة والاربعين) من الجزء الاول. وانه ارسل كذلك المقدمة. «**وهكذا، لقد انتهى هذا الجزء**. وانى مدين **لك وحدك** بان ذلك صار ممكنا! ولولا تضحيتك النفس من اجلي انا، لاستحال علي أن اقوم بذلك العمل الجبار فى هذه الاجزاء الثلاثة. انى لاعانقك من كل قلبى الذى يفيض بعرفان الجميل لك... لك أطيب التحيات يا صديقى الحميم الغالى!»

لم يكن انجاز الجزء الاول من «رأس المال» حدثا عظيما فى حياة ماركس وأنجلس فحسب، بل كان كذلك حدثا عظيما ذا اهمية تاريخية عالمية بالنسبة للحركة العمالية العالمية كلها ولتطور مذهب البروليتاريا الثورى.

«فمنذ أن وجد على ظهر الارض رأسماليون وعمال، لم يظهر كتاب له أهمية بالنسبة للعمال مثل أهمية هذا الكتاب» – هذا ما كتبه انجلس عن «رأس المال»*.

لقد قضى ماركس خمسة وعشرين عاما من البحث العلمى الدائب الشاق لكى يتمكن من أن يضفى على نظريته الاقتصادية طابعا متناسقا كلاسيكيا. وكانت المبادئ الاساسية لهذه النظرية قد وجدت تعبيرها الاول فى كتابيه: «بؤس الفلسفة» (١٨٤٧) و«العمل المأجور ورأس المال» (١٨٤٩) وكذلك فى «بيان الحزب الشيوعى» (١٨٤٨). وكانت المقدمة المشهورة لكتاب «مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى» الصادر فى عام ١٨٥٩، تحتوى صيغة عبقرية لجوهر المادية التاريخية التى كانت الخط الهادى لماركس لا فى اعماله التاريخية فحسب، بل ايضا فى ابحاثه الاقتصادية.

ونتيجة لهذا العمل الجبار كان «رأس المال»، ذلك المؤلف الضخم حقا. فان هذا الكتاب الخالد يجمع بين البحث العلمى الصارم وبين الوقدة الثورية، والموضوعية العميقة والروح الحزبية. لقد طبق ماركس اداة الديالكتيك المادى الجبارة وخلق النظرية الاقتصادية التى حققت انقلابا جذريا فى الاقتصاد السياسى.

لقد كان العيب الرئيسى فى الاقتصاد السياسى البرجوازى كله يكمن فى كون ممثليه، وحتى افضلهم امثال آدم سميث ودافيد ريكاردو، يعتبرون القوانين الاقتصادية للمجتمع البرجوازي خالدة لا سبيل الى تغييرها، كما يعتبرون هذا

---

* انجلس، «حول «رأس المال» لكارل ماركس».

المجتمع بالذات نظاما اقتصاديا طبيعيا وحيدا ينسجم، على حد زعمهم، والطبيعة الانسانية. كان هذا الموقف يسد السبيل الى دراسة موضوعية حقا وعلمية حقا للمجتمع الرأسمالى.

ان ايديولوجى البروليتاريا، اى الطبقة المتحررة من الضيق والاوهام الجشعة الانانية الخاصة بالطبقات المستثمرة، ان هذا الايديولوجى وحده كان بوسعه الكشف عن القوانين الموضوعية لتطور الرأسمالية والبحث فى المجتمع الرأسمالى فى انبثاقه وتطوره وانحطاطه والبرهان على طابعه المحدود والذائل تاريخيا.

لقد برهن ماركس فى «رأس المال» أن جميع عيوب المجتمع الرأسمالى وجميع قروحه - فوضى الانتاج، والازمات والبطالة، واملاق البروليتاريا النسبى والمطلق، وخراب البرجوازية الصغيرة فى المدن وخراب الفلاحين - ان ذلك كله ينبع من تناقض الرأسمالية الاساسى الا وهو التناقض بين الطابع الاجتماعى للانتاج وبين الطابع الرأسمالى الخاص للتملك.

ان مذهب القيمة الزائدة الذى اعتبره لينين حجر الزاوية فى نظرية ماركس الاقتصادية، كان من اعظم اكتشافات كارل ماركس. فقد برهن ماركس علميا أن المصدر العام لجميع المداخيل غير الآتية من العمل فى ظل الرأسمالية (كالارباح والريع العقارى وغيرهما) هو كدح العامل غير المدفوع الاجر وان القيمة الزائدة هى الفرق بين القيمة التى يخلقها كدح العامل وبين قيمة عمله التى تعبر عنها قيمة المواد اللازمة لمعيشته ومعيشة أسرته. ان قانون القيمة الزائدة انما هو القانون الاقتصادى

الاساسى للرأسمالية الذى يعبر عن جوهر الانتاج الرأسمالى. لقد كشف مذهب ماركس حول القيمة الزائدة عن سر الاستثمار الرأسمالى، هذا السر الذى كان المدافعون عن الرأسمالية يتسترون عليه بعناية، كما اظهر الاساس الاقتصادى للتناحر بين البروليتاريا والبرجوازية.

ان هذا التناحر، وفقا للقانون العام للتراكم (للتكديس) الرأسمالى الذى اكتشفه ماركس، يتفاقم اكثر فاكثر مع تطور المجتمع الرأسمالي. ففى احشاء المجتمع الرأسمالى لا تنضج المقدمات المادية للثورة الاشتراكية فحسب، بل تتشكل كذلك القوة الاجتماعية المدعوة الى تحقيق الثورة البروليتارية الظافرة والى اقامة ديكتاتورية البروليتاريا والى القضاء للابد على جميع انواع الظلم والاستغلال.

وعند ما عرض ماركس نتائج جميع ابحاثه، وصف الميل التاريخى للتكديس الرأسمالى على ما يلى:

« بقدر ما يتناقص باستمرار عدد دهاقنة الرأسمال... بقدر ما يشتد ويستشرى البؤس والظلم والاستعباد والانحطاط والاستثمار، وبقدر ما يزداد باستمرار تمرد الطبقة العاملة، التى تتثقف وتتحد وتتنظم بفعل آلية عملية الانتاج الرأسمالى نفسها. وهكذا يصبح احتكار الرأسمال العقبة بوجه اسلوب الانتاج الذى ازدهر معه وبه. ان تمركز وسائل الانتاج، وجعل العمل اجتماعيا ينتهيان الى حد انهما لا يعودان يتطابقان مع اطارهما الرأسمالى، فيعمدان الى شقه. ان الساعة الاخيرة للملكية الخاصة الرأسمالية قد دقت. ان مغتصبى الملكية تنزع منهم ملكيتهم »*.

---

* ماركس، «رأس المال»، المجلد الاول.

ان كتاب «رأس المال» قد سلح الطبقة العاملة بالادراك العلمى للحتمية التاريخية لزوال الرأسمالية ولانتصار المجتمع الجديد، الشيوعى. ففى هذا المؤلف نالت الشيوعية العلمية تدعيما شاملا وعميقا لها. وقد كان هذا الكتاب العبقرى بمثابة خطوة جبارة فى تطور جميع الاجزاء الثلاثة التى تؤلف صرح الماركسية الا وهى الاقتصاد السياسى والفلسفة والاشتراكية.

ان كتاب لينين «الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية» كان مواصلة جديرة بـ«رأس المال». ففى هذا الكتاب كما فى غيره من الكتب اغنى لينين الاقتصاد السياسى الماركسى بنتائج ابحاثه فى طور الرأسمالية الاحتكارى والازمة العامة للرأسمالية. وكانت النظرية الجديدة المتكاملة المنتهية حول الثورة الاشتراكية هى اهم استنتاجات هذه الابحاث.

وكيف استقبل العلم البرجوازى ظهور «رأس المال»؟ بما ان هذا العلم كان بعيدا عن ان يكتفى بمجرد الافتراءات واللعنات ردا على حجج ماركس العلمية الصحيحة، فقد فضل على ذلك... طريقة الصمت والاهمال، وكأن «رأس المال» لم يكتب قط.

ولنسف سور الصمت حول «رأس المال» قام أنجلس بنشر تعليقات مبسطة لهذا التأليف فى الصحف العمالية او القريبة منها، القليلة العدد فى ذلك الحين. ولكنه لم يكتف بذلك. فقد خطرت على ذهنه فكرة ارسال عدد من التعليقات النقدية الى بعض الصحف البرجوازية باسم أشخاص آخرين. وقد سأل أنجلس ماركس فى رسالته المؤرخة فى الحادى عشر من شهر ايلول – سبتمبر – عام ١٨٦٧: «ما رأيك فى انتقاد أكتبه أنا من وجهة

[illegible]

×

Ich brauche die — 2 Uhr Nachts. 16 Aug. 1867
Reinabzüge nicht zurück, sobald das Buch ganz erschienen

Dear Fred,

Eben den letzten Bogen (49.) des Buchs fertig corrigirt. Der Anhang – Werthform – kleingedruckt, umfasst 1 1/4 Bogen.

Vorrede ditto gestern corrigirt zurückgeschickt. Also dieser Band ist fertig. Blos Dir verdanke ich es, dass dieß möglich war! Ohne Deine Aufopferung für mich konnte ich unmöglich die ungeheuren Arbeiten zu den 3 Bänden machen. I embrace you, full of thanks!

Beiliegend 2 Bogen Reinabzug.

Die 15 £ mit bestem Dank erhalten.

Salut, mein lieber, theurer Freund!

Dein K. Marx

رسالة ماركس الى انجلس حول انتهاء المجلد الاول من «رأس المال»

نظر البرجوازية لكسر جليد السكوت؟» فأجابه ماركس: «ان مشروعك بانتقاد الكتاب **من وجهة نظر البرجوازية لحيلة حربية بارعة!**»

ولتنفيذ هذه «الحيلة الحربية» استفاد انجلس من بعض اصدقائه الاقربين ورفاقه فى الفكر فكان يرسل اليهم مقالاته بصفتها نماذج، يمكنهم فيما بعد ان ينشروها فى الصحافة البرجوازية بصيغ مختلفة. وكان اذ ذاك يستهدف بالدرجة الاولى لفت انتباه القراء وحمل الاقتصاديين البرجوازيين على الادلاء برأيهم فى الكتاب.

وفى النتيجة، توصل الى نشر سلسلة من التعليقات فى الصحف البرجوازية. فأظهر انجلس فى هذه التعليقات كفاءة خارقة لتبسيط آراء ماركس بصورة انتقادها ولكن بالشاكلة التى تؤول بالقارئ الى التفكير بان ماركس هو المحق لا «نقاده». كانت تلك التعليقات فى الواقع موجهة ضد ممثلى الاقتصاد السياسى المبتذل الذين ينادون بانسجام المصالح بين العمل ورأس المال، وضد مفاهيم لاسال النظرية.

كان أنجلس يعتقد ان انجاز الجزء الاول من «رأس المال» سيغير حياة ماركس وحياته أيضا، اذ انه ظهرت الآمال بان أجور ماركس من العمل الادبى ستزداد مذ ذاك وبان أنجلس يستطيع ترك اعماله التجارية الى الابد ليعيش مع ماركس من قلمه ومن الموارد البسيطة التى سوف يقبضها بعد ترك الشركة. فقد كتب فى احدى رسائله لصديقه يقول: «ليست لى رغبة اشد من الرغبة فى أن اتخلص من هذه التجارة الكلبة».

بيد أنه لم يستطع تنفيذ ذلك الا بعد عامين ونيف من صدور الجزء الاول من «رأس المال».

وفى الاول من شهر تموز – يوليو – ١٨٦٩ كتب لماركس يقول: «مرحى! اليوم اترك «التجارة الحلوة» وأعود حرا!» وقد رد عليه ماركس مهنئا اياه بافلاته من ربقة «الاسر المصرى». واذ ذاك فقط ادرك اصدقاء أنجلس الذين لم يسمعوه ابدا يشتكى متذمرا، مقدار ما عانى خلال السنوات التى امضاها فى مكتب مانشستر. كانت ايليانور (توسى) ابنة ماركس الصغرى موجودة حينذاك فى بيت أنجلس فوصفت هذا اليوم على هذا النحو:

«ولن انسى مدى الدهر صرخته من نشوة الظفر: «لآخر مرة!» عندما كان يدس حذاءه فى رجليه ليذهب لآخر مرة الى المكتب.

وبعد عدة ساعات كنا ننتظره عند الباب، ورأيناه يجتاز الحقل الصغير الملاصق لبيته. يلوح بعصاه ويغنى ويشرق نفسه فرحا وبشرا. ثم جلسنا الى الطاولة لنحتفل بهذا اليوم العظيم فشربنا الشمبانيا وسررنا جدا.

كنت فتية السن كثيرا آنذاك فلا يستوعب فهمى كل شيء. اما اليوم فكلما فكرت فى ذلك لا اتمالك نفسى عن البكاء» *.

ان رسائل أنجلس لتلك الحقبة، المكتوبة لاهله وأصدقائه، تعبر كلها عن سعادة رجل تخلص من عبء ثقيل. كتب لامه يقول: «اليوم هو أول يوم من حريتى. ما أجمل هذه الحرية! اننى منذ البارحة رجل آخر، وأشعر كأننى اصغر من سنى بعشر سنوات».

---

* «قصص عن ماركس وانجلس». الطبعة العربية، موسكو، ص ١٩٠–١٩١.

كان مغتبطا بشكل خاص من أنه تخلص من اعماله المملة وانه سوف يستطيع أن ينصرف الى النشاط النظرى والسياسي فى الوقت الذى كان فيه كل شيء ينذر باحداث سياسية عاصفة فى اوروبا. كتب فى العاشر من شهر تموز - يوليو - ١٨٦٩ فى رسالة الى كوغلمان يقول: «لا أملك أن اعبر لك عن مبلغ سرورى من تركى التجارة اللعينة واستطاعتى أن اكافح من جديد، ولا سيما من ان ذلك حدث فى الوقت الراهن بالضبط، اذ يتفاقم الوضع فى اوروبا من يوم الى آخر، وصار فى الامكان أن تنفجر الزوبعة فى كل وقت».

على ان أنجلس كان مضطرا الى البقاء بعض الوقت فى مانشستر لتسوية اموره الشخصية فاستفاد من ذلك ليقوم بابحاث علمية جدية عن ايرلندا وتاريخها. وقد اصطحبته زوجته ليزى (أخت المرحومة مارى بورنز) وابنة ماركس ايليانور فسافر الى هذه البلاد المظلومة ليتعرف عليها عن كثب.

لم يكن اهتمامه بايرلندا عرضيا: فقد كانت المسألة الايرلندية فى جدول اعمال الاممية. كان ماركس وأنجلس يريان أن عجز الطبقة العاملة فى انكلترا مرده الى الشقاق القومي بين العمال الانكليز والايرلنديين، هذا الشقاق الذى كانت تصطنعه الطبقات المسيطرة. وكان يجدان أن على الاممية أن تيقظ فى البروليتاريا الانكليزية الادراك بأن «**تحرر ايرلندا الوطني هو، بالنسبة للبروليتاريا الانكليزية** ليس مسألة مجردة للعدالة والانسانية بل هو **أول شرط لتحررها الاجتماعى نفسها**».

كان ماركس وأنجلس يدعوان البروليتاريا الانكليزية

الى الكفاح النشيط فى سبيل استقلال ايرلندا ويشرحان لها أن انفصال ايرلندا عن انكلترا والثورة الزراعية فى ايرلندا سينزلان ضربة قاصمة فى الطبقات الانكليزية المسيطرة (البرجوازية والاقطاعية) وسيشجعان اندلاع الثورة فى انكلترا نفسها. وهذه الثورة بدورها ستؤثر شديد التأثير فى الحركة الثورية فى اوروبا.

كتب لينين يقول: «ان سياسة ماركس وأنجلس فى قضية ايرلندا قد أعطت اعظم مثال، ما يزال يحتفظ حتى الآن باهمية **عملية** هائلة، على السلوك الذى ينبغى ان تنهجه بروليتاريا الامم المضطهِدة ازاء الحركات الوطنية...» *.

ان هذه السياسة كانت للينين نقطة الانطلاق لوضع نظرياته عن المسألة الاستعمارية والوطنية فى عصر الاستعمار.

كان أنجلس قد شرع يدرس ايرلندا فى تلك الحقبة بالذات التى تفاقمت فيها المسألة الايرلندية بسبب من النهوض الجديد الذى طرأ على الحركة الزراعية فى هذه البلاد وعلى اثر التدابير الدامية التى اتخذتها الحكومة الانكليزية لقمع الثوريين الايرلانديين وهم «الفينيون». كانت زوجة أنجلس ليزى بورنز، «الايرلندية ذات المعتقدات الثورية» كما كتب انجلس عنها، تؤيد بشدة نضال شعبها من اجل الاستقلال الوطنى وتساعد الفينيين مساعدة نشيطة، فكانوا يجدون المأوى والمعونة فى بيت أنجلس. وما كان هذا يمنع أنجلس من انتقادهم لميلهم الى

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٤١٨.

المؤامرات و « الفتن » ولعدم وجود صلات لهم بالجماهير الواسعة من الشعب الايرلندى المحب للحرية.

لقد كان أنجلس يعلق اهمية نظرية وسياسية كبيرة على المسألة الايرلندية فكان يفكر فى انشاء مؤلف كبير حول تاريخ ايرلندا قصد تبيان عملية تحويل هذا البلد الى أول مستعمرة لانكلترا، الى « الحصن الرئيسى للارستقراطية الاقطاعية الانكليزية ». وقد كتب لماركس فى الرابع والعشرين من شهر تشرين الاول - اكتوبر - عام ١٨٦٩ يقول: « من تاريخ ايرلندا يرى المرء أى ويل يحيق بشعب من الشعوب اذا استعبد شعبا آخر ».

ومن الفصول الاربعة المقرر تأليفها، لم يستطع انجلس أن يكتب سوى الفصل الاول وهو « الاحوال الطبيعية » وجزء من الفصل الثانى وهو « ايرلندا القديمة ».

وكما تنبأ، لم تلبث احداث سياسية جسام أن انفجرت فى اوربا فصرفته لمدة طويلة عن اعماله النظرية. ونعنى بهذه الاحداث الحرب الفرنسية البروسية وكومونة باريس.

* * *

فى التاسع عشر من شهر تموز - يوليو - عام ١٨٧٠ نشبت الحرب الفرنسية البروسية، وفى الثالث والعشرين من الشهر نفسه نشر مجلس الاممية العام نداء الى عمال العالم كله كتبه ماركس خصيصا بمناسبة هذه الحرب.

وقد وصف ماركس هذه الحرب بانها حرب بين اسرتين مالكتين من جهة فرنسا، اذ قام بها لويس بونابارت فى صالحه؛ وحرب دفاعية من جهة المانيا اذ انها حاربت ضد فرنسا بونابارت التى كانت تهتم بتجزئة المانيا

وتعيق توحيدها الوطنى. غير ان ماركس أشار ايضا الى الاختلاف العميق بين المصالح الحقيقية لالمانيا فى هذه الحرب وبين المطامح النهبية التى تستهدفها بروسيا الرجعية فى هذه الحرب فأردف:

«ان هذه الحرب من جانب ألمانيا حرب دفاعية، ولكن من ذا الذى وضع ألمانيا فى وضع المضطر للدفاع عن نفسها؟ من ذا الذى مكّن لويس بونابارت من شن الحرب على المانيا؟ **انه بروسيا!**» *

دعا ماركس العمال الى الحيلولة دون تحويل هذه الحرب الدفاعية من جانب ألمانيا الى حرب سلب بدافع من الاغراض التوسعية البروسية. وقد ذكر سلسلة من النداءات والقرارات التى يتبناها العمال الفرنسيون والالمان، ولاحظ بارتياح ان العمال الطليعيين قد وقفوا فى هذه الحرب موقفا امميا صحيحا. «وهذا الواقع العظيم الذى ليس له مثيل يفتح بحد ذاته الآفاق لمستقبل اكثر اشراقا. وهو يبين ان مجتمعا جديدا سيكون مبدؤه الاممى - **السلم** لأن حاكما واحدا، وهو **العمل**، سيكون لكل شعب، ينبثق على النقيض من المجتمع القديم ببؤسه الاقتصادى وجنونه السياسى!

وبشير ذلك المجتمع الجديد هو جمعية العمال الاممية» **.

وكتب أنجلس لماركس فى رسالة له مؤرخة فى

---

* ماركس، «الحرب الاهلية فى فرنسا». الطبعة العربية. موسكو. ص ٢٦.

** ماركس، «الحرب الاهلية فى فرنسا». الطبعة العربية. موسكو. ص ٢٩.

الخامس عشر من آب ـ أغسطس ـ عام ١٨٧٠ فرسم خطة العمال الالمان وحزبهم فى الظروف المعقدة للحرب الفرنسية البروسية على هذا النحو: التمييز اشد تمييز بين المصالح الوطنية الالمانية والمصالح البروسية الملكية؛ معارضة ضم الالزاس واللورين؛ المطالبة بعقد الصلح ما ان تستولى على زمام السلطة حكومة جمهورية فى باريس، معادية للتعصب القومى؛ الاشارة دائما الى وحدة العمال الالمان والفرنسيين الذين لا يحبذون الحرب ولا يحاربون بعضهم بعضا. وقد وافق ماركس على هذه الخطة بكليتها واوصى حزب العمال الاشتراكى الالمانى بانتهاجها.

واذا كان النائبان بيبيل وليبكنيخت، خلال الاقتراع الاول على الاعتمادات العسكرية فى الريخستاغ (البرلمان) فى تموز ـ يوليو ـ ١٨٧٠ قد امتنعا عن التصويت رافضين منح الثقة سياسة الحكومة البروسية، فان النواب اللاساليين المخلصين لموقفهم القومى الضيق قد وافقوا على هذه الاعتمادات مؤيدين بذلك بيسمارك تأييدا كاملا.

ولم يلبث بيسمارك أن اعلن امام الملأ عن نيته فى ضم الالزاس واللورين الى بروسيا. ان هذا الحادث وكذلك حادثين آخرين: سقوط لويس بونابارت الذى تنبأ به ماركس فى أول نداء، ثم اعلان الجمهورية فى فرنسا (فى الرابع من شهر ايلول ـ سبتمبر ـ عام ١٨٧٠) قد حملت المجلس العام للاممية على اعلان نداء جديد. وقد أشار ماركس فيه الى أن الحرب من قبل المانيا قد اكتسبت منذ الآن طابعا اعتدائيا وأهاب بالعمال الالمان الى الاحتجاج على ضم الالزاس واللورين والى المطالبة بصلح شريف لفرنسا والاعتراف بالجمهورية الفرنسية. ودعا

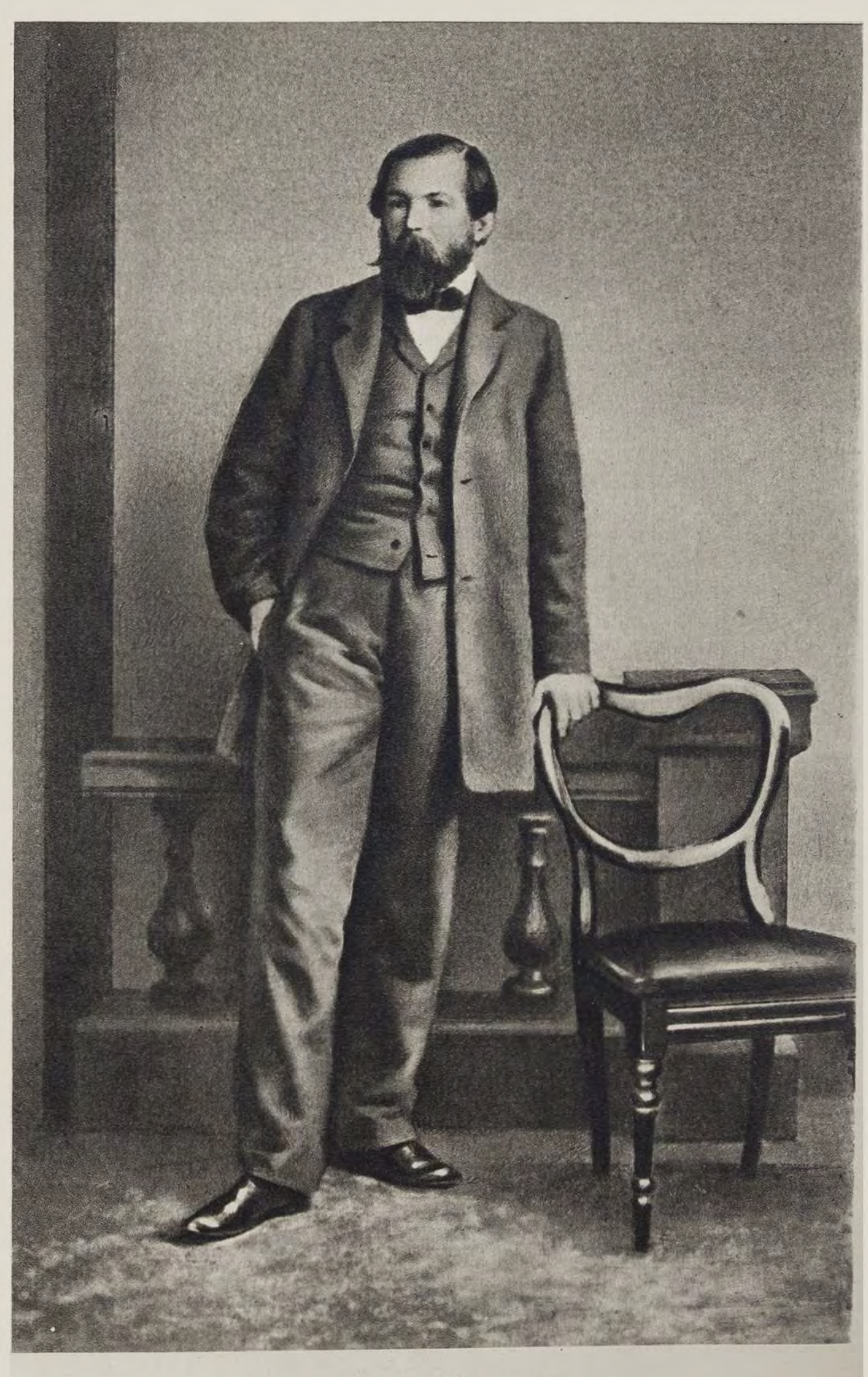
ماركس العمال الفرنسيين، من جهة أخرى، الى عدم التأثر بالتطرف القومى والى عدم الثقة بالحكومة الجديدة المؤلفة من ممثلى الطبقات المالكة. وتنبأ فى هذا النداء بتبصره العبقرى أن ضم الالزاس واللورين سيدفع بفرنسا الى احضان روسيا القيصرية. اما جزء النداء الذى احتوى الحجج القائلة بان المانيا ليس لها مصلحة فى هذا الضم من الناحية الستراتيجية الحربية ايضا، فقد كتبه أنجلس.

ان تبدل طابع الحرب قد أرغم العمال الالمان على تبديل خطتهم. فخلال الاقتراع الثانى على الاعتمادات العسكرية فى الريخستاغ، صوت بيبيل وليبكنيخت ضدها فاضحين بذلك امام الملأ حرب السلب والنهب ضد الشعب الفرنسى.

وبعد ذلك بقليل اعتقل بيبل وليبكنخت مع جملة من الاشتراكيين الديموقراطيين الآخرين وزج بهم فى السجن. فبادر أنجلس الى مساعدة المعتقلين وأسرهم مساعدة مادية ومعنوية. كتب لزوجة ليبكنيخت حينذاك يقول: «لقد أظهر العمال الالمان فى هذه الحرب همة وتبصرا وضعاهم فورا على رأس الحركة العمالية الاوروبية، ولا شك فى انك تدركين مدى اعتزازنا وفخرنا بذلك».

كانت الاممية التى يرأسها ماركس، قد صمدت للامتحان التاريخى أثناء الحرب الفرنسية البروسية واعطت مثالا للاممية البروليتارية فى ظروف الحرب المعقدة.

كان أنجلس منذ بداية العمليات العسكرية يرسل بانتظام الى «جريدة بول مول» مقالات ــ عنوانها العام «ملاحظات حول الحرب» ــ يعلق فيها على هذه العمليات. وكانت هذه المقالات تثير الاهتمام اذ كانت تنبؤاتها دائما



فريدريك انجلس
(فى سنوات العقد السابع)

تتأكد. فقد تنبأ انجلس، مثلا، قبل ثمانية أيام، بهزيمة الجيش الفرنسي في سيدان. وبما انه كان لا يذيل مراسلاته بتوقيعه، فقد كان الناس يظنون أن كاتبها اختصاصي ضليع في هذه المادة.

كتب اليه ماركس يقول: «اذا استمرت هذه الحرب بعض الوقت، فسوف يعترفون بك عن قريب **أبرز اختصاصي عسكري في لندن**».

كانت مقالات انجلس تثير عواصف الاعجاب بين اصدقائه ممن كانوا يعرفون من يقف وراءها.

وفي هذه الحقبة بالذات اطلقت عليه جيني، احدى بنات ماركس، لقب «الجنرال» وبقي ملازما له حتى آخر حياته فيما بين اصدقائه القريبين.

وفي شهر ايلول – سبتمبر – ١٨٧٠ غادر أنجلس مانشستر قاصدا لندن للاقامة فيها على مسيرة عشر دقائق من بيت ماركس. وصار في مستطاع الصديقين حينذاك الالتقاء وبحث المسائل التي كانا يتناقشان فيها قبلئذ في رسائلهما.

كان أنجلس يأتي لمقابلة ماركس كل يوم، فكانا يمكثان في حجرة عمل ماركس أو يذهبان للتنزه معا. وقد أبانت ايليانور، ابنة ماركس، في مذكراتها كيف كان المفكران يجوبان الغرفة في اتجاهين متعاكسين ساعات طويلة ويتحادثان في مختلف المسائل. وكانا في بعض الاحيان يطرقان مواضيع تتجاوز نطاق زيارة واحدة كما نرى فيما كتبه بول لافارغ زوج لاور، بنت ماركس:

«اذكر مناقشتهما حول الالبجوازيين التي دارت عدة

ايام... كان كل واحد منهما يقوم فى الفترات الفاصلة بين مقابلاتهما بابحاث حول المسألة المطروحة على بساط البحث قصد الوصول الى نتيجة واحدة. ان أى نقد لافكارهما واعمالهما لم تكن له من أهمية فى نظرهما تعادل أهمية هذا التبادل فى الآراء، فقد كان لكل منهما رأيه الرفيع فى الآخر.

ما كان ينقضى عجب ماركس فى سعة معارف أنجلس ولا من مرونة ذكائه الخارقة، التى تتيح له ان ينتقل بسهولة من موضوع الى آخر. وقد كان أنجلس بدوره يتعجب من قدرة التحليل والتركيب عند ماركس »*.

ما أن وصل أنجلس الى لندن حتى أدخل فى مجلس الاممية العام بناء على اقتراح من ماركس. وقد انخرط بفرح عظيم فى لجة اعماله السياسية والتنظيمية. وساعد ماركس فى قيادة الحملة من أجل الاعتراف بالجمهورية الفرنسية، وانتقد انتقادا عنيفا زعماء التريديونيونات الانكليزية الاعضاء فى الاممية لتهاونهم فى هذه المسألة وفتورهم حيال ضرورة معارضة سياسة حكومتهم الخارجية معارضة نشيطة. وفى اواخر شهر كانون الثانى - يناير - ١٨٧١ طرح انجلس على المجلس العام قرارا يفضح السياسة الخارجية للحكومة الانكليزية، وقد أثار هذا القرار جدلا طويلا صاخبا فى المجلس العام.

كان انجلس فى مقالاته « ملاحظات حول الحرب » ينهال بسياط النقد على سياسة السلب التى تنتهجها حكومة بيسمارك والوسائل البربرية التى يستخدمها العسكريون

---

* « قصص عن ماركس وانجلس ». الطبعة العربية، موسكو. ص ٤٩.

البروسيون فى خوضهم الحرب على النمط «البروسى»، ويحيى الانصار الفرنسيين الذين هبوا، وفى ايديهم الاسلحة ضد الغزاة المحتلين الوقحين الذين اقتحموا بلادهم.

كان ماركس وأنجلس، اذ يروجان الاعتراف بالجمهورية الفرنسية، يفضحان فى الوقت نفسه رجالات الحكومة الفرنسية وجنرالاتها الذين كانوا يتآمرون بخيانة الوطن خوفا من العمال ويسعون الى ابرام الصلح مع البروسيين مهما كان الثمن كى تكون أيديهم طليقة للنضال ضد الشعب الفرنسى. كانت حكومة فرنسا آنذاك ليست «حكومة الدفاع الوطنى»، كما كانت تسمى نفسها، بل «حكومة الخيانة الوطنية» حسب تحديد ماركس الصائب.

ولم يلبث العمال الفرنسيون ان تأكدوا بذلك من السياسة الخارجية الاستسلامية لحكومة فرنسا ومحاولاتها تحطيم ارادة العمال المسلحين المدافعين عن باريس المحاصرة وذلك بالمجاعة والهزائم الحربية. وفى ليلة الثامن عشر من شهر آذار – مارس – حاولت حكومة تيير أن تنزل الضربة القاضية على البروليتاريين الباريسيين وان تستولى على مدفعية الحرس الوطنى فى مواقعها فى تلال مونمارتر. فثار الشعب ردا على ذلك وفرت الحكومة مذعورة الى فرساى وصار زمام السلطة لاول مرة فى التاريخ فى أيدى العمال.

وبعد الانقلاب الذى تم فى الرابع من شهر ايلول – سبتمبر – عام ١٨٧٠، حذر ماركس وأنجلس بروليتاريا فرنسا من خطر التمرد المبكر بينما الجيوش البروسية تطرق أبواب باريس. وقد نصحاها بان تستعمل الى أقصى حد الامكانيات العلنية التى يمنحها النظام الجمهورى لتعزيز تنظيمها الذاتى بوصفه الشرط الأساسى للنضال الظافر.

على أنه، ما ان أدى سير الاحداث ومنطق الصراع الطبقى، الى ثورة ١٨ آذار ـ مارس، حتى هب مؤسسا الشيوعية العلمية بملء حماستهما وهمتهما لمساعدة البروليتاريا الباريسية الجريئة التى كانت «على أهبة لمهاجمة السماء» (ماركس) بصفتهما مشتركين فى النضال الجماهيرى. وفى الواحد والعشرين من شهر آذار ـ مارس ـ تقدم أنجلس فى جلسة المجلس العام ببلاغ مفصل عن الحوادث فى باريس. وأخبره، اعتمادا الى الرسائل الواردة اليه، أن السلطة فى باريس قد صار زمامها فى أيدى الشعب وأن قادة اللجنة المركزية للحرس الوطنى وان لم يكونوا من «المشاهير»، الا انهم معروفون جيدا فى الاوساط العمالية. وبعد ما استمع المجلس العام الى تقرير أنجلس اصدر قرارا ـ بناء على اقتراح من ماركس ـ يدعو العمال الانكليز لتأييد الثوار الباريسيين وللاعراب عن العطف عليهم.

وفى اجتماع المجلس العام فى الحادى عشر من نيسان ـ أبريل ـ اشار أنجلس، فى سياق تقريره عن مجرى النضال فى باريس، الى أحد الاخطاء الرئيسية التى ارتكبتها الكومونة: «...كان الكلام كثيرا بعد الانتخابات ولكن لم يكن ثمة عمل. كان يجب القيام بعمليات ضد فرساى حينما كانت ضعيفة، ولكنهم افاتوا الفرصة السانحة، والآن يبدو أن الفرساليين أخذوا يتفوقون على الباريسيين». وأضاف أنجلس ان العمال هذه المرة «أحسن تنظيما مما كانوا عليه فى الانتفاضات السابقة بأسرها».

واشترك انجلس بقسط فعال فى النشاط الدائب الذى قام به المجلس العام للاممية بقيادة ماركس لتعبئة

البروليتاريا العالمية وعمال فرنسا من اجل مساعدة باريس الثائرة.

وكان ماركس وأنجلس يساعدان الثوار بالاشارة الى اخطائهم وبارسال المواد السرية التى كانا يتمكنان من الحصول عليها عن حالة الجيوش البروسية ويعطيان التعليمات حول الدفاع عن باريس، والخ..

ولكن النصائح والتوصيات التى كان ماركس وانجلس يوصلانها بمشقة زائدة الى باريس المحاصرة ما كانت تستطيع ان تزيل النقص المشؤوم فى الحركة العمالية الفرنسية وهو انعدام حزب بروليتارى طليعى. لم يكن البلانكيون ولا البرودونيون قادرين على تسيير دفة الكومونة بصواب وعلى رسم الخطة البروليتارية الستراتيجية والتكتيكية الصحيحة وتطبيق هذه الخطة تطبيقا صارما.

على أن ماركس وأنجلس، اذ كانا ينتقدان اخطاء الكومونة، كانا يقدران سامى التقدير بطولة العمال الباريسيين ومبادرتهم الخلاقة. وقد صاغا، على اساس تجربتهم، بعض الاستنتاجات المهمة بالنسبة للنظرية الثورية. كتب ماركس لكوغلمان فى رسالته المشهورة المؤرخة فى الثانى عشر من شهر نيسان ـ أبريل ـ عام ١٨٧١ يقول فيها: «اذا القيت نظرة الى الفصل الاخير من كتابى «١٨ برومير» رأيت ان المحاولة التالية للثورة فى فرنسا احددها كما يلى: يجب ألا تنتقل الآلة الادارية والعسكرية من يد الى يد اخرى كما كان يحدث حتى الآن بل يجب ان **تحطم**. هذا هو الشرط الاول لكل ثورة شعبية حقا تجرى فى قارتنا. وهذا ما حاوله بالضبط رفاقنا الابطال فى باريس. ما أعظم مرونة هؤلاء الباريسيين

ومبادرتهم التاريخية وقدرتهم على تضحية الذات!.. ان التاريخ لا يعرف بعد مثالا للبطولة كهذا!»

كان ماركس فى رسالته هذه لكوغلمان يحصر استنتاجه حول ضرورة تحطيم الاداة القديمة للدولة بالقارة الاوروبية مستثنيا، بالتالى، انكلترا. وانطلاقا من أن الطبقة العاملة تؤلف غالبية سكان انكلترا، وان العسكرية لم تكن موجودة فيها، والبيروقراطية ما كانت تلعب دورا جسيما، كان ماركس يعتقد فى ذلك الوقت أن البروليتاريا الانكليزية يمكنها أن تستولى على مقاليد السلطة السياسية بطرق سلمية.

ومع ان ماركس وانجلس كانا يستبصران احتمال هزيمة الكومونة، الا انهما كانا يشيران الى الدور التاريخى العظيم الذى لعبته الكومونة اذ ارست بداية عهد جديد فى التاريخ العالمى. وهذا ما أشار اليه ماركس فى رسالة بعث بها الى كوغلمان مؤرخة فى السابع عشر من نيسان – أبريل – ١٨٧١ فقال: «ان نضال الطبقة العاملة ضد الطبقة الرأسمالية والدولة التى تمثل مصالح هذه الطبقة قد دخل فى طور جديد بفضل كومونة باريس. ومهما كانت النتيجة مباشرة هذه المرة، فان نقطة انطلاق جديدة ذات اهمية تاريخية عالمية قد احرزت مع ذلك».

وفى حين كانت معارك المتاريس ما تزال تجرى فى العاصمة الفرنسية، ألف ماركس «الحرب الاهلية فى فرنسا» وهو نداء مجلس الاممية العام، وقد تلاه امام اعضاء المجلس العام فى جلسته المنعقدة فى الثلاثين من شهر أيار – مايو. ففى هذه الوثيقة اظهر ماركس، بقدرته

العبقرية على ادراك اعمق معانى الاحداث الجارية، المهمة التاريخية العالمية لكومونة باريس.

وفى هذا المؤلف قدم ماركس تعميما نظريا لتجربة الجماهير التاريخية فقام بخطوة جديدة، ذات اهمية فائقة، فى تطوير مذهبه حول الدولة وديكتاتورية البروليتاريا.

وعلى اساس تحليل مفصل لنشاط الكومونة، يدعم ماركس حكمه الهام الذى سبق أن تقدم به والذي يقول بانه من الضرورى للبروليتاريا ان تحطم آلة الدولة القديمة. لقد برهنت الكومونة عمليا أن «الطبقة العاملة لا تستطيع أن تقتصر على الاخذ بزمام آلة الدولة كما هى ثم تستخدمها لصالحها». كان ماركس وأنجلس يعلقان أهمية عظيمة على هذا الاستنتاج حول مهمات الطبقة العاملة تجاه آلة الدولة القديمة، البرجوازية حتى انهما اعتبراه فى مقدمة «بيان الحزب الشيوعى» المكتوبة فى عام ١٨٧٢، اضافة جوهرية لهذه الوثيقة البرنامجية الاولى للماركسية.

لقد أتاحت تجربة كومونة باريس لماركس أن يرسم خطوط شكل الدولة الجديد التى يجب على البروليتاريا ان تبنيها. وتوصل ماركس الى الاستنتاج القائل ان الدولة من طراز الكومونة كانت «الشكل السياسى الذى تم اكتشافه أخيرا، والذى يمكن أن يتحقق فى ظله تحرير العمل اقتصاديا».

لقد بين ماركس فى مؤلفه «الحرب الاهلية فى فرنسا» ان الكومونة كانت حكومة وطنية حقا لفرنسا ومدافعة عن مصالح الفلاحين والبرجوازية الصغيرة فى المدن وممثلة لجميع العناصر السليمة فى المجتمع الفرنسي. وقد مجد ماركس مأثرة ثوار الكومونة ووصم جلاديهم بالعار.

مع الحرب الفرنسية البروسية وكومونة باريس انتهت فترة عظيمة من تاريخ الحركة العمالية. ففى بداية هذه الفترة لم يكن مذهب ماركس وانجلس سوى تيار اشتراكى بين غيره من التيارات العديدة، ولم يكن بالمذهب السائد، الا ان ثورة ١٨٤٨ وكومونة باريس بشكل خاص قد سددتا الى مختلف انواع الاشتراكية البرجوازية الصغيرة ما قبل ماركس ضربة ماحقة.

ان المعارك الثورية، حين بلغت أوجها، كشفت عن خور المدارس والبدع الاشتراكية بمختلف الوانها التى كانت تكافح الماركسية. «ان الاشتراكية التى سبقت ماركس **ماتت** فى نهاية الفترة الاولى (١٨٤٨ـ١٨٧١) من العواصف والثورات» (لينين).

ان هذا الانتصار الفكرى للماركسية وجد تعبيره الساطع فى كتاب «الحرب الأهلية فى فرنسا». يكفى المرء أن يقارن «اللهجة الجريئة السابقة» المستعملة فى هذه الوثيقة بلغة «البيان التأسيسى» الذى كان الوثيقة الاولى للاممية، ليقدر عظمة الطريق التاريخى الذى قطعته الطبقة العاملة ومنظمتها العالمية ونعنى بها الاممية الاولى فى هذه الحقبة من الزمن.

ولكن الاشتراكية ما قبل ماركس وسائر التيارات البرجوازية الصغيرة فى الحركة العمالية ما كانت لترغب فى أن تترك مواقفها بدون عراك. وفضلا عن ذلك، بعد كومونة باريس التى كانت قد طرحت بقوة خاصة المسائل الجذرية للحركة العمالية، تفاقم النضال داخل الأممية: اذ ان الباكونينيين وزعماء التريديونيونات الانكليزية الانتهازيين

وسائر العناصر المعادية للماركسية قد شنوا هجوما مركزا على ماركس وانجلس وانصارهما.

وقد احتدم هذا النضال فى ظروف القمع الشديد من جانب الحكومات ضد الأممية فى جميع البلدان عقب هزيمة كومونة باريس. كانت المحاكم المدنية والعسكرية والشرطة الرسمية والسرية وصحف الطبقات المسيطرة تتنافس فى مطاردة جمعية العمال العالمية. وكان لا بد لهذا كله ان يترك تأثيره فى العناصر الانتهازية داخل الاممية.

وعلى اثر نشر «الحرب الأهلية فى فرنسا» الذى تضامنت فيه الاممية تضامنا علنيا مع كومونة باريس، ظهرت الخلافات الحادة الموجودة فى المجلس العام للاممية. فقد اعرب أودجر ولوكرافت، الزعيمان التريديونيونيان، عن احتجاجهما ضد هذا المنشور الذى رفع عاليا راية ديكتاتورية البروليتاريا. وقد قاما بذلك بدافع من تأثير الصحف البرجوازية التى اثارت حملة مسعورة بعد صدور «الحرب الاهلية فى فرنسا»، والتى صبت سيولا من الكذب والافتراء على ثوار الكومونة، مصورة احداث باريس بانها نتيجة «مؤامرة» دبرتها الاممية، ومهددة بتقديم ماركس، «ديكتاتور» الاممية الى العدالة. ان الحملة المسمومة على الاممية والاضطهاد الذي تعرض له أعضاؤها فى جميع البلدان كانا يدفعان قادة التريديونيونات الانتهازيين الى اليمين. فلم يشأ أودجر ولوكرافت التضامن مع الكومونة بل خانا الاممية فى اللحظة العصيبة من حياتها. فقرر المجلس العام طردهما من صفوفه باجماع الاصوات.

وفى الوقت نفسه، اشتدت هجمات الباكونينيين على المجلس العام وكانوا قد بدؤوا يناضلون ضد

الماركسية قبل الحرب الفرنسية البروسية وكومونة باريس بكثير.

انتسب باكونين الى الاممية فى عام ١٨٦٩، وشرع يوسع فى السر منظمته «حلف الديموقراطية الاشتراكية» بدلا من أن يحلها كما كان قد وعد، فكون، بالتالى، منظمته الفوضوية داخل الاممية. واستنادا الى هذه المنظمة السرية، كان باكونين ينوى الاستئثار بقيادة جمعية العمال العالمية. كانت آراء باكونين الفوضوية تتمتع بتأييد فى عدد من البلدان التى يؤلف البرجوازيون الصغار نسبة كبيرة بين السكان فيها أمثال اسبانيا وايطاليا وسويسرا وبلجيكا. كان «البرجوازيون الصغار المسعورون» المذعورون من تطور الرأسمالية وكذلك «اللومبن البروليتاريا» (حثالة البروليتاريا) تربة خصبة لدعاية باكونين المتمردة. وكان أتباع باكونين يسعون وراء ان يجتذبوا الى جانبهم تلك العناصر فى الاممية، التى كانت تفارق ماركس فى هذه المسألة او تلك من المسائل المبدئية فى الحركة العمالية، وان كانت هذه العناصر لا تشاطر آراء باكونين الفوضوية.

وقد صار الموقف من الكومونة وديكتاتورية البروليتاريا والحزب البروليتارى حجر المحك لشتى التيارات فى الاممية.

وبوصول أنجلس الى لندن، شعر ماركس أنه مدعوم دعما شديدا فى عمله فى قيادة الاممية وفى نضاله ضد مختلف التيارات المناهضة للماركسية.

وقد أخذ أنجلس على عاتقه عبء قسم كبير من المهام فى المجلس العام. وعهد اليه بمنصب سكرتير لبلجيكا ثم بمنصب سكرتير-مراسل لاسبانيا. وفى شهر آب -

أغسطس ـ ١٨٧١، انتخب انجلس سكرتيرا لايطاليا، وهذا مع ابقائه لمنصب سكرتير لاسبانيا. ثم ضم الى ذلك أيضا فيما بعد منصب سكرتير للدانمارك والبرتغال.

ولقد استطاع انجلس ان يستفيد استفادة تامة حينذاك من معارفه اللغوية الممتازة بترجمة وثائق الاممية وباجراء مراسلات واسعة مع كل هذه البلاد.

كتب لافارغ يقول: «لقد كانت معرفته باللغات الاوروبية وحتى ببعض لهجاتها مثيرة للعجب والدهشة.

لقد اتيح لى بعد سقوط الكومونة أن ألتقى ببعض اعضاء المجلس الوطنى الاسبانى للأممية، فقالوا لى أنه قد كان هناك من ينوب عنى فى سكرتيرية المجلس العام لاسبانيا، وهو واحد يدعى «انجيل» كان يكتب فى اللهجة الكاستيلية بأنقى أسلوب وأصفاه. ولم يكن هذا «انجيل» شخصا آخر غير انجلس الذى كان يلفظ اسمه كذلك فى اسبانيا. وعندما ذهبت الى ليشبونة اخبرنى فرانشيا، سكرتير المجلس الوطنى للبرتغال، بأنه تلقى من انجلس عدة رسائل كتبت باللغة البرتغالية الفصحى...

كان يظهر نوعا من الدلاعة فى الكتابة لكل واحد بلغته القومية الأصيلة: فكان يكتب الى لافروف باللغة الروسية؛ والى الفرنسيين باللغة الفرنسية والى البولونيين باللغة البولونية وهكذا دواليك» *.

«ان أنجلس يتلجلج بعشرين لغة»، ـ هكذا قال ذات مرة أحد لاجئى الكومونة بسبيل المزاح، مشيرا الى تلجلجه الخفيف فى كلامه لدى الانفعال.

---

* «قصص عن ماركس وانجلس». الطبعة العربية، موسكو، ص ٥١.

كان أنجلس يجد لذة كبيرة فى النشاط الثورى فكان ينكب بحرارة على العمل التنظيمى العظيم فى الاممية.

وعندما غادر جمهور من اللاجئين باريس قاصدين لندن بعد هزيمة الكومونة، كان انجلس فى مركز عمل المجلس العام على تقديم المساعدة المادية لثوار الكومونة المهاجرين.

كان أنجلس، بوصفه السكرتير المراسل لعدد من البلدان، يهب الى مساعدة كل كتيبة بروليتارية تخوض معركة حادة ضد ظالميها. فقد نظم حركة واسعة لمساعدة عمال التبغ المضربين فى أنفرس وكذلك مضربى بروكسل. ودعا عمال لندن الى تأييد اضرابات عمال النسيج فى برشلونة وصانعى البراميل فى سانتندر وعمال الدباغة فى فالانسيا، والخ.. وبعد كل هذه الاضرابات كانت كتائب جديدة من البروليتاريا تنضم الى الاممية.

كان أنجلس سكرتير المجلس العام لتلك من فروع الاممية التى كانت قيادتها تتسم بصعوبات خاصة. ففى اسبانيا وايطاليا، بسطت منظمة باكونين السرية شبكاتها، ولم يندر ان وقع تحت تأثير باكونين بعض ممن كانوا يترأسون فروع الاممية فى هذين البلدين.

كان انجلس فى تعليماته وفى الرسائل التوجيهية التى بعث بها نيابة عن المجلس العام الى قادة الفروع الوطنية، يروج تجربة كومونة باريس ويبين بصبر المبادئ العلمية لستراتيجية الطبقة العاملة وتكتيكها ويصلح بلباقة بعض «الانحرافات» الباكونينية لدى قادة الفروع ويحارب محاربة لا هوادة فيها باكونين وعملاءه.

ففى أول رسالة بعث بها انجلس الى مجلس الاممية

الاتحادى فى اسبانيا، فسر ضرر وخطأ الامتناع عن كل سياسة الذى كان ينادى به الباكونينيون وبرهن أن أفضل وسيلة لتحرير العمال من تأثير الاحزاب القديمة التى تدافع عن مصالح الطبقات المالكة هى خلق حزب بروليتارى فى كل بلد، حزب ينتهج سياسته المستقلة الرامية الى تحرير الطبقة العاملة. كتب انجلس يقول: «ان الطبقات المالكة -الارستوقراطية العقارية والبرجوازية- لا تستعبد الشعب العامل بقوة ثروتها وباستغلال العمل برأس المال وحسب، بل وأيضا بقوة الدولة والجيش والادارة والمحاكم. فاذا امتنعنا عن محاربة خصومنا على الصعيد السياسى فهذا يعنى التخلى عن وسيلة من أقوى وسائل النضال ولا سيما التنظيم والدعاية».

وفى شهر أيلول - سبتمبر - من عام ١٨٧١ دعت الاممية الى انعقاد مؤتمر فى لندن وفى هذه الاثناء قام انجلس بعمل جسيم. وقد عين رئيسا للجنة الفرعية المكلفة بوضع جدول الاعمال. ففى تقريره الى مندوبى هذا المؤتمر حول العمل السياسى للطبقة العاملة، بين انجلس سخافة الدعوة الى الامتناع عن السياسة، ولا سيما بعد كومونة باريس التى طرحت على جدول الاعمال نشاط البروليتاريا السياسى. «اننا نريد تصفية الطبقات. فما السبيل الى ذلك؟ - انه السيطرة السياسية للبروليتاريا. وحينما تجلى ذلك باقصى الوضوح، يطلب منا عدم التدخل فى السياسة!»

وقد اشار القرار الذى اتخذه مؤتمر لندن الى أن البروليتاريا لا تستطيع، حيال السلطة الجماعية التى تمارسها الطبقات المالكة، أن تعمل كطبقة الا اذا كان لها حزب

سياسى خاص بها؛ وهذا الحزب ضرورى لاحراز انتصار الثورة الاجتماعية وبلوغ هدفها النهائى اى تصفية الطبقات. وقد شجب المؤتمر فى الوقت ذاته مختلف البدع وقرر توسيع حقوق المجلس العام.

ان هذه القرارات التى كانت تعنى نصرا جديدا للماركسية، قد استقبلها الباكونينيون برؤوس الحراب. كان أنصار باكونين يسعون الى أن يجعلوا من الاممية جمعية من كتل مستقلة تماما، «ذات حكم ذاتى»، وخليطا من اتجاهات وميول مختلفة وأن يجعلوا من المجلس العام، هذه الهيئة القيادية الكفاحية، نوعا من «صندوق بريد» او مكتب استعلامات؛ فكانوا يتهمون المجلس العام بانه «اغتصب» السلطة من الجمعية التى تسيطر عليها «ديكتاتورية الالمان» ولا سيما ماركس، وكانوا يصبون على ماركس وعلى المجلس العام سيولا من الاكاذيب والافتراءات. كان انجلس فى رسائله يدافع عن ضرورة الانضباط البروليتارى الصارم ويقاوم محاولات الباكونينيين الرامية الى تشويه قرارات المؤتمر ونسف الاممية من الداخل.

لقد فضح أنجلس بكل قوة منطقه حملات الباكونينيين على «السلطة» و«النفوذ» والمركزية والانضباط، وكتب يقول: «ان المركزية غير الكافية والسلطة غير الكافية قد سببتا موت كومونة باريس... وعندما يحدثوننى عن السلطة والمركزية كعن شيئين يستحقان الاستنكار مهما كانت الظروف، يبدو لى أن أصحاب هذه الافكار اما انهم يجهلون معنى الثورة أو ليسوا ثوريين الا فى الكلام».

ان مفاهيم باكونين النظرية ولا سيما آراؤه حول

الدولة، قد انتقدها أنجلس فى سلسلة من الرسائل والمقالات. كان باكونين يعتقد أن الشر الرئيسى الذى يجب أن يستأصل ليس رأس المال، وبالتالى، ليس التناقض الطبقى بين الرأسماليين والعمال، بل الدولة التى كان يقترح ابادتها لتحل الاممية محلها فى المجتمع المقبل. كان أنجلس، اذ ينتقد الاوهام الفوضوية عن المجتمع المقبل، قد كتب فى رسالة بعث بها الى تيودور كونو، منظم فرع الاممية فى ميلانو، يقول: «ان هذا المجتمع سوف يتميز بانعدام **النفوذ** التام ما دام كل نفوذ – أى الدولة – شرا مطلقا. (ان اولئك السادة يسكتون، بالطبع، عن الطريقة التى سيسيرون فيها المصانع والسكك الحديدية والسفن بدون قيادة موحدة وبدون ادارة مدعوة الى حسم الموقف). ان سلطة الاكثرية على الاقلية سوف تلغى ايضا. سيكون كل فرد وكل طائفة مستقلا بذاته، غير أن باكونين يسكت ايضا عن الشكل الذى تستطيع فيه جماعة بشرية مؤلفة ولو من شخصين، أن تعيش دون أن يقوم كل منهما بتضحية اى شىء كان من استقلاله الذاتى».

لم يلبث «حلف» باكونين أن تحول الى قطب جاذبية لجميع العناصر المعادية للماركسية فى الحركة العمالية. فان الليبراليين البرجوازيين من التريديونيونات الانكليزية و «الاشتراكيين الملكيين البروسيين» من اتحاد عمال المانيا اللاسالى، قد تكتلوا كلهم مع أتباع باكونين ضد الماركسية على الرغم من الخلافات فى الآراء التى تفرق بينهم. أما الرجعية الاوروبية التى شنت الحملة على الاممية فقد وجدت حلفاء لها فى اشخاص الباكونينيين الذين كان بعض منهم على صلة مباشرة بالبوليس.

لقد وجد ماركس وانجلس تأييدا حارا من قبل فرع الاممية الروسى فى نضالهما ضد اخطر عدو فى الاممية الا وهو الباكونينية. فان مؤسسى الفرع - وهم اللاجئون السياسيون الروس الذين تربوا على افكار الديموقراطيين الثوريين الكبيرين تشيرنيشيفسكى ودوبروليوبوف - قد توجهوا الى ماركس راجين أن يكون ممثلا عنهم فى المجلس العام. وقد احاطهم ماركس فى رسالته الجوابية المؤرخة فى الرابع والعشرين من شهر آذار - مارس - عام ١٨٧٠ علما بان الفرع الروسى قد قبل فى الاممية وبانه يقبل أن يمثله فى المجلس العام. وقد قدم الفرع الروسى مساعدة ثمينة لمؤسسى الشيوعية العلمية بوضعه تحت تصرفهما وثائق عن عمل باكونين وأنصاره التخريبى فى مختلف البلاد ولا سيما فى روسيا.

وبغية فضح مؤامرة باكونين، ارسل المجلس العام الى فروع الاممية منشورا غير علنى عنوانه «انشقاقات وهمية فى الاممية» كتبه ماركس بمساعدة أنجلس. بين المنشور تاريخ نضال الشيعة الباكونينية ضد الاممية وكشف تلون باكونين ونشاطه الانشقاقى. وانتقد انتقادا شديدا الشعار الباكونينى عن «الاستقلال الذاتى» الرامى الى نسف نظام الاممية وتقويض الانضباط فيها. كذلك فضح المنشور طابع الخيانة الذى يطبع شعار «الفوضوية» بوصفه وسيلة لتجريد البروليتاريا من السلاح أمام البرجوازية المدججة بالسلاح.

وقد أنزل مؤتمر الاممية المنعقد فى لاهاى (١٨٧٢) ضربة قاضية بالباكونينية. وفى فترة اعداد المؤتمر، قام انجلس بنشاط بالغ. ترأس اللجنة الفرعية المكلفة بوضع

مشروع النظام الداخلى؛ واقترح فى جلسة المجلس العام المنعقدة فى الثانى من شهر تموز - يوليو - توسيع صلاحيات المجلس العام الى حد منحه الحق بفصل بعض الفروع والمجالس الاتحادية وذلك لفترة انعقاد اقرب مؤتمر. وقام بمراسلات كثيرة مع فروع الاممية فى مختلف البلدان وفضح فى رسائله عملاء باكونين المكشوفين أو المستورين، وبذل جهده فى سبيل كشف خيرة العناصر ولفها حول المجلس العام، وقام بعمل تنظيمى، وحسب نتائج التصويت المحتملة لتأمين الاغلبية الثابتة لانصار ماركس خلال المؤتمر.

ان الزعماء الايزناخيين الذين كان نجاح مؤتمر لاهاى منوطا الى حد كبير بنشاطهم ما كانوا بمنأى عن اقلاق أنجلس. فعلى الرغم من ان بيبيل وليبكنيخت قد فعلا الكثير فى سبيل ترويج مبادئ الاممية فى ألمانيا، الا ان أنجلس كان ينتقدهما فى كثير من الاحيان بسبب نشاطهما غير الكافى فى الاممية نفسها. وقد طلب من ليبكنخت باسم المجلس العام بذل جهود نشيطة نظرا لاعداد المؤتمر، لكى يتأمن فيه تمثيل العمال الالمان باكمل وجه ممكن. وكتب لليبكنيخت فى الثانى والعشرين من أيار - مايو - ١٨٧٢ يقول: «لقد صار الامر أكثر جدا ويجب أن نعرف القوى التى لنا، والا فانك سوف تضطرنا الى أن نعمل بصورة مستقلة ونعتبر الحزب العمالى الاشتراكى الديموقراطى منظمة غريبة عنا ويقف من الاممية موقف لامبالاة».

وعلى الرغم من عمل الباكونينيين التخريبى وجميع مكايدهم ودسائسهم التى لجؤوا اليها قبل انعقاد المؤتمر،

فاز أنصار ماركس وأنجلس بالاغلبية فى هذا المؤتمر الذى جرى تحت شعار النضال العنيد ضد الباكونينية.

وعلى نقيض الباكونينيين، اعترف المؤتمر بضرورة النضال السياسى وانشاء الحزب البروليتارى بوصفهما الشرط الرئيسى للثورة الاشتراكية الظافرة. وهكذا ادرجت فى النظام الداخلى للاممية هذه الموضوعة الفائقة الاهمية فى الماركسية واكتسبت، بالتالى، قوة القانون بالنسبة لجميع اعضائها.

وقد عين المؤتمر لجنة خاصة برئاسة تيودور كونو للتحقيق فى عمل الباكونينيين التخريبى فى الاممية. وكان التقرير حول الحلف الديموقراطى الاشتراكى الذى قدمه المجلس العام الى مؤتمر لاهاي قد احتوى مواد واسعة حول هذا العمل. وقد وردت فى التقرير الذى كتبه أنجلس براهين لا تدحض عن سياسة الباكونينيين المتلونة ونشاطهم الانشقاقى فى مختلف فروع الاممية. قال أنجلس فى هذا التقرير: «لاول مرة فى تاريخ كفاح الطبقة العاملة، نعثر على مؤامرة سرية حيكت داخل هذه الطبقة ولا تستهدف نسف نظام الاستغلال القائم بل الجمعية التى تحارب هذا النظام حربا شعواء».

وبعد ما استمع المؤتمر الى تقرير لجنة التحقيق أتخذ قرارا بفصل باكونين وغليوم أبرز زعماء الحلف، من صفوف الاممية. وقد ذكر أنجلس فيما بعد أن ثوار الكومونة الحاضرين فى تلك الجلسة قد اعترفوا بأنه ما من جلسة عقدتها الكومونة قد أحدثت فيهم تأثيرا مماثلا لتأثير هذه المحكمة على هؤلاء الخونة للبروليتاريا الاوروبية.

وهكذا وضع مؤتمر لاهاى رصيد النضال الطويل ضد

الباكونينيين. لقد احرزت الماركسية انتصارا ايديولوجيا على الفوضوية التى كانت تجر الحركة العمالية الى الوراء وتقدم للبرجوازية خدمات لا تقدر بعملها التخريبى الانعزالى وبنضالها ضد نشاط الطبقة العاملة السياسى وضد الحزب البروليتارى وديكتاتورية البروليتاريا.

وفى مؤتمر لاهاى تقدم انجلس باقتراح مدعوم بالادلة والبراهين حول نقل مقر المجلس العام الى نيويورك، وذلك بسبب اشتداد الملاحقات البوليسية ازاء الاممية من قبل الحكومات الاوروبية وكذلك بسبب النشاط الانشقاقى والتخريبى للعناصر الفوضوية وغيرها من العناصر البرجوازية الصغيرة التى عششت فى بعض فروع الاممية.

وبعد ختام المؤتمر، ألقى ماركس خطابا فى اجتماع حاشد فى امستردام اشار فيه الى ضرورة ظفر البروليتاريا بزمام السلطة السياسية لتحويل المجتمع التحويل الاشتراكى. وقال: «ولكننا لم نؤكد قط أن السبل المؤدية لهذا الغرض تكون دائما واحدة وحيدة.

نحن نعرف أنه يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار مؤسسات كل بلد وعاداته وتقاليده الخاصة به. ونحن لا ننكر انه توجد بلاد مثل اميركا وانكلترا، ولو كنت أعرف مؤسساتكم معرفة أفضل فلربما اضفت اليهما هولندا، يستطيع العمال فيها بلوغ أغراضهم بالطرق السلمية. ولكن اذا كان هكذا هو الحال، يجب ان نعترف كذلك أن القوة فى غالب البلدان الاوربية هى المدعوة الى أن تلعب دور المحرك للثورة؛ وحينما تحين الفرصة يجب أن نلجأ الى القوة بالضبط لاقامة سيادة العمل نهائيا».

كان أنجلس يرسل المعلومات بانتظام الى المجلس العام المقيم فى نيويورك بعد مؤتمر لاهاى. وكان يطلع زورغه، سكرتير الاممية العام، بانتظام على الوضع فى الفروع الاوروبية المختلفة ويواصل النضال ضد خصوم الماركسية الفوضويين. وطبقا لقرار مؤتمر لاهاى حول نشر الوثائق المتعلقة بالحلف، نشر ماركس وانجلس بالتعاون مع لافارغ كراسا معنونا «الحلف الديموقراطى الاشتراكى وجمعية العمال العالمية». وكان هذا الكراس الصادر فى عام ١٨٧٣ يحتوى تقريرا حول نشاط الحلف الانشقاقى فى مختلف البلدان مع ملحق يحتوى وثائق الحلف. والى جانب الوثائق التى كانت تملكها لجنة التحقيق فى المؤتمر، نشر الكراس ايضا سلسلة من الوثائق الجديدة، لا سيما حول نشاط الحلف فى روسيا، وسياسة الانشقاق المكشوفة التى نهجها الباكونينيون بعد المؤتمر.

وقد أنزلت هذه المنشورات ضربة جديدة فى «الاممية» الفوضوية. وقد اساءت هذه المنشورات الى سمعة باكونين بحيث انه صرح علنا بانصرافه عن النشاط الاجتماعى.

وقد كرس أنجلس للنضال ضد الباكونينيين سلسلة اخرى من المقالات انتقد فيها الفوضوية انتقادا ماحقا، وبينها «حول النفوذ» و«الباكونينيون فى العمل». وفى هذه المقالة الاخيرة حلل انجلس دور الباكونينيين فى انتفاضة عام ١٨٧٣ فى اسبانيا، واستنتج أن انصار باكونين قد أعطوا فى هذه البلاد «مثالا فريدا حول الطريقة التى **لا يجب** أن تجرى فيها الثورة».

ان «نظريات» الفوضويين قد فشلت عمليا بعد ما منيت بالاخفاق ايديولوجيا فى الاممية.

* * *

وفى الحقبة التى انتصرت فيها الماركسية ايديولوجيا فى الاممية، طرأت كذلك تغيرات جذرية على الوضع العالمى. وهذه التغيرات ما كان يمكن أن تكون بمنأى من التأثير فى نشاط الاممية اللاحق.

كتب لينين محددا الوضع الدولى بعد هزيمة الكومونة فقال: «العامل الانكليزى تفسده الارباح الاستعمارية، كومونة باريس مسحوقة، الحركة الوطنية البرجوازية احرزت النصر فى ألمانيا (١٨٧١)؛ وروسيا نصف الاقطاعية تغط فى نومها المزمن. اما ماركس وأنجلس فقد قدرا تلك المرحلة تقديرا صحيحا. لقد ادركا الحالة الدولية، ادركا مهمات السير **البطىء** نحو الثورة الاجتماعية»*. كانت المهمة الرئيسية للثوريين فى ذلك الحين تتقوم فى تحقيق عمل تحضيرى متريث للم القوى وتنظيمها ولانشاء احزاب بروليتارية فى بعض البلدان.

ما عادت الاممية بشكلها القديم تلائم المهمات الجديدة التى كان التاريخ يطرحها على الطبقة العاملة.

ولكن الاممية كانت قد ادت دورا تاريخيا عظيما اذ انزلت ضربة ماحقة بجميع ضروب البدع ومختلف انواع الاشتراكية السابقة للماركسية نتيجة للنضال

---

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٤٩٥.

الدائب العنيد الذى قام به مؤسسا الشيوعية العلمية وانصارهما.

ان النجاحات فى ترويج مذهب ماركس، وتربية ملاكات مناضلة قد تكون نواة أحزاب عمالية مقبلة، قد خلقت الممهدات الضرورية لتكوين أحزاب اشتراكية جماهيرية فى مختلف البلدان.

وكتب لينين يقول: «وهكذا انجزت الاممية الاولى مهمتها التاريخية مفسحة المجال لمرحلة من النمو فى الحركة العمالية فى جميع البلدان نموا اقوى واشد، مما مضى الى ما لا حد له، – مرحلة تطور هذه الحركة من حيث **الاتساع**، مرحلة تأليف احزاب اشتراكية عمالية **جماهيرية**، على اساس شتى الدول القومية» *.

كان تضامن البروليتاريا الاممى المتمثل فى جمعية العمال العالمية، يستمر فى نمو وتوطد متخذا أشكالا جديدة فقط، ملائمة للطور الجديد الارفع للحركة العمالية.

---

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ١٣.

٨

أنجلس بعد كومونة باريس والاممية الاولى. وفاة ماركس (١٨٨٣)

كانت الفترة التاريخية الجديدة التى ابتدأت بعد هزيمة الكومونة وانحلال الاممية الاولى تتميز بطابعها «السلمى» وانعدام الثورات. «فقد انتهى الغرب من الثورات البرجوازية، ولما ينضج الشرق لهذه الثورات. ودخل الغرب فى مرحلة التحضير «السلمى» للتحويلات المقبلة»*.

وقد نقل ماركس وأنجلس مركز اهتمامهما الى قضية انشاء حزب بروليتارى فى كل بلد واعداد هذه الاحزاب للمعارك المقبلة فى سبيل الثورة الاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا. وكانا يربيان ملاكات قائدة لهذه الاحزاب ويساعدانها على وضع البرامج وتحديد خطتها الستراتيجية والتكتيكية. وكان ماركس وانجلس فى عملهما هذا يأخذان بعين الاعتبار خصائص كل بلد وطابع اقتصاده ونسبة القوى الطبقية والتجربة التى كدستها طبقة العمال فى هذا البلد، والمستوى النظرى لحركته العمالية ولطبيعة

---

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ص ٩٨ــ٩٩.

العوائق التى تعوق فى هذا البلد ربط الحركة العمالية مع الاشتراكية فى الطريق الى انشاء حزب بروليتارى جماهيرى.

كان مؤسسا الشيوعية العلمية يطبقان فى هذه الاثناء الاسلوب الديالكتيكى الذى أشار لينين أكثر من مرة الى ضرورته فى معالجة قضايا الحركة العمالية فى شتى البلدان: يجب «استقصاء ودراسة وتمحيص واستقراء واستيعاب المميزات القومية والخصائص القومية فى الاساليب **العملية** التى يتخذها كل بلد لحل المهمة الاممية **الوحيدة...**» *

كان ماركس وأنجلس اذ يساعدان على انشاء أحزاب اشتراكية فى مختلف البلدان، يعيران اهتماما خاصا للنضال فى سبيل نقاء النظرية الثورية للبروليتاريا، فى سبيل تراص الحزب، فى سبيل تطهير صفوفه من كل انواع العناصر الانتهازية والبرجوازية الصغيرة، فى سبيل وحدة النظرية مع النشاط العملى.

وبعد انحلال الاممية الاولى لم يقل دور ماركس وأنجلس كقائدين موحدين للحركة العمالية العالمية بل انه صار اكبر واعقد. وقد وقع على عاتق أنجلس العبء الرئيسى من العمل اليومى فى التوجيه العملى للحركة الاشتراكية فى عدد من البلدان، والنضال ضد المناهضين للماركسية سواء المستورين منهم ام المكشوفين. كتب انجلس عن هذه الحقبة يقول: «ونظرا لتقسيم العمل القائم بينى وبين ماركس، وقع على كاهلى أن أمثل آراءنا فى الصحف اليومية، وان أخوض، بالتالى، النضال ضد الآراء المناهضة كى يكون

* لينين. «مرض «اليسارية» الطفولى فى الشيوعية». الطبعة العربية. موسكو. ص ص ١٠٤ــ١٠٥.

الوقت موفرا لدى ماركس لانهاء مؤلفه الرئيسى العظيم».
ان ما كتبه انجلس عن المقالات فى الصحف اليومية، انما يتعلق ايضا بالمراسلات مع اشتراكيى مختلف البلدان اذ ان انجلس اخذ قسطها الكبير على عاتقه.

كان ماركس وانجلس فى كفاحهما لتشكيل أحزاب اشتراكية فى مختلف البلدان يعيران اهتماما خاصا للحركة العمالية فى المانيا. ولم يكن ذلك من قبيل الصدفة: اذ كان مركز ثقل الحركة العمالية العالمية قد انتقل لفترة ما الى ألمانيا بعد هزيمة كومونة باريس والحرب الفرنسية البروسية.

لقد حلل أنجلس فى عدد من رسائله ومقالاته تحليلا عميقا الاسباب التى أحلت العمال الالمان بعد هزيمة الكومونة على رأس البروليتاريا العالمية فكانوا السباقين فى انشاء حزب اشتراكى ديموقراطى جماهيرى. وقد كان أحد هذه الاسباب الرئيسية، حسب تحديد انجلس، وتيرة التطور الصناعى فى ألمانيا، تلك الوتيرة التى كانت اكثر تأخرا مما هى عليها فى انكلترا وفرنسا ولكنها اكثر عصفا. كان الانقلاب الصناعى الذى جرى فى ألمانيا بعد عام ١٨٤٨ يرافقه خراب الفلاحين والحرفيين الصغار، وتقوية استغلال العمال. كان الرأسماليون الالمان يسعون الى اتقان مصانعهم تكنيكيا وتخفيض أجور العمال وذلك لكى يتمكنوا من الصمود بوجه مزاحمة بلدان اقدم، من حيث التطور الصناعى، فى السوق العالمية. وكان ذلك كله يؤول الى تفاقم التناقضات الطبقية والى تشبع الطبقة العاملة بالروح الثورية بمزيد من العمق والسرعة وكذلك البرجوازية الصغيرة والفلاحين.

والى جانب عمق الانقلاب الصناعى فى المانيا وشدة الصراع الطبقى المرتبط بهذا الانقلاب، رأى انجلس سبب الدور الطليعى للحركة العمالية الالمانية كذلك فى كونها قد نالت مع الماركسية برنامجا لم يكن له قط مثيل فى متناول العمال الانكليز والفرنسيين.

غير انه، على الرغم من وجود هذه الشروط الملائمة، ما كانت عملية انشاء حزب العمال امرا سهلا وبسيطا على الاطلاق. كان الحزب المستقل للطبقة العاملة الالمانية ينشأ فى غمرة الكفاح ضد البرجوازية والاقطاعية وضد محاولاتهما الاستيلاء على الحركة العمالية، وفى الصراع المستمر ضد التأثيرات البرجوازية الصغيرة التى كانت تتسرب الى صفوف الحزب والتى كانت تتجلى بالانتهازية اليمينية والانتهازية «اليسارية».

كان أنجلس فى رسائله الى المناضلين الالمان وفى مقالاته فى الصحف العمالية ما يفتأ يكافح اللاسالية مساعدا الايزناخيين فى الحين ذاته على تصحيح انحرافاتهم ومنتقدا أخطاءهم السياسية وآراءهم النظرية الفجة.

ان نشر سلسلة من المقالات (١٨٧٢) عن مسألة السكن الموقعة باسم الدكتور فى الطب مولبرغر فى «الدولة الشعبية» («فولكسشتات»)، لسان الحال المركزى للايزناخيين كان دليلا جديدا على فجهم النظرى.

ونظرا للنهوض الصناعى العاصف آنذاك فى ألمانيا، اشتدت مشكلة السكن بصورة خاصة واصبحت موضوع نقاش واسع فى الصحف. وقد استفاد من ذلك بعض «المشعوذين الاجتماعيين» من نوع مولبرغر للظهور والتصدر. فاغتاظ أنجلس غيظا شديدا من الايزناخيين اذ

سمحوا لمولبرغر بنشر مقالاته على صفحات جريدتهم.
لقد ادلى انجلس باحتجاجه الشديد على الايزناخيين لنشرهم مقالات مولبرغر وعارضها بسلسلة من المقالات الجدلية عنوانها المشترك: «حول مسألة السكن» (١٨٧٢ ـ١٨٧٣) وقد صدرت فيما بعد بشكل كراس خاص.

وقد برهن انجلس ان مقالات مولبرغر كانت اول محاولة لنشر آراء برودون فى المانيا، تلك الآراء التى انزل ماركس ضربة ماحقة بها فى كتابه «بؤس الفلسفة».

كانت مشاريع مولبرغر الخيالية الشبيهة بمشاريع برودون تسعى الى تصفية النواحى «السيئة» من الرأسمالية، ومنها مثلا أزمة السكن، دون استئصال شأفة الشر: وهو الاسلوب الرأسمالى للانتاج. كان مولبرغر يحلم باليوم الذى يصير فيه كل مستأجر لمسكن مالكا له ويصبح المجتمع كله «مجموعة من الملاكين الاحرار والمستقلين لمساكنهم الخاصة».

ولقد فضح أنجلس الطابع الرجعى لهذه الاحلام البرجوازية الصغيرة التى تريد أن ترجع عجلة التاريخ الى الوراء وتقصد أن تجعل من كل بروليتارى صاحب بيت وقطعة أرض لربطه من جديد بالارض. وفضح أنجلس الطابع الوهمى لكل هذه المشاريع مشيرا الى انه «من السخافة محاولة حل مشكلة السكن أو أية مشكلة اجتماعية أخرى تمس مصير العامل حلا منفردا ما دام اسلوب الانتاج الرأسمالى قائما. ان الحل يكمن فقط فى تصفية اسلوب الانتاج الرأسمالى وفى استيلاء الطبقة العاملة نفسها على جميع وسائل المعيشة والعمل».

وهذا ما لا يمكن تحقيقه الا عن طريق «عمل

البروليتاريا السياسى وديكتاتورية البروليتاريا كمرحلة انتقال الى الغاء الطبقات ومعها الدولة، وهذا ما قيل فى «البيان الشيوعى» وكُرر منذ ذلك الحين مرارا لا تحصى».

ان ديكتاتورية البروليتاريا لن تقضى فحسب على جميع المصائب التى لا مناص منها للطبقة العاملة فى ظل المجتمع الرأسمالي بل ستصفى أيضا التناقض بين المدينة والريف، هذا التناقض الذى أذكت الرأسمالية ناره الى أقصى حد. فالثورة البروليتارية الظافرة ستنتشل سكان الريف من حالة العزلة والخمول التى يمكثون فيها طوال آلاف السنين. وقد فضح أنجلس المشاريع الرجعية التى نادى بها البرودونيون للحفاظ على الملكية الصغيرة للارض فاشار الى ان مهمة البروليتاريا تتقوم فى «تنظيم الزراعة الكبيرة بواسطة الشغيلة المتشاركين. وهذا هو الشكل الوحيد الذى يمكن فى ظله استخدام جميع الوسائل الحديثة والماكنات، والخ.، وبالتالى، تبيان مزايا الاستثمارة الكبيرة المنظمة على أساس التشارك تبيانا جليا ولا اجلى للفلاحين الصغار».

ولقد انتقد أنجلس مولبرغر شديد الانتقاد لكون هذا الاخير يعتبر التناقض بين المدينة والريف امرا طبيعيا، لا سبيل الى ازاحته، ولكونه يعتبر مطلب تصفيته مطلبا طوباويا. قال أنجلس أن الطوباويين ليسوا أولئك الذين يعتبرون امرا ضروريا بله محتوما تصفية هذا التناقض أو ذاك من التناقضات الخاصة بالمجتمع الرأسمالى عن طريق الثورة الاشتراكية واقامة ديكتاتورية البروليتاريا، بل انهم أولئك الذين يحاولون أن يتنبأوا سلفا بالاشكال الملموسة التى ستجرى فيها تصفية هذا التناقض. ولم يأخذ

أنجلس على عاتقه ان يحدد مسبقا تلك الطرائق الملموسة التى ستحل معها أزمة السكن أو أى مشكلة اخرى فى المجتمع الاشتراكى المقبل. وقد اشار الى أن التدابير الانتقالية ذاتها سوف تتبدل طبقا للعلاقات الاجتماعية القائمة فى كل مرحلة معينة. أما تأليف وصفات مسبقة جاهزة مفيدة لكل حالة فهو يعنى احلال الشعوذة محل العلم.

ان مقالات أنجلس حول مسألة السكن انزلت ضربة ماحقة بمحاولات نشر النظريات البرودونية فى ألمانيا. اما التقاليد اللاسالية التى كانت ما تزال قوية فى اتحاد العمال الالمانى العام فضلا عن انها كانت تؤثر فى الايزناخيين تأثيرا غير قليل، فلم يكن القضاء عليها سهلا.

وقد برز هذا بشكل خاص عندما طرحت مسألة اندماج الحزبين فى عام **١٨٧٥**.

فقبل هذا الحين كان قد زال الخلاف الاساسى فى التكتيك بين الحزبين اللذين كان احدهما يكافح الآخر بفائق الشدة. ومع نشوب الحرب البروسية الفرنسية انتصر نهائيا طريق توحيد المانيا **من الاعلى** اى بواسطة المملكة البروسية. «وحينئذ **مات** النزاع بين اللاساليين والايزناخيين، وحينئذ **ماتت** مسألة الثورة **الديموقراطية** العامة فى المانيا» (لينين).

ونظرا لذلك ثم للضرورة الماسة الى تراص القوى تجاه الاضطهادات الحكومية، طرحت على بساط البحث مسألة توحيد الحزبين، مسألة تشكيل حزب اشتراكى ديموقراطى الماني واحد.

كان الامر يتلخص فى السؤال التالى: متى يجرى هذا التوحيد وبأى شكل وعلى أى أساس مبدئى؟

ما كان ماركس وأنجلس معارضين للتوحيد على العموم، ولكنهما كانا ضد التوحيد العاجل والخالى من المبادئ. كانا يريان فى وضوح المنهاج السياسى للتوحيد ضمانة الوحدة المتينة حقا وشرط انشاء الحزب البروليتارى الكفاحى. وكانا يحذران قادة الايزناخيين ولا سيما ليبكنخت من خطر السعى وراء التوحيد «مهما كان الثمن» ومن العواقب الوخيمة التى قد يجرها مثل هذا العمل على الحركة العمالية الالمانية.

كتب أنجلس للايزناخيين يقول: «ان خير العناصر اللاسالية لن تلبث أن تلحق بكم بمرور الزمن، ولهذا ليس من الحكمة فى شيء قطف الثمار قبل أن تنضج كما يريد بعض الموحدين الجديرين بالرثاء والشفقة... ان الحركة البروليتارية تجتاز، ولا محالة، مختلف المراحل فى تطورها، وفى كل مرحلة تفقد بعض الاشخاص الذين لا يسيرون الى أبعد».

وبالرغم من جميع تحذيرات ماركس وأنجلس تفوقت هذه المرة ايضا ميول ليبكنخت الى المصالحة والمعروفة لديهما من زمان. فبينما بيبل فى السجن، أجرى ليبكنخت مفاوضات مع الزعماء اللاساليين، ووضع معهم مشروع برنامج يجب اتخاذه اساسا لتوحيد الحزبين. وعندما تلقى ماركس وانجلس فجأة هذه الوثيقة التى تتضمن تنازلات مبدئية هامة من جانب الايزناخيين للاساليين لم يلبثا ان ابلغا قادة الحزب احتجاجهما الشديد. فقد بعث انجلس رسالة الى بيبيل الذى كان قد اطلق سراحه للتو، يحتج فيها على التوحيد المعتمد على مثل هذا الاساس العديم المبادئ، وينتقد البرنامج انتقادا واسعا.

ولكى نعطى فكرة عن مدى التنازلات التى قدمها الايزناخيون الى اللاساليين، يكفى القول أن البرنامج الجديد كان يتضمن نظريات لاسالية صرفة حول «الجمهور الرجعى الموحد» وطلب تنظيم تعاونيات الانتاج بوساطة الدولة و«قانون الاجور الحديدى». وبالمقابل، لم يذكر البرنامج كلمة واحدة عن النقابات والاضرابات وتضامن العمال الاممى ثم – وهذا الشيء الرئيسى – عن ديكتاتورية البروليتاريا. وقد أحل البرنامج الشعار اللاسالى عن «الدولة الشعبية الحرة» محل شعار ديكتاتورية البروليتاريا.

وقد انتقد أنجلس احكام البرنامج هذه وهاجم بخاصة هجوما عنيفا التشبك الانتهازى حول مسألة الدولة.

كتب لبيبيل يقول: «بما ان الدولة ليست فى الاساس سوى منظمة موقتة تستخدم فى النضال ابان الثورة من اجل تحطيم الاعداء بالعنف، فان من الخرق والتناقض القول بدولة شعبية حرة. وما دامت البروليتاريا **تحتاج** الى الدولة، فانها لا تحتاج اليها من اجل الحرية، بل لقمع اعدائها وما ان يصبح بالامكان التحدث عن الحرية حتى تزول الدولة بوصفها دولة»*.

وقد اعتبر لينين هذا المقطع من رسالة أنجلس الى بيبيل «من اروع، ان لم يكن الاروع، ما ورد فى مؤلفات ماركس وأنجلس بصدد مسألة الدولة»**. واشار لينين الى انه ليس من باب الصدفة أن قادة الحزب الاشتراكى

---

* ماركس، «نقد برنامج غوتا». الطبعة العربية. موسكو. ص ٤٦.
** لينين، «الدولة والثورة». الطبعة العربية. موسكو. ص ٧٤.

الديموقراطى الالمانى الذين كانوا يشوهون ويبتذلون نظرية ماركس عن الدولة قد تركوا هذه الرسالة مطمورة طيلة ستة وثلاثين عاما.

غير ان الزعماء الايزناخيين لم يعتبروا، على ما بدا، حجج أنجلس مقنعة كفاية. فحاول ليبكنيخت فى بعض رسائله الى «اللندنيين» أن يبرر موقفه فى المفاوضات مع اللاساليين. وقد قرر ماركس وأنجلس حينذاك أنه من الواجب انتقاد مشروع البرنامج انتقادا أكثر تفصيلا وقد نفذ ماركس هذه النية فى كتابه «نقد برنامج غوتا» (١٨٧٥).

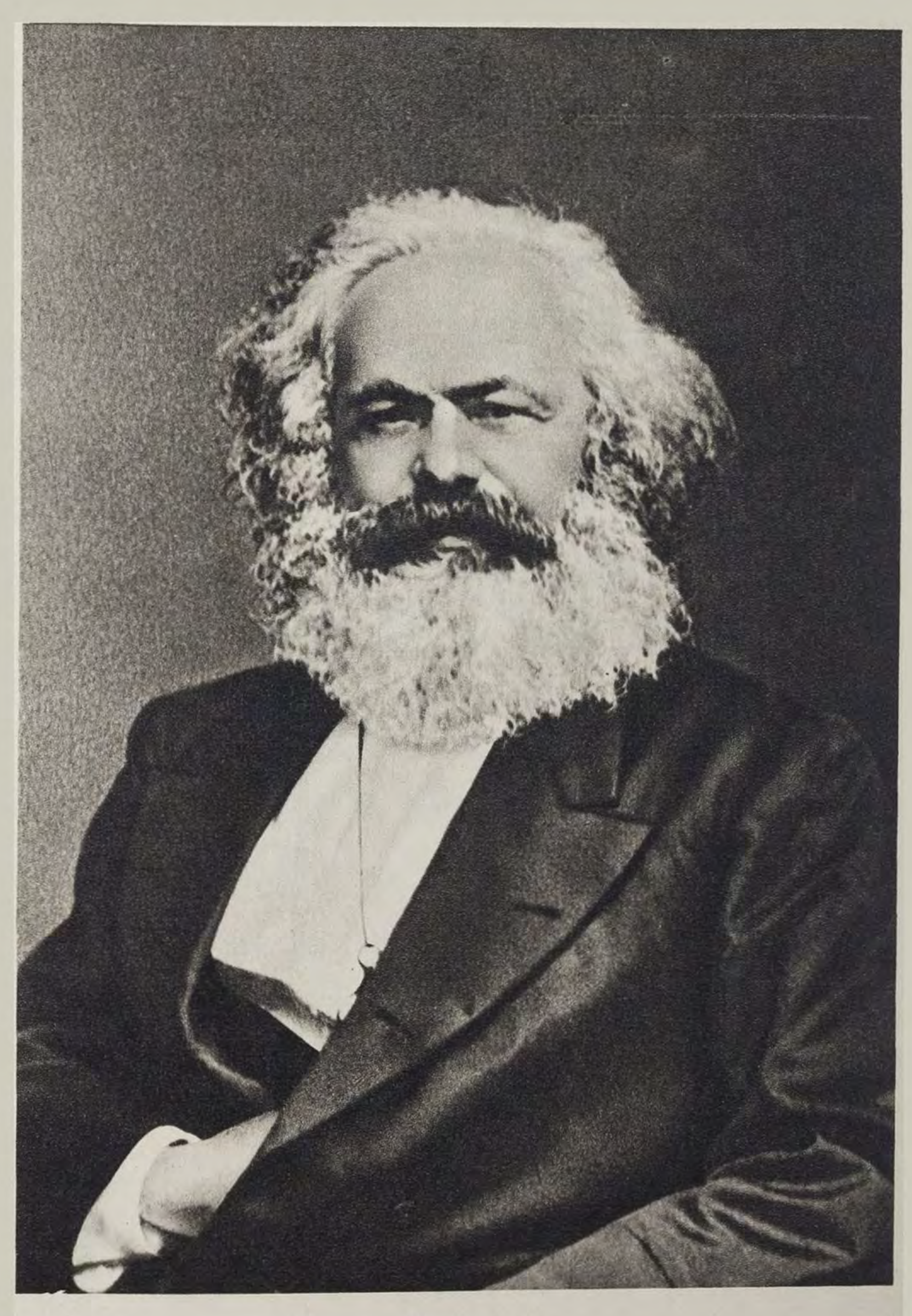
ففى هذا الكتاب انتقد ماركس عقائد اللاساليين الخاطئة، المناهضة للعلم والقى النور على عدد من المسائل النظرية الهامة وطور نظريته الثورية.

لقد طبق ماركس نظريته فى هذا الكتاب «على افلاس الرأسمالية **المقبل** وعلى التطور **المقبل** للشيوعية **المقبلة**»*.

ان «نقد برنامج غوتا» يحتوى تحليلا اقتصاديا للمجتمع المقبل ويرسم الصلة بين تطور الشيوعية واضمحلال الدولة. وفضلا عن ذلك، يتوصل ماركس الى اكتشاف غاية فى الاهمية: انه يميز طورين، فى المجتمع الشيوعى - الطور الاول، وهو الادنى، والطور الثانى، وهو الاعلى. الطور الاول، وهو الطور الادنى من الشيوعية، او الاشتراكية، يتصف بوجود الملكية الجماعية لوسائل الانتاج وبتوزيع الخيرات المادية حسب العمل. وفى هذا الطور ينال العامل من المجتمع معادل ما اعطاه هو للمجتمع

---

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٥١٧.



كارل ماركس
(عام ١٨٧٥)

باستثناء كمية محددة من عمله مخصصة للصناديق العامة للمجتمع. اما الطور الاعلى، وهو الشيوعية، اى عندما يبلغ تطور القوى المنتجة وانتاجية العمل الاجتماعى مستوى عاليا يؤمن الوفرة فى الخيرات المادية، فان المجتمع يستطيع الانتقال الى مبدأ التوزيع القائل: «من كل حسب كفاءاته ولكل حسب حاجاته».

ان كتاب «نقد برنامج غوتا» يعطى اكمل صيغة لآراء ماركس وانجلس حول مسألة الدولة وديكتاتورية البروليتاريا. واذا كان ماركس قد قام فى «بيان الحزب الشيوعى» بأول خطوة فى وضع نظريته عن الدولة وديكتاتورية البروليتاريا واعطى فيه صيغتها الاولى، المجردة نوعا، فانه، بعد تجربة احداث ١٨٤٨، شرع يتكلم عن ضرورة «تحطيم» اداة الدولة البرجوازية، ثم طرح بعد عام ١٨٧١، بعد كومونة باريس، مسألة النظام المدعو الى أن يحل عمليا محل اداة الدولة البرجوازية هذه. ويحتوى «نقد برنامج غوتا» موضوعة ماركس الشهيرة، التى تعرض خلاصة كل نظريته الثورية عن الدولة، وهى كما يلى:

«بين المجتمع الرأسمالى والمجتمع الشيوعى تقع مرحلة تحول المجتمع الرأسمالى تحولا ثوريا الى المجتمع الشيوعى. وتناسبها مرحلة انتقال سياسى لا يمكن ان تكون الدولة فيها سوى **الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا**»*.

---

* ماركس، «نقد برنامج غوتا». الطبعة العربية. موسكو. ص ٣١.

ان الافكار الرئيسية فى كتاب «نقد برنامج غوتا» التى طورها لينين وأغنتها تجربة بناء الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى وفى بلدان الديموقراطية الشعبية ما تزال تحتفظ بقيمتها النظرية والسياسية العملية لا فى ظروف النضال من اجل اقامة ديكتاتورية البروليتاريا فحسب، بل ايضا فى بناء المجتمع الاشتراكى والانتقال التدريجى الى الشيوعية.

وقد اغتنت خبرة كادحى الاتحاد السوفييتى وسائر بلدان المعسكر الاشتراكى نظريا فى البرنامج الذى اقره المؤتمر الثانى والعشرون للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى وهو برنامج ملموس، ثابت علميا، لبناء الشيوعية.

وعلى الرغم من النقد الشديد من قبل ماركس وأنجلس، حظى مشروع البرنامج الآنف الذكر بموافقة مؤتمر التوحيد فى غوتا الذى اقتصر على تعديله تعديلا خفيفا. أما مؤسسا الشيوعية العلمية اللذان لاحظا عقب ذلك أن العمال كانوا يرون فى هذه الوثيقة ما يجب أن يكون وكانوا يفسرونها فى معنى شيوعى فقد كفا عن نيتهما السابقة فى نقد البرنامج علنا.

ان المساومة الفاسدة المبرمة فى غوتا لم تلبث أن انعكست، كما تنبأ ماركس وأنجلس فى تطور الحزب لاحقا. فان توسخ الحزب، بعد التوحيد، «بعصبة كاملة من الطلاب الفجاج ومن الدكاترة الحكماء» وكذلك التشبك النظرى المتعاظم فى الحزب، كل ذلك آل الى انصياع بعض من قادة الحزب لاشتراكية دوهرينغ البرجوازية الصغيرة.

ان «النظام» الاشتراكى الذى ابتدعه حديثا دوهرينغ، الاستاذ المحاضر فى جامعة برلين، والذى كان مدعوا، على حد تصريح دوهرينغ الطنان، الى القيام بانقلاب فى الفلسفة والاقتصاد السياسى والاشتراكية، ان هذا النظام لم يكن فى

الواقع سوى خليط مبرقش من مختلف النظريات البرجوازية الصغيرة البالية.

الا أن ماركس وانجلس قدرا أنه يجب انتقاد هذا «المصلح الاجتماعى» الجديد اذ أن قادة الاشتراكية الديموقراطية الالمانية كانوا يتهيأون لنشر أفكاره بين العمال وأخذت الصحف الاشتراكية تكيل له الثناء والمديح. وقد قلق ليبكنيخت من ذلك وطلب من «اللندنيين» الاسراع بانتقاد دوهرينغ.

ولكى لا ينصرف ماركس عن كتابة «رأس المال»، اخذ انجلس على عاتقه العبء الرئيسى من انتقاد دوهرينغ «الممل». ووفقا للعادة التى رسخت فى علاقاتهما المتعلقة بالتعاون فى الميادين الخاصة، كتب ماركس لانجلس الفصل العاشر من القسم المخصص للاقتصاد السياسى. وقد قرأ أنجلس المخطوطة على ماركس قبل ارسالها الى المطبعة. وفى مطلع عام ١٨٧٧ شرعت جريدة «الى الامام» لسان حال الاشتراكيين الديموقراطيين الالمان، تنشر سلسلة مقالات انجلس المعنونة بعنوان ساخر: «السيد اوجن دوهرينغ يزلزل أركان العلم».

لقد اثارت هذه المقالات عدم الرضاء لدن انصار دوهرينغ فى اوساط الاشتراكية الديموقراطية الالمانية. وفى مؤتمر الحزب فى غوتا فى ايار - مايو - ١٨٧٧ طلب موست واتباعه الكف عن نشر مقالات انجلس بحجة انها لا تهم قراء «الى الامام».

ولكن المؤتمر قرر الاستمرار فى نشرها ولكن لا فى الصحيفة نفسها، بل فى ملحقها العلمى. وقد صدرت آخر مقالة فى منتصف عام ١٨٧٨، وفى السنة نفسها صدرت

المقالات مجموعة فى كتاب منفرد نال مذ ذاك شهرة واسعة باسم «ضد دوهرينغ».

وبما ان «نظام» دوهرينغ كان يتناول مجالا واسعا من المعارف الانسانية، فان انجلس فى سياق انتقاده لهذا النظام وتعقبه لدوهرينغ، كان مضطرا، على حد قوله نفسه، الى ان يتحدث عن اوسع المواد تنوعا: من مفهوم الزمان والمكان حتى النظام النقدى الثنائى المعدن ومن خلود المادة والحركة حتى الطبيعة العابرة للافكار الاخلاقية، ومن الانتقاء الطبيعى الداروينى حتى تربية الفتيان فى المجتمع المقبل. وكتب انجلس يقول: «وهكذا صار النقد السلبى ايجابيا بفضل ذلك وتحول النقاش عرضا متماسكا نوعا للطريقة الديالكتيكية والمفهوم الشيوعى عن العالم الذين نمثلهما أنا وماركس، وقد اشتمل هذا العرض مع ذلك عددا لا بأس به من ميادين المعرفة»*.

وهكذا نجم عن المناقشة مع دوهرينغ موسوعة ماركسية خاصة تتناول بشكل منهاجى حلقة ضخمة من المسائل المتعلقة بالفلسفة والعلوم الطبيعية والاقتصاد السياسى والاشتراكية.

كانت الفكرة الرئيسية فى الكتاب كله تكمن فى الدفاع عن المفهوم المادى المتناسق للعالم ضد كل تنازل للمثالية، للدين. «اما المادية المنسجمة حتى النهاية واما الاباطيل وغموض المثالية الفلسفية، هذا هو السؤال الوارد **فى كل فقرة** من كتاب «ضد دوهرينغ» »**.

---

* انجلس، «ضد دوهرينغ».

** لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٣٣٣.

كان انجلس فى نضاله ضد الفلسفة المثالية والمادية المبتذلة يدافع عن الديالكتيك المادي ويطوره باعتباره علم القوانين العامة لتطور الطبيعة والمجتمع والفكر الانسانى.

وقد عرض أنجلس فى هذا الكتاب أول نتيجة لدراساته فى ميدان علم الطبيعة النظرى مبينا بالاستناد الى عدد من الامثلة المستقاة من الرياضيات والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا أن «نفس القوانين الديالكتيكية للحركة التى تسود فى التاريخ عرضية الحوادث الموهومة، تشق فى الطبيعة ايضا طريقا لها من خلال فوضى تغيرات لا حصر لها...» *

كان كتاب «ضد دوهرينغ» خطوة جبارة الى الامام فى تطوير الماركسية بوصفها علما لقوانين تطور الطبيعة والمجتمع وعلم تحويل العالم تحويلا ثوريا.

وان هذا الكتاب الذى تتكشف فيه بكل الكمال الثروة الفكرية للشيوعية العلمية كان ولا يزال مصدرا من اثمن المصادر لدراسة الماركسية وسلاحا من أقوى الاسلحة فى مكافحة اعدائها. ولكن دورا كبيرا خاصا فيما يتعلق بتبسيط النظرية الماركسية، يعود الى الكراس المعنون «الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية» الذى شكله أنجلس من ثلاثة فصول من «ضد دوهرينغ». ان هذا الكراس عبارة عن مقدمة مبسطة لدراسة الشيوعية العلمية وهو يحتوى تفسير الاجزاء الثلاثة التى تؤلف الماركسية: الفلسفة والاقتصاد السياسى والاشتراكية. ان الطبعة الالمانية للكراس يتضمن ملحقا عنوانه «ماركا» وفيه برهن أنجلس، على

---

* انجلس. «ضد دوهرينغ».

اساس التحليل التاريخى، ضرورة تحالف البروليتاريا مع الفلاحين. وقد طبع هذا الكراس بالفرنسية أولا ثم لم يلبث ان صدر بالالمانية والايطالية والبولونية والروسية والدانماركية والهولندية والرومانية. ولقد لعب هذا الكراس مع «ضد دوهرينغ» دورا عظيما فى تربية الملاكات الماركسية فى مختلف البلدان.

لقد أنزل كتاب «ضد دوهرينغ» ضربة ماحقة بالعناصر البرجوازية الصغيرة وبجميع أنواع الطلاب الفجج و«العلماء» الجاهلين الذين تسربوا الى صفوف الحزب الاشتراكى الديموقراطى الالمانى وكانوا يدّعون بدور نظريى الحزب، ساترين جهلهم السياسى وراء جمل طنانة. كان هؤلاء الاشتراكيون «الخيريون» يتجمعون حول مجلة «المستقبل» («تسوكونفت») التى ينشرها هوخبرغ.

وكان تأثيرهم الخطر قد ظهر بقوة خاصة بعد صدور القانون الاستثنائى ضد الاشتراكيين حينما وضعت الاشتراكية الديموقراطية الالمانية تحت تجربة قاسية.

وان الدافع الذى استندت اليه الحكومة فى اصدار هذا القانون هو سلسلة من الاعتداءات على حياة الامبراطور. ولا يخفى على احد ان الاشتراكيين الديموقراطيين الالمان ما كان لهم اى علاقة بهذه الاعتداءات، ولكن حكومة بيسمارك عزمت على اغتنام هذه الحجة لاستنفار الطبقات المسيطرة والبرجوازية الصغيرة ضد «الشبح الاحمر».

ولكن الامر كان يتقوم فى النجاحات التى احرزتها الاشتراكية الديموقراطية الالمانية ابان الانتخابات فى الريخستاغ (البرلمان) (لقد بلغ عدد الاصوات لصالحها ٤٩٣ الف صوت فى عام ١٨٧٧ مقابل ١٠١ الف صوت

فى عام ١٨٧١) وكانت هذه النجاحات تقلق حكومة بيسمارك اكثر فاكثر. وكانت الاشتراكية الديموقراطية تزداد خطرا بشكل خاص عندما كانت الطبقات المسيطرة تقوم بحملات جديدة على الجماهير الكادحة برفع ضرائب الجمارك وأسعار المنتجات الصناعية والزراعية فى السوق الداخلية وتسيىء بذلك الى حالة الشعب. ولذا كان من الضرورى، بالنسبة للحكومة، تجريد حزب العمال من السلاح، ولهذا الغرض اصدرت قانونا ضد الاشتراكيين. وبموجب هذا القانون، الذى اقره الريخستاغ فى التاسع عشر من تشرين الاول - اكتوبر - ١٨٧٨، منعت جميع انواع المنظمات والصحافة التى تروج للاشتراكية؛ وكانت فى القانون فقرة خاصة تمنح السلطات الحق فى اعلان الاحكام العرفية، والخ..

ففى ظروف تبدل خطة الطبقات المسيطرة تجاه الاشتراكية الديموقراطية تبدلا شديدا، توجب على الحزب ان يظهر قدرته على تغيير خطته بسرعة وعلى اعادة تركيب صفوفه تنظيميا. ان مثل هذه الانعطافات المفاجئة انما هى بالنسبة للحزب بمثابة فحص تاريخى او امتحان صعب.

ولكن الحزب، كما بينت التجربة، لم يكن على استعداد للصمود لهذا الامتحان التاريخى.

وقبل ان يصبح القانون سارى المفعول، تكشف فشل قيادة الحزب. فبدلا من ان تبادر اللجنة المركزية (التى كانت تعمل تحت اسم اللجنة الانتخابية المركزية) بدون تأجيل الى انشاء منظمة سرية وجريدة سرية، قررت بالاتفاق مع الكتلة الاشتراكية الديموقراطية فى الريخستاغ حل الحزب طوعا. وهكذا، تحت ضربات الرجعية، وجد

اعضاء الحزب انفسهم بلا مركز ولا توجيهات هادية ولا مساعدة ولا اتصالات ولا خطة تكتيكية او تنظيمية. وان ما ابدته قيادة الحزب من انعدام الصمود والصلابة وروح الثورية، وعدم التفهم لضرورة الانتقال الى النضال السرى ردا على القانون الاستثنائى، انما كان لا بد لكل ذلك من ان يؤول الى الفوضى فى الحزب. فبدلا من استغلال منصة الريخستاغ، هذه الجزيرة الوحيدة من الشرعية التى بقيت فى متناول الاشتراكية الديموقراطية للدعاية الثورية، كان النواب الاشتراكيون الديموقراطيون يبذلون قصارى جهدهم فى الريخستاغ لاستعطاف السلطات، بجميع الوسائل، الغاء القانون الاستثنائى. مثلا، صرح ليبكنخت فى الريخستاغ فى احد خطاباته الاولى بعد التصديق على هذا القانون بان «الحزب سيخضع للقانون حول الاشتراكيين لانه حزب الاصلاحات بالمعنى الدقيق للكلمة، ويعتبر «القيام» بثورة بالعنف جنونا».

احتج ماركس وأنجلس فورا على هذه الخطة الانتهازية، وعلى مثل هذه الخطابات الطائعة للقوانين والرامية لارضاء التافه الضيق الافق الالمانى، التى تدلى بها الكتلة الاشتراكية الديموقراطية فى الريخستاغ.

وقد حاول ماركس وانجلس تقويم خطة القادة الاشتراكيين الديموقراطيين وتوجيههم فى الطريق الثورى الوحيد الجدير بالحزب العمالى، ولكنهما كانا يعولان بآمالهما على جماهير العمال الالمانية بالشكل الرئيسى. وقد اشار أنجلس فى رسائله غير مرة الى ان «الحركة الالمانية تتميز بخاصية قوامها ان الجماهير تصحح دائما اخطاء القادة. ويقينا ان الامر نفسه سيحدث هذه المرة ايضا».

وبالفعل، على الرغم من الارتباك الذى كان يسيطر على القادة، اخذت الجماهير الحزبية تعود تدريجيا الى تنظيم الاتصالات المنقطعة وتخلق منظمة سرية. وبفضل هذه المبادرة من الجماهير، وانتقاد ماركس وأنجلس الشديد شرع خيرة قادة الحزب ممن تملكهم التحير بعد اصدار القانون الاستثنائى، يقـّومون خطتهم. على أنه تجدر الاشارة الى انهم ما كانوا يفعلون ذلك على الدوام بشكل حازم ومتناسق وفى الوقت المناسب.

لم يبادر قادة الحزب الى انشاء جريدة سرية فى الاشهر الاولى عقب صدور القانون الاستثنائى، وليس هذا وحسب، بل انهم كانوا يعرقلون نشر صحيفتى «الحرية» («فرايخايت») و«الفانوس» («لاتيرنه») اللتين أسستهما فى الخارج بعض من الاشتراكيين الديموقراطيين، ولكنهم قد وجدوا انفسهم بعد ذاك مضطرين الى انشاء جريدة حزبية مركزية سرية.

وكم كان استياء ماركس وأنجلس شديدا حينما علما أنهم يتأهبون لتسليم رئاسة هذه الجريدة للاشتراكيين المزعومين هوخبرغ وبيرنشتاين وشرام الذين يعرفهم «اللندنيون» من عملهم فى مجلة «المستقبل». وقد بعث أنجلس فورا برسالة الى بيبل يحتج فيها باسمه وباسم ماركس على هيئة تحرير كهذه ويقول انه هو وماركس يرفضان الكتابة الى الجريدة المقبلة كما كان متفقا قبلئذ.

ولقد تعاظم غيظ ماركس وأنجلس حينما استلما العدد الاول من «حولية العلم الاجتماعى والسياسة» التى اخذ هوخبرغ يصدرها فى سويسرا اذ كان يتضمن مقالا تخفى توقيعه وراء ثلاث نجوم. كان المقال يعود الى «ثالوث زوريخ» السيىء الذكر: هوخبرغ وبيرنشتاين وشرام.

ان هذه الشخصيات التى كانت فى السابق تغذى الحزب بالمواعظ الاشتراكية الخيرية الحقيرة، قد انحنت الآن بازدياد نحو اليمين وتدافع عن آرائها المغرقة فى الانتهازية والاستسلامية.

ففى السابع عشر والثامن عشر من شهر ايلول – سبتمبر – ١٨٧٩ كتب انجلس رسالة دورية بعث بها باسمه هو وباسم ماركس الى بيبل وليبكنخت وبراك وغيرهم انتقد فيها شديد الانتقاد «بيان ثالوث زوريخ»، واصفا موقف «الزوريخيين» على النحو التالى:

«موافقة اجمالية بدلا من المعارضة السياسية الحازمة؛ محاولات لاقناع الحكومة والبرجوازية وجذبهما الى جانبهم بدلا من النضال ضدهما؛ خنوع واعتراف بأن العقاب كان مستحقا بدلا من المقاومة الضارية ضد الملاحقات من الاعلى».

كان «ثالوث زوريخ» يحاول تدعيم موقفه الاستسلامى هذا نظريا. وكان المقال يروج الفكرة القائلة بأن العمال لا يأبهون لاغراض الحزب النهائية وانهم لا يهتمون الا بالاغراض العملية القريبة، ولذا يجب السير «من نقطة الى نقطة» دونما التكلم عن الهدف النهائى.

فان الشعار المزعوم وهو «الحركة هى كل شىء، والهدف النهائى ليس شيئا» الذى نادى به بيرنشتاين فيما بعد، يتضمنه، بالاحرى، هذا المقال. ولقد تهكم أنجلس تهكما لاذعا من هؤلاء «الاشتراكيين» الذين يقبلون برنامج الحزب لا للنضال طول حياتهم لتحقيقه بل لتخليفه للذرية. وهو يسمهم بسمة الممثلين النموذجيين للبرجوازيين الصغار الذين كانوا ينصحون الحزب «بان

يسلك سبيل الشرعية أى سبيل **الاصلاح**» وذلك بدافع من خوفهم من الثورة البروليتارية. وبرهن على أن التدابير التى اقترحها هؤلاء ليست سوى ترقيع للرأسمالية بوساطة الاصلاحات الصغيرة التى لا تفعل غير ان تقوى النظام الاجتماعى القديم.

وبعد ما حطم ماركس وأنجلس أركان «النظريات» الاصلاحية وموقف «ثالوث زوريخ» السياسى الاستسلامى، طرحا بكل جد مسألة موقف الحزب من هؤلاء الرجال. فقد اشار انجلس الى ان آراء «رجال زوريخ» «متنافرة تماما» مع الوجود فى الحزب، وأن الحزب يخون نفسه بتركهم فى مراكزهم الرسمية.

ولم يهب ماركس وانجلس فى رسالتهما الدورية ضد آراء هوخبرغ وبيرنشتاين وشرام الانتهازية الصرفة فحسب، بل ايضا ضد موقف المسالمة الذى اتخذته قيادة الحزب منهم. كتبا يقولان:

«أما نحن الاثنين، فليس امامنا، وفقا لكل ماضينا، سوى سبيل واحد. ففى خلال قرابة اربعين عاما كنا ندفع النضال الطبقى الى مكان الصدارة بصفته قوة محركة مباشرة للتاريخ ولا سيما النضال الطبقى بين البرجوازية والبروليتاريا باعتباره دافعا قويا للانقلاب الاجتماعى فى الوقت الحاضر؛ ولهذا لا نستطيع اطلاقا أن نساير الذين يرغبون فى شطب هذا النضال الطبقى من الحركة... واذا كانت جريدة الحزب الجديدة قد قررت اتباع الاتجاه الذى يستجيب لآراء أولئك السادة، واذا كانت جريدة برجوازية بدلا من أن تكون جريدة بروليتارية فسوف لا يبقى لنا، ويا للاسف، سوى ان نهب ضد ذلك كله امام الملأ وان

نضع حدا للتضامن معكم الذى أبديناه حتى الآن بكوننا ممثلى الحزب الألمانى فى الخارج. على اننا نأمل أن لا تسير الامور **الى ذلك...»**

وبالفعل، لم تسر الامور الى ذلك، اذ ان انذار ماركس وانجلس القطعى وكذلك نقدهما قد اثرا تأثيرهما. فقد عهد الى فولمار الذى كان موقفه صحيحا نوعا فى هذا الحين بمهمة تحرير جريدة «الاشتراكى الديموقراطى» التى اخذت تصدر فى زوريخ. ولكن ماركس وأنجلس وجماهير الحزب استقبلوا الجريدة بشىء من الحذر فى بداية الامر وذلك بسبب عدم ثبات خطتها آنذاك. وبالتدريج فقط سلكت الجريدة طريقا صحيحا واصبحت هيئة كفاحية للحزب. والفضل فى ذلك يعود بدرجة كبرى الى انجلس الذى كان يتتبع باهتمام كل خطوة تخطوها ادارة التحرير ويوجه نشاطها. وبتأثير من انجلس، خطى بيرنشتاين، الذى حل محل فولمار فى هيئة تحرير الجريدة، خطوة ملحوظة الى اليسار وكان ينفذ جميع ارشادات أنجلس التى يبعث بها الى هيئة التحرير فى رسائله.

ولكن هذا لا يعنى اطلاقا ان الانتكاسات الانتهازية فى الحزب قد زالت. فان الجناح الايمن فى الحزب قد عشش داخل الكتلة الاشتراكية الديموقراطية فى البرلمان، وكان جزء من هذه الكتلة يقوم من حين الى آخر بحملات على خطة الحزب العامة.

كان انجلس يشجب هؤلاء الناس، وهم فى اغلبهم «مثقفون»، «متعلمون»، لا يرون فى الحزب سوى «بقرة حلوب» ولا يستطيعون ان يسلموا بفقدانهم لمداخيلهم الادبية بعد منع الصحف الاشتراكية الديموقراطية العلنية.

ولذا كانوا يريدون، على حد تعبير انجلس، ان «يستعطفوا الغاء القانون ضد الاشتراكيين بالخنوع والاستخذاء والمداهنة».

لقد عارض أنجلس هذه الخطة الجبانة والفاضحة بخطة ثورية بروليتارية تختلف اختلافا جذريا: «لا تلوى ولا انحناء تحت ضربات العدو كما يفعل ذلك الكثيرون ولا عواء ولا بكاء ولا تمتمة بالاعتذار وبتأكيد حسن نوايانا. بل يجب الرد على الضربة بالضربة، على كل ضربة من العدو بضربتين او ثلاث. ان هذه الخطة كانت دائما خطتنا وقد أحسنا، على ما يبدو، الصمود حتى الآن أمام أى خصم».

كان ماركس وأنجلس يدعوان قيادة الحزب وجريدته المركزية الى ان تراقبا بعين حذرة كل خطوة من العناصر البرجوازية الصغيرة، الانتهازية، من الكتلة البرلمانية، هذه العناصر التى تسعى وراء تحويل الحزب البروليتارى الثورى الى حزب اصلاحات تافه ضيق الافق. وكان ماركس وأنجلس يطالبان قادة الحزب بالنضال الحازم ضد الانتهازيين وكانا يعدان الحزب للانفصال المحتم عن تلك «العناصر ذات الميول البرجوازية» وكانا يوصيان كذلك بدراسة الوضع دراسة دقيقة لاختيار الفترة الاكثر ملاءمة لتحقيق الانفصال: «يجب أن يتم هذا الانفصال بحيث نواصل اجتذاب الحزب القديم وراءنا فاما انها تنسحب تلك العناصر من الحزب او تطرد منه».

وقد طرحت قضية الانفصال بشكل حاد فى عام ١٨٨٤، عندما تهيأت غالبية النواب الاشتراكيين الديموقراطيين فى البرلمان للتصويت على الاعتمادات

لخطوط الملاحة الجديدة متذرعة بضرورة تمتين الاواصر الثقافية بين الدول بينما كان ذلك بالفعل موافقة على سياسة بيسمارك الاستعمارية. وقد حمل موقفهم أنجلس على طرح قضية الانفصال على بساط البحث **بشكل عملي**، فأشار على بيبل بالمواقف التي من المهم بخاصة الاحتفاظ بها في الحزب لدن الانفصال. ومع ان الامر كان هذه المرة ايضا قد انتهى باليمينيين الى التقهقر، ولكن أنجلس لم يكف عن تحذير الحزب من ضرورة القطيعة التامة مع الانتهازيين.

كان ماركس وأنجلس يناضلان نضالا دائبا ضد كل ظاهرة للانتهازية وينتقدان في الوقت ذاته روح المصالحة معها التي كان ليبكنخت غالبا ما يبديها على الرغم من صحة موقفه في القضايا الاساسية. وكان أنجلس يضحك من ميل ليبكنخت الى «المسالمة وتخفيف الخلافات كي يؤجل وقوع الازمة».

ان الصراحة والوضوح والروح المبدئية التي كان ماركس وأنجلس يتشبثان بها في طرحهما القضايا كثيرا ما جرت عليهما الملامة بالديكتاتورية وبالخشونة. ونذكر على سبيل المثال رسائل ليبكنخت التي كانت تعبر عن شكاوى من هذا النوع. بيد أن ماركس وأنجلس العدوين اللدودين للعاطفية البرجوازية الصغيرة في مسائل السياسة والنضال الطبقي ما كانا ليعبآن باللوم واضعين مصالح البروليتاريا وحزبها في المرتبة الاولى.

وقد كانا يخوضان النضال ضد «اليساريين»، ابطال الجمل الثورية، وذلك الى جانب النضال ضد الانتهازية اليمينية في صفوف الاشتراكية الديموقراطية الالمانية.

كان ظهور الانتهازية «اليسارية» فى حقبة القانون الاستثنائى مرتبطا باسم يوحنا موست، محرر جريدة «الحرية».

فى بداية الامر، اضفى موست على جريدته طابعا معتدلا، ولكنه انعطف من ثم الى «اليسار» شديد الانعطاف. وانطلاقا من الاخطاء الانتهازية التى اقترفتها الكتلة الاشتراكية الديموقراطية فى الريخستاغ، وقع موست فى تطرف معاكس اذ انكر ضرورة الاستفادة من البرلمان وسائر الامكانيات المشروعة. وما كان نقده الفوضوى للبرلمانية يشبه فى شيء نقد ماركس وأنجلس الذى ما كان يقصد رفض الاستفادة من الامكانيات المشروعة ولا سحب النواب الاشتراكيين الديموقراطيين من البرلمان، بل اصلاح اخطائهم وتعليمهم الاستفادة الناجحة من السدة البرلمانية لاجل الدعاية الثورية ولأجل تعبئة الجماهير.

وعلى النقيض من مثل هذا الانتقاد الرامى الى اصلاح الاخطاء المقترفة، شن موست فى جريدته حملة عنيفة ضد جميع قادة الحزب أملا فى نسف قيادته. ولم تكن هذه الحملة، على حد تعبير ماركس، «...هجمات على بعض الاشخاص، بل صب الاقذار على **الحركة العمالية الالمانية كلها**».

بيد أن موست هذا نفسه الذى كان يصب سيولا من الشتائم على قادة الحزب، كان عاجزا عن تقديم اى برنامج ايجابى للعمل ورسم اى خطة تكتيكية. كان يطلق كلمة «ثورة» اعتباطا فى جريدته وما كان يشير على الجماهير الحزبية كيف يجب أن تستعد لهذه الثورة وكيف يجب أن تجمع القوى للهجوم وأى اشكال للنضال ينبغى للحزب ان يتبناها فى الظروف الناشئة.

وكان ماركس وأنجلس ينتقدانه لكون جريدته لا تحتوى اى مضمون ثورى، بل الجمل الثورية الطنانة فقط.

لم يلبث هذا النقد الفوضوى للبرلمانية ان دفع موست الى القطيعة المكشوفة مع الحزب. ففى ايلول - سبتمبر - ١٨٧٩ اقترحت جريدته انشاء حزب جديد. واعاد موست فى الوقت نفسه النظر فى آرائه النظرية فتطور نحو الفوضوية.

ولم يلبث هاسلمان، النائب الاشتراكى الديموقراطى فى الريخستاغ، ان حذا حذو موست.

وقد فصلهما من صفوف الحزب أول مؤتمر سرى للحزب انعقد فى ويدن عام ١٨٨٠. وفى الوقت ذاته ألغى المؤتمر من برنامج غوتا النقطة التى تقول ان الحزب كان يستعمل لبلوغ أهدافه «جميع الوسائل المشروعة» واعترف، بالتالى، بضرورة الجمع بين الاشكال المشروعة وغير المشروعة.

لقد حلل ماركس وأنجلس جذور الانتهازية التى ظهرت للوجود فى الاشتراكية الديموقراطية الالمانية، فرأياها فى البرجوازية الصغيرة الالمانية الكثيرة العدد وفى روح التفاهة وضيق الافق الخاصة بها، هذه الروح التى كانت، بحسب تعبير أنجلس، «الشقيقة بدمها لزحف الخدم وخنوع الرعايا الاوفياء وسائر النقائص الالمانية الموروثة».

كانت العناصر الانتهازية تحاول حقن البروليتاريا الالمانية وحزبها «بسم الخمود التافه والضيق البرجوازى الصغير»، والقضاء، بالتالى، على التفوق النظرى الذى كانت الحركة العمالية الالمانية تتميز به فى تلك الحقبة.

ولكى نعطى فكرة عن مدى الاهمية الكبرى التى أعارها

Herrn Eugen Dühring's

Umwälzung der Wissenschaft.

Philosophie. Politische Oekonomie. Sozialismus.

Von

Friedrich Engels.

Leipzig 1878.

Druck und Verlag der Genossenschafts-Buchdruckerei.

صفحة الغلاف الداخلي من كتاب انجلس «ضد دوهرينغ»

أنجلس للنظرية الثورية يكفى أن نذكر مقدمته لـ «حرب الفلاحين فى ألمانيا» (عام ١٨٧٤) حيث أشار الى الصلة العضوية الوثيقة بين الاشكال الثلاثة لكفاح البروليتاريا وهى: الكفاح النظرى والسياسى والاقتصادى. وكان يرى فى وحدة هذه الاشكال الثلاثة للكفاح ضمانة القوة للحركة العمالية واستحالة قهرها.

لقد كافح ماركس وأنجلس فى سبيل نقاء النظرية الثورية وضد كل انواع الانتهازية سواءا فى المضمار النظرى أم العملى فساعدا مساعدة نفيسة الاشتراكية الديموقراطية الالمانية على وضع خطتها التكتيكية والتنظيمية فى ظروف القانون الاستثنائى المعقدة وعلى سلوكها الطريق الصحيح الثورى.

ان نشاط الاشتراكية الديموقراطية الالمانية الثورى فى ظروف الملاحقات الحكومية والتدابير البارعة لنشر جريدة الحزب السرية «الاشتراكى الديموقراطى»، انما كان كل ذلك مدرسة ثورية بالنسبة للجماهير الحزبية ووسيلة لتقوية الحزب ولتربية اعضائه. كان ماركس وانجلس يحتفظان دائما وابدا بايمانهما بالجماهير الحزبية، وقد أكدت الحياة صحة هذا الايمان كما أكدتها تجربة نضال الاشتراكية الديموقراطية الالمانية فى فترة القانون الاستثنائى. ولقد اشار لينين الى هذه التجربة اكثر من مرة فى سياق تعليمه الحزب البلشفى الجمع الواعى بين اشكال النشاط المشروع وغير المشروع.

كان ماركس وأنجلس يعيران اهتماما كبيرا للحركة العمالية الالمانية، الا انهما كانا يتتبعان بامعان الحركات العمالية فى سائر البلدان ولا سيما فى فرنسا وانكلترا

حيث كانا يجمعان، كما فى ألمانيا، ملاكات أهل لان تكون نواة لتشكيل حزب عمالى وكانا يعلمانها بصبر ودأب فن توجيه الجماهير وقيادتها.

كان ماركس وأنجلس يدرسان بامعان الظروف التى تتطور فيها الحركة العمالية الفرنسية بعد هزيمة كومونة باريس، وكذلك التطورات التى تجرى فى داخل هذه الحركة. كان أنجلس يرى فى القطيعة بين باريس والاقاليم الريفية التى لم تساند الثورة فى العاصمة بل سارت ضدها، احد النواقص الجذرية للحركة الثورية السابقة فى فرنسا. ومع ذلك، لاحظ أنجلس فى ارتياح أن هذه القطيعة بين الاقاليم الريفية و« بابل الثورية » اخذت تتقلص شقتها بعد عام ١٨٧١ وان احتياطات الثورة ولا سيما من الفلاحين، اخذت تخرج من خمودها.

وكذلك رأى انجلس أمرا ايجابيا آخر فى الضربة القاضية التى انزلتها تجربة كومونة باريس بمختلف النظريات البرجوازية الصغيرة التى كانت تسود الحركة العمالية الفرنسية من ذى قبل ونعنى بها البرودونية والبلانكية وغيرهما؛ الامر الذى سهل للعمال الفرنسيين استيعاب الماركسية التى هى النظرية العلمية للبروليتاريا العالمية عوضا عن الاشتراكية القديمة الفرنسية الصرفة.

غير ان الماركسية ما كانت آنذاك ايضا تشق طريقها صوب جماهير العمال فى فرنسا بلا كفاح. فقد كانت تعيق سبيلها مختلف العناصر البرجوازية الصغيرة والفوضوية التى ظلت تدافع عن النظريات البالية على الرغم من فشلها فى الميدان العملى. وما كان له تأثيره، من ناحية أخرى، هو تفاخر بعض الاشتراكيين الفرنسيين بماضى بلادهم الثورى

ونفورهم لاخذ النظرية الثورية من شخص ألمانى، هو ماركس. وهذا ما أشار اليه أنجلس فى رسالة بعث بها الى برنشتاين فى الخامس والعشرين من شهر تشرين الاول – اكتوبر – ١٨٨١: «ان عددا كبيرا من الاشتراكيين الفرنسيين يشعرون بالذعر لدى تفكيرهم أن أمة اسعدت العالم بالافكار الفرنسية وتمتلك احتكار الافكار وان باريس منارة الدنيا، يجب عليها الآن أن تأخذ الأفكار الاشتراكية جاهزة من الالمانى ماركس. ولكن الحال هكذا كان مع ذلك، فضلا عن ان ماركس كان يفوقنا جميعا بعبقريته وذمته العلمية التى تكاد تكون خارقة واطلاعه الاسطورى وسعة معرفته الفائقة حتى أن الذى قد يتجرأ على نقد اكتشافاته لن يعدم أن يحرق أصابعه. ان هذا لن يكون ممكنا الا لممثلى عصر أكثر تقدما... ولا ادرك بصورة عامة كيف يمكن للمرء أن يحسد العبقرى. ان هذه الظاهرة فذة حتى اننا نحن الآخرين الذين لا نملك هذه الموهبة، مقتنعون سلفا من اننا عاجزين عن بلوغها. الا انه يجب أن يكون المرء سخيفا كل السخافة حتى يشعر تجاه هذه الظاهرة بشعور الحسد».

ولكنه كان هناك اناس امثال الزعيمين الانتهازيين مالون وبروس اللذين اتهما جول غيد وبول لافارغ، مؤسسى حزب العمال فى فرنسا، بانهما اللسان الناطق باسم ماركس. كانا لا يريدان سماع كلمة من البرنامج الذى اقترحه غيد والذى كان القسم النظرى منه قد املاه ماركس على غيد.

قال أنجلس فى الحديث عن وضع هذه الوثيقة وذلك فى احدى رسائله: «...جاء غيد ليقابلنا عندما اقتضى

الامر تأليف **مشروع** برنامج لحزب العمال الفرنسى. وقد أملى عليه ماركس المقدمة فى غرفتى، وكنت أنا ولافارغ حاضرين، فقال: ليس العامل حرا الا حينما يملك وسائل الانتاج؛ ويستطيع أن يملكها ملكا فرديا أو جماعيا؛ ان التطور الاقتصادى يتغلب، ولن يفتأ يتغلب بازدياد يوما بعد يوم، على الملكية الفردية؛ فلا يبقى اذن سوى شكل الملكية الجماعية وهلمجرا. لقد كان هذا نموذجا عالى المهارة من الحجة المقنعة الموجزة السهلة الفهم على الجماهير، التى ما كنت اعثر على مثلها الا نادرا جدا والتى أدهشتنى بصيغتها الواضحة هذه. ثم ناقشنا بقية البرنامج فحذفنا قسما واضفنا قسما الا انه يكفى للبرهان على أن غيد لم يكن الناطق بلسان ماركس، أن نقول انه قد اصر على طلبه السخيف بصدد الحد الادنى للاجرة...»

وعلى الرغم من أن هذا البرنامج كان مشوها بعض الشىء من جانب الاشتراكيين الفرنسيين، وفى جملتهم غيد، فقد قبل مع ذلك فى باريس ثم فى سائر المدن الصناعية الفرنسية. وقد رأى ماركس فى ذلك بادرة ظهور اول حركة عمالية حقا فى فرنسا.

على أن انشاء الحزب لم يضع حدا للنضال ضد العناصر البرجوازية الصغيرة، الانتهازية.

فان العناصر الانتهازية فى الحزب، وعلى رأسها مالون وبروس، قد شنت نضالها ضد البرنامج الذى اقره مؤتمر الحزب فى الهافر عام ١٨٨٠ وضد مبادئ الحزب التنظيمية. وكان هؤلاء الانتهازيون قد تقدموا بالشعار الباكونينى القائل «بالاستقلال الذاتى» طالبين بالحق لكل منظمة محلية من الحزب فى تعديل البرنامج على هواها، قصد

« تكييفه » للاحوال المحلية. كانوا يرفضون اهداف الحزب النهائية ويقترحون بان يتقدم البرنامج بالمطاليب التى يمكن التوصل اليها فى الظروف المعنية. ولقد شن غيد ولافارغ نضالا حازما ضد سياسة « الامكانية » البرجوازية الصغيرة هذه، ضد الانصراف عن الطابع الطبقى للحزب من أجل « صيد الاصوات » خلال الحملات الانتخابية.

لقد أيد ماركس وانجلس نضال غيد ولافارغ هذا واستحسناه كل الاستحسان. على انهما انتقدا فى الوقت نفسه الاخطاء التى اقترفها غيد ولافارغ ولا سيما ميولهما الى العقائدية والانعزالية وعدم مرونتهما فى المسائل التكتيكية، هذا الى جانب اتخاذهما بالخطة العامة الصحيحة.

ان الانقسام الذى تم فى مؤتمر سانت أتيان عام ١٨٨٢ بين أنصار غيد والامكانيين قد اعتبره مؤسسا الماركسية خطوة الى الامام فى طريق تطور الحزب البروليتارى فى فرنسا. واستنادا الى هذا الانقسام، تقدم انجلس بموضوعة بالغة الاهمية عن طبيعة تطور الاحزاب العمالية فى ظروف الرأسمالية وعن النضال فى داخلها بين الميل الثورى والميل الانتهازى. وكتب يقول: « ان **كل** حزب عمالى فى بلد كبير لا يمكنه ان يتطور، على ما يبدو، الا فى النضال الداخلى، مما ينطبق تماما على قوانين التطور الديالكتيكى بوجه عام ». وقد ذكر أنجلس سندا لهذا الحكم النضال بين الايزناخيين واللاساليين فى المانيا والنضال بين الامكانيين وانصار غيد فى فرنسا.

كان مؤسسا الماركسية يعتبران النضال ضد الانتهازية قانونا ملازما لتطور كل حزب عمالى فكانا يشيران الى ضرورة تنقية صفوف هذه الاحزاب البروليتارية من الانتهازيين الذين

يسعون وراء تحويلها الى احزاب اصلاحية برجوازية صغيرة. كتب أنجلس يقول فى احدى رسائله: «ان التناقضات لا يمكن تخفيفها لمدة طويلة، وانها لتجد حلها فى النضال».

ان هذه الفكرة البارزة عن قوانين تطور الاحزاب البروليتارية كانت ترقية لتلك الاحكام القائلة بالحزب بوصفه طليعة البروليتاريا، الاحكام التى تقدم بها ماركس وأنجلس فى «بيان الحزب الشيوعى» ثم طوراها وأكملاها على اساس تجربة ثورات ١٨٤٨-١٨٤٩ ومن ثم استنادا الى تجربة اكثر غنى، ونعنى بها تجربة الاممية وكومونة باريس، وأخيرا، استنادا الى الكفاح فى سبيل انشاء أحزاب اشتراكية فى مختلف البلدان.

لقد طور لينين فيما بعد احكام ماركس وانجلس هذه عن حزب البروليتاريا وحولها الى نظرية منسجمة عن الحزب بصفته السلاح الرئيسى للطبقة العاملة فى النضال من أجل ديكتاتورية البروليتاريا وانشاء المجتمع الشيوعى. ان مذهب لينين عن الحزب قد كان تعميما نظريا للتجربة الجديدة المكتسبة من كفاح الطبقة العاملة فى عصر الاستعمار والثورات البروليتارية.

فاذا كان الحزب البروليتارى فى فرنسا، حيث كانت الطبقة العاملة محاطة ببيئة كثيفة من البرجوازية الصغيرة، قد تشكل فى غمرة من النضال الداخلى الحاد، فان الشروط فى انكلترا لانشاء مثل هذا الحزب كانت أشد صعوبة مما فى فرنسا.

فان الحركة العمالية الانكليزية التى قدمت الى العالم أول مثال للحركة السياسية البروليتارية المستقلة وهو

حركة الميثاق، والتى ابتدأت بعد فترة من الانحطاط تسلك طريق رحبة من الصراع الطبقى بقيادة الاممية، قد انحصرت من جديد فى النطاق الضيق للنضال الاقتصادى الصرف، و «انغرست فى العفاشة التريديونيونية الاكثر تفاهة» (أنجلس). كانت التريديونيونات الانكليزية ترى فى زيادة الاجور وتخفيض ساعات يوم العمل الهدف الوحيد للحركة العمالية. وقد حددت مهام الطبقة العاملة بالنضال «فى سبيل القرش» فكانت تنكر كل نضال سياسى مستقل للبروليتاريا. كان هذا الخط يرضى البرجوازية الانكليزية كل الرضاء اذ انها ما كانت تألو جهدا فى سبيل جعل البروليتاريا تقوم بدور الذيل لسياستها.

ففى رسالة وجهها انجلس الى بيبل فى عام ١٨٨٣ طوّر تحليله لاسباب انتصار الانتهازية الموقت فى الحركة العمالية الانكليزية، ذلك التحليل الذى تقدم به فى العقد السادس من القرن التاسع عشر وكتب يقول:

«اذا سمعت من يقول لك ان حركة بروليتارية حقا أخذت تظهر فى انكلترا فلا تصدقه باية حال من الاحوال... فالعناصر التى بدأت تظهر بعض النشاط فى الوقت الراهن لا تستطيع أن تكتسب أهمية الا اذا تبنت برنامجنا النظرى ووقفت، بالتالى، على أرض راسخة، وذلك فى حالة تفتح حركة عمالية جماهيرية هنا وشرط ان تستطيع تلك العناصر أن تأخذ بزمام قيادتها. لقد ظلت حتى الآن منعزلة وليس وراءها سوى خليط من الانعزاليين والمشوشين وبقايا حركة العقد الخامس ولا شىء اكثر من ذلك. ولكن حركة عمالية عامة حقا لن تظهر هنا، ان لم يحدث شىء غير متوقع، الا حينما يشعر العمال بان الاحتكار العالمى

الانكليزى قد قوضت دعائمه. ان الاشتراك فى السيطرة على السوق العالمية كان وما يزال اساسا اقتصاديا لتفاهة العمال الانكليز السياسية ».

وعلى الرغم من ان انكلترا اخذت تفقد احتكارها الصناعى نظرا لمزاحمة المانيا والولايات المتحدة المتزايدة، كان استغلال المستعمرات يتيح للرأسماليين الانكليز الذين كانوا يحصلون على ارباح هائلة، تحسين حالة أقلية العمال المتمتعة بامتيازات والقاء الفتات الى فئات اوسع من العمال من وقت الى آخر. كان هذا يسهل انتشار الآراء الانتهازية حول امكانية تحسين وضع العمال تحسينا جذريا فى اطار الجمتمع الرأسمالى.

كان ماركس وأنجلس يريان احد اسباب تأخر الحركة العمالية الانكليزية فى اللامبالاة الخاصة بالعمال الانكليز تجاه كل نظرية، وهذا ما كان يسهل للبرجوازية ابقاء العمال تحت تأثيرها الايديولوجى.

كان مجموع هذه العوامل سبب انعدام وجود حزب بروليتارى مستقل فى انكلترا حيث لم يكن يوجد سوى عدة بدع اشتراكية متعادية فيما بينها عداوة ضارية.

كان مؤسسا الشيوعية العلمية قد نظما فى انكلترا نضالا فى سبيل انشاء حزب بروليتارى جماهيرى وبذلا نشاطا عظيما لهذا الغرض. فكانا على اتصال دائم بممثلى العمال الانكليز لمساعدتهم على استيعاب النظرية الماركسية التى كانا يروجانها بوساطة الصحف الانكليزية. فقد نشر انجلس، مثلا، فى جريدة « راية العمل » (« ليبور ستاندارد ») فى عام ١٨٨١ سلسلة من المقالات بين فيها بشكل مبسط للعمال الانكليز عدم كفاية النضال الاقتصادى وحده وضرورة انشاء

حزب عمالى للقضاء على الاستغلال الرأسمالى. وكان أنجلس يشير فى هذه المقالات الى ان نضال التريديونيونات الانكليزية فى سبيل زيادة الأجور وتخفيض ساعات العمل، على الرغم من كل اهميته، لا يمكنه ان يؤول الى تحسين حالة العمال تحسينا جذريا.

« بقيت الطبقة العاملة على ما كانت عليه وما لم يخش آباؤنا الميثاقيون من تسميتها: «طبقة عبيد أجراء». هل ان مآل جميع الجهود والتضحيات والآلام يجب ان يكون هكذا؟ هل ان ذلك يجب ان يبقى الهدف الاسمى للعمال البريطانيين؟ اوليس من واجب الطبقة العاملة الانكليزية ان تتخلص من هذه الحلقة الفاسدة وان تجد مخرجا لها فى حركة تستهدف **القضاء على نظام العمل المأجور بالذات**؟ »

وفى مقاله المعنون «حزب العمال»، بين انجلس للبروليتاريين الانكليز ان دورهم السياسى ليس خليقا بالطبقة العاملة وهى الطبقة الاكثر تنظيما فى اوروبا، وانهم لا يلعبون الا دور ملحق بالحزب الليبرالى البرجوازى. وعلى مثال الحركة العمالية فى اوربا، برهن انجلس ضرورة انشاء حزب عمالى مستقل فى انكلترا وضرورة نضال البروليتاريا فى سبيل السلطة السياسية. وفى مقال آخر هو «الطبقات الاجتماعية الضرورية وغير الضرورية» بين انجلس أن الطبقة العاملة تستطيع أن تدير دفة جميع فروع الصناعة الكبيرة بدون تدخل الرأسماليين وان هذا التدخل يصبح متزايد الضرر.

كان ماركس وانجلس يجيدان الكشف عن العيب الرئيسى فى الحركة العمالية فى هذا البلد او ذاك وطبيعة العوائق التى تعرقل فيه اندماج الاشتراكية مع الحركة

العمالية. كانا يبذلان جهودا كثيرة لانشاء احزاب بروليتارية حقا فى مختلف البلدان ويعرفان كيف يحددان لبروليتاريا كل بلد الحلقة الحاسمة التى يجب أن يتشبثوا بها ليخرجوا السلسلة كلها.

كتب لينين يقول: «فمن الناحية العلمية نرى هنا نموذجا عن الديالكتيك المادى، وموهبة ابراز شتى نقاط المسألة، شتى نواحيها وتبيان قيمتها، مع تكييفها وفقا للخصائص الملموسة لهذه الاوضاع السياسية والاقتصادية او تلك. ومن حيث سياسة حزب العمال العملية ومن حيث خطته، نرى هنا نموذجا عن الطريقة التى حدد بها واضعا «البيان الشيوعى» مهمات البروليتاريا المناضلة، تبعا لمختلف مراحل الحركة العمالية فى شتى البلدان»*.

ونتيجة ذلك كله، كان خيرة ممثلى الحركة العمالية فى جميع البلدان يتوجهون فى اللحظات الحاسمة الى ماركس وأنجلس طالبين الارشاد والنصح.

والى جانب القيام بقيادة الحركة العمالية، كان ماركس وانجلس يواصلان ابحاثهما النظرية التى كانت فى نظرهما جزءا هاما من نشاطهما الحزبى.

كتب أنجلس لبيكر يقول: «علينا نحن أنا وماركس ان نحقق عملا علميا معينا تماما ما من أحد غيرنا - يجب أن نقول ذلك صراحة - يريد أو يستطيع الانكباب عليه. يجب علينا أن نستفيد من هذه الفترة الهادئة من التاريخ العالمى لانجازه، لأنه ما من احد يدرى متى تزج الحوادث بنا من جديد فى غمرة النشاط العملى؛ ولهذا يجب ان نغتنم

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٢٦٤.

أوقات فراغنا القصيرة لكى نطور، ولو قليلا، الجانب النظرى من الحركة الذى لا يقل اهمية عن سائر النواحى».

كان تأليف الجزئين الثانى والثالث من كتاب «رأس المال» موضوعا اساسيا من اشغال ماركس النظرية. الا ان المرض كان ينتزعه اكثر فاكثر عن طاولة العمل.

فان ذمته العلمية الكبرى ونقده الذاتى الصارم والسعى وراء اعطاء تعميم نظرى لكل ما تحمله الحياة من جديد، كل ذلك كان يجبر ماركس على الرجوع باستمرار الى المسائل الاساسية من كتابه. كان كل تعميم نظرى فى كتاب «رأس المال» يستند الى دراسة مواد فعلية لا حصر لها.

فان عمل ماركس على كتابة فصل «الريع العقارى» من المجلد الثالث من «رأس المال» انما هو مثال ساطع لهذا الشغل. فمن اجل هذا الفصل، قام ماركس فى العقد الثامن من القرن الماضى بأبحاث واسعة عن العلاقات العقارية فى روسيا بعد اصلاح عام ١٨٦١. كان ماركس يتلقى بوساطة أصدقائه الروس (دانيلسون، مترجم «رأس المال»، والبروفيسور كوفاليفسكى وغيرهما) مقدارا هائلا من المعلومات الاحصائية وغيرها من الوثائق، فيدرسها دراسة دقيقة قصد الاستفادة من هذه المواد لاعادة تأليف الفصل الخاص بالريع العقارى. وعلى حد شهادة انجلس، كان لروسيا ان تحتل فى هذا الفصل مكانة مماثلة لمكانة انكلترا فى المجلد الاول فيما يتعلق بالابحاث عن العمل المأجور فى الصناعة، الا ان ماركس، لسوء الحظ، لم يتمكن من تحقيق هذا القصد.

أما أنجلس فانه، الى جانب عمله الجبار على ترويج الماركسية والدفاع عنها فى الصحف ضد حملات الاخصام،

كان يواصل أبحاثه فى مضمار العلوم الطبيعية. فبعدما بدأ أنجلس بدراسة هذه العلوم، فترة فترة، أثناء اقامته فى مانشستر شرع، بعد مؤتمر لاهاى، يكتب كتابا كبيرا عن الديالكتيك فى الطبيعة. الا انه، بعد ما كتب «المقدمة» له، اضطر الى ان يتركه لينصرف الى نقد كتابات دوهرينغ. وما ان انتهى من كتابه «ضد دوهرينغ» (يونيو – حزيران – ١٨٧٨) حتى عاد الى عمله المتروك وكتب له عدة فصول مصقولة نسبيا وكثرة من الملاحظات والمخططات. وقد أرغمه موت ماركس على أن يتركه مرة أخرى حتى بقى كتابه «ديالكتيك الطبيعة» غير منجز. وقد أبقى الزعماء الانتهازيون من الحزب الاشتراكى الديموقراطى الالمانى هذا الكتاب ثلاثين سنة فى كتمان ونسيان. ولم ير النور الا فى عام ١٩٢٥ فى الاتحاد السوفييتى حيث صدر باللغتين الروسية والالمانية.

ان «ديالكتيك الطبيعة» رغم كونه غير منجز هو عبارة عن مؤلف رائع نظرا لعمق أفكاره وغناها ولأهميته النظرية.

تحتوى «المقدمة» لمحة عن الطريق الذى قطعه تطور العلوم الطبيعية منذ عصر النهضة حتى داروين. ويبين أنجلس كيف أن المفهوم الديالكتيكى عن الطبيعة كان يشق طريقا له فى النضال ضد المفهوم الميتافيزيائى. وفى هذا المجال، يشير انجلس الى دور العمل التطبيقى، دور الانتاج، هذا الدور الذى يحدد، فى آخر الامر، تطور العلم.

ان كتاب «ديالكتيك الطبيعة» يتضمن تعميما فلسفيا للاستنتاجات التى توصلت اليها العلوم الطبيعية فى زمن انجلس. وقد برهن أنجلس على أن كل شيء فى الطبيعة

يجرى وفقا للديالكتيك ولهذا لا يوجد سوى طريقة صحيحة وحيدة لمعرفة الطبيعة هى الديالكتيك المادى.

لقد حلل أنجلس مختلف أشكال حركة المواد ووحدتها وانتقال بعضها الى شكل البعض الآخر بصورة متبادلة وخصائصها النوعية وقدم تصنيفا للعلوم الطبيعية.

ولم يكف انجلس فى الكتاب كله عن محاربة الافكار «العلمية» الزائفة الاكليريكية. وفى سياق انتقاد المثاليين والماديين المبتذلين وفى النضال ضد المفاهيم الميتافيزيائية والتجريبية الفظة، عرض انجلس المبادئ الطبيعية العلمية للمفهوم المادى الديالكتيكى. وأيد كل شىء جديد تقدمى فى علم ذلك الزمن وناضل ضد انصار كل ما هو عتيق، بال فى جميع فروع علم الطبيعة والرياضيات.

ان انجلس، اذ بحث حالة العلوم الطبيعية من مواقع المادية الديالكتيكية، وهى اكثر المفاهيم تقدما وثورية، قد ابصر بعيدا الى الامام وتقدم بعدد من الفرضيات العلمية النافعة وتنبأ ببعض الاكتشافات العلمية التى لم تتم الا فيما بعد. فكان، مثلا، على خلاف أغلبية العلماء فى عصره، يدافع عن النظرة القائلة ان الذرات ليست بجزيئات بسيطة غاية فى الصغر فحسب، بل انها ذات تركيب معقد. وفيما بعد أكد تطور العلم رأى انجلس هذا.

وفى اللمحة الرائعة «دور العمل فى تحول القرد الى انسان» بين انجلس الدور الحاسم الذى اضطلع به العمل فى عملية تشكل العضوية البشرية، وفى انبثاق اللغة وتكون المجتمع البشرى.

وهكذا قدم انجلس، استنادا الى مواد هائلة، نموذجا يفوق التقدير عن تطبيق الديالكتيك المادى فى مضمار

دراسة الطبيعة ايضا. ومع ان عددا من استنتاجاته المتعلقة بالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، مثلا، وهى علوم قد تقدمت مذ ذاك تقدما عظيما، قد عفى عليها الزمن، الا ان كتاب «ديالكتيك الطبيعة» ما زال يحتفظ حتى ايامنا هذه بقيمة علمية وفلسفية هائلة.

ومع ان لينين لم يقدر له أن يطلع على هذا الكتاب العظيم، الا ان مؤلفه «المادية والمذهب النقدى التجريبى» (١٩٠٩) يبدو كأنه مواصلة لابحاث انجلس وتطوير لها. فاعتمادا الى الاسلوب المادى، عمم لينين فى كتابه أهم النتائج التى احرزتها العلوم ولا سيما العلوم الطبيعية، المكتسبة بعد موت أنجلس، وطور الاسس النظرية للماركسية وهى المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ودافع عنها بنجاح.

وفى الرابع عشر من شهر آذار – مارس – عام ١٨٨٣ طرأ حادث أليم جعل أنجلس يترك جانبا كتابه وللأبد كما اتضح فيما بعد. وكان هذا الحادث وفاة ماركس.

وفى اليوم نفسه أرسل أنجلس برقيات تخبر اصدقاء ماركس ورفاقه فى الكفاح بالخسارة الفادحة التى منيت بها الحركة الاشتراكية الاممية. كتب أنجلس لليبكنيخت: «على الرغم من أننى رأيته هذا المساء متمددا فى سريره وقد جمد سكون الموت ملامحه للابد، لم أصل الى الاقتناع بأن هذا الدماغ العبقرى قد توقف عن اخصاب الحركة البروليتارية فى العالم بأسره بفكره الجبار».

وكتب لبيكر يقول:

«ان اقوى دماغ فى حزبنا قد توقف عن التفكير وان اقدر قلب عرفته قد توقف عن الخفقان».

وكتب لزورغه:

« لقد صارت الانسانية اقصر مما كانت عليه برأس واحد وأيما رأس، أعظم رأس من كل الرؤوس التى كانت لها فى عصرنا نحن ».

لقد ألقى موت ماركس على أنجلس ثقلا مضاعفا: فلم يخسر الزعيم العبقرى لهذه الحركة التى كرس لها هو ايضا حياته وحسب، بل خسر كذلك « وجهه » الثانى، رفيق حياته الواعية كلها والصديق الوفى والرفيق فى النضال.

وقد دفن ماركس فى السابع عشر من شهر آذار – مارس – عام ١٨٨٣ فى مقبرة هايغيت فى لندن. والقى أنجلس على قبر صديقه الفقيد كلمة تأبينية وصف فيها المآثر العلمية العظيمة التى اجترحها ماركس واعطى صورة عن حياته، حياة المناضل المتفانى الباسل فى سبيل قضية البروليتاريا، فى سبيل جميع الكادحين والمظلومين. وختم خطابه بهذه الكلمات النبوئية:

« سيعيش اسمه على مرور العصور وستعيش قضيته أيضا! »

وفى الايام التى كان أنجلس يخبر ثوريى الدنيا كلها بنبأ وفاة ماركس، وهى أقسى ايام حياته، لم يفقد حيوية روحه ولم ينحن تحت وطأة الضربة.

« لم يبق غيرنا انت وانا، على ما يبدو، من الرعيل الاول لعام ١٨٤٨. – كتب انجلس فى رسالته لبيكر فى اليوم الثانى بعد وفاة ماركس، – فماذا! سنبقى فى مركزنا. الرصاص يئز والاصدقاء يتساقطون صرعى ولكن هذا لا نراه أنا وأنت لاول مرة. فاذا اصابت رصاصة أحدنا فلتصبه اصابة محكمة كيلا يتألم طويلا ».

٩

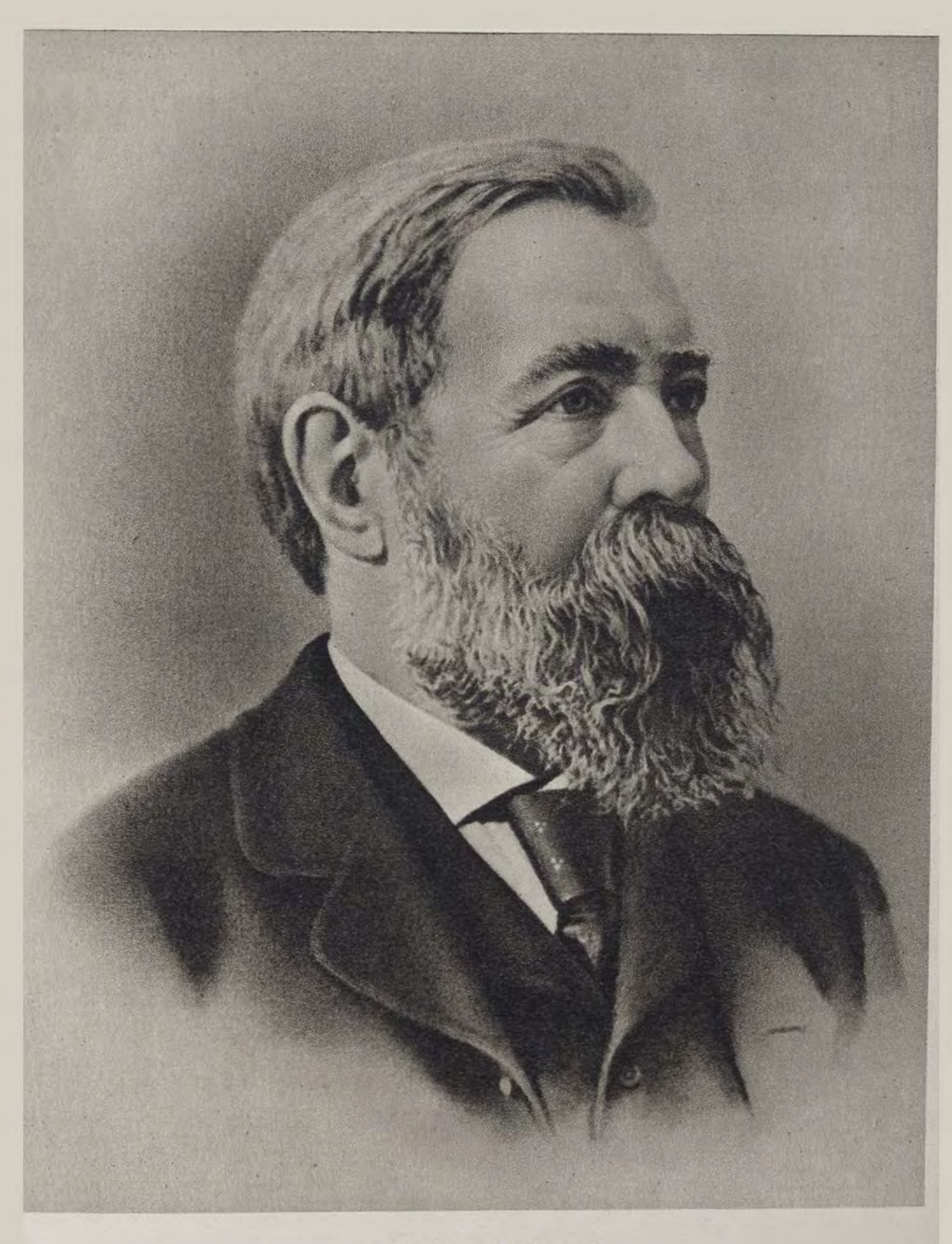
أنجلس بعد وفاة ماركس

(١٨٨٣–١٨٩٥)

كان أنجلس حال حياة ماركس يبذل كل ما فى وسع الانسان من اجل شق الطريق لعبقرية ماركس ومن اجل مساعدة صديقه فى كتابة «رأس المال» فلم يتردد لحظة بعد وفاته عن ترك اعماله العلمية الخاصة ليكرس بقية حياته لانجاز العمل الذى قطعه مرض ماركس وموته فى نصف الطريق ونعنى به نشر «رأس المال».

كان عليه أولا أن ينشر مخطوطة المجلد الثانى، هذه المخطوطة التى قال ماركس عنها لابنته ايليانور قبل موته بقليل انه يجب على أنجلس «ان يصنع منها شيئا». ثم كان المجلد الثالث الذى كان ينتظر دوره ومسودة المجلد الرابع («نظريات القيمة الزائدة») فضلا عن بعض تآليف ماركس الاخرى الاقل أهمية.

شرع أنجلس بهذا العمل وهو فى سن الثالثة والستين فكان يخاف دائما من انه لن يستطيع انجازه. كان يتعين حل خط ماركس غير الواضح وترتيب المخطوطات ودمجها فى كل واحد. وما من احد كان قادرا على ذلك غير انجلس.



فريدريك انجلس
(عام ١٨٩٣)

وحينما الزمه المرض الفراش بعد وفاة ماركس بقليل وحال دونه ودون العمل على «رأس المال» ستة أشهر تقريبا، كتب فى رسالة الى لافروف يقول: «ان هذا يقلقنى بشكل خاص لأننى **الوحيد، ممن بقوا قيد الحياة،** الذى يستطيع حل هذا الخط وهذه الاختصارات لبعض الكلمات وحتى جمل بكاملها». وما ان أبل من مرضه حتى طفق يعيد نسخ مخطوطات ماركس ليالى كاملة محاولا ان يستدرك الوقت الضائع. وكانت النتيجة ان المرض عاوده وأرغمه الاطباء على ملازمة الفراش مرة أخرى. فقرر حينذاك «وسيلة بطولية» كما يقول: فاستدعى سكرتيرا وطفق يملي عليه مخطوطة «رأس المال» وهو مضطجع على الديوانة، وذلك من الساعة العاشرة صباحا حتى الخامسة مساء.

غير انه ما كانت اعادة نسخ المخطوطة اكبر قسط العمل واشقه، فقد كان عليه ان يؤدى عملا ابداعيا جسيما لم يكن احد سواه قادرا على ادائه، اذ كانت فى المخطوطة، الى جانب الاقسام المكملة، مقاطع مكتوبة بخطوط عامة، تمهيدية، كما كان ثمة عدد من المقاطع مكتوبة بعدة اشكال ومرد ذلك الى اعادة تأليفها. كان لا بد لانجلس من ان يدرس المخطوطة دراسة دقيقة وان يكملها ببعض الاضافات. وقد اشار انجلس فى المقدمة التى كتبها للمجلد الثانى لـ«رأس المال» الى انه سعى دائما وراء حل هذه المعاضل «تبعا لمفاهيم المؤلف بوجه الحصر».

وفى شهر شباط - فبراير - عام **١٨٨٥** أنجز أنجلس عمله فى مخطوطة المجلد الثانى من «رأس المال» وارسلها الى المطبعة.

وعلى الفور، شرع يملى المجلد الثالث. كتب انجلس يقول ان هذا المجلد «سوف يقوم بانقلاب حاسم فى العلم الاقتصادى بكامله». لقد كان يرى ان مؤلف ماركس هذا «رائع، عظيم. وانه يحطم العلم الاقتصادى القديم بشكل لا سابق له. ومنذ الآن فقط تكسب نظريتنا اساسا راسخا كما نحرز نحن امكانية النضال الظافر ضد اى عدو كان».

كان التحرير النهائى لهذا الجزء قد تطلب من انجلس مجهودا كبيرا. فقد كان عليه ان يقوم بتنسيق مواضيع المجلد وان يكتب بعض الاضافات الضرورية (التى كان يشير اليها كل مرة باهتمام). وقد قام انجلس بعمله هذا فى مخطوطات ماركس النفيسة باشد الدقة والامعان والحب. وكتب يقول ان هذه المخطوطات بالنسبة له «مصدر المتعة العلمية السامية». كتب لبيكر يقول: «لا بد للمرء من ان يكد كدا شديدا حينما يعمل على مخطوطات رجل مثل ماركس الذى تقدر كل كلمته بثمن الذهب. ولكن هذا العمل ممتع لى اذ اننى من جديد مع صديقى الحميم».

كتب لينين متحدثا عن العمل الذى قام به انجلس لاصدار المجلدين الثانى والثالث من «رأس المال» فقال: «ان هذين المجلدين هما عمل الاثنين: ماركس وأنجلس».

لقد تطلب اعداد المجلد الثالث للطباعة حوالى عشر سنوات، وليس مرد هذا الى تعقد المواد المعالجة وكثرتها وضعف بصر أنجلس المتزايد فحسب بل الى جملة من الاسباب الاخرى أيضا. فعلاوة على المشاغل المتعلقة بنشر المجلدين الثانى والثالث من «رأس المال»، كان على عاتقه عددا عديدا من المهام الاخرى.

وعلاوة على مراجعة الترجمة الانكليزية للمجلد الاول

من « رأس المال » التى انجزها انجلس فى عام ١٨٨٦، كان عليه ان يحضر طبعات جديدة للمجلدين الاول والثانى وغيرها من طبعات وترجمات مؤلفات ماركس (مثل « بؤس الفلسفة » و« ١٨ برومير للويس بونابارت »، و« الحرب الاهلية فى فرنسا » و« النضال الطبقى فى فرنسا ») ناهيك عن اصدار مؤلفاته هو وكتابة المقدمات لها.

وخلال اثنتى عشرة سنة عاشها أنجلس بعد وفاة ماركس، كتب عددا كبيرا من المقالات وكتابين مهمين جدا من الناحية النظرية. أحدهما: « أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » (١٨٨٤) وكان انجلس يعتبره « الى حد ما تنفيذا لوصية ماركس ». والقضية ان ماركس كان يفكر فى تأليف مثل هذا الكتاب، وانه قد جمع مواد ضرورية له، ولكنه لم يتمكن من كتابته. وان هذه المواد، وهى عبارة عن مقتطفات من كتاب « المجتمع العتيق » لمورغان ملحقة بملاحظات نقدية من ماركس، قد استفاد منها انجلس فى كتابه « اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ».

كان لينين يعتبر « أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » « أحد المؤلفات الاساسية للاشتراكية الحديثة ». كان الكتاب يرمز الى خطوة جديدة هائلة الى الامام فى معالجة القضايا الخاصة بالتفهم المادى للتاريخ. وقد القى أنجلس فيه النور على الماضى البعيد للمجتمع البشرى وأرسى الدعائم لدراسة التاريخ البدائى وأصل العائلة وأطوار تطورها وأشكاله دراسة ماركسية. اما الموضوع الرئيسى لهذا الكتاب وعموده فهو التحليل التاريخى لظروف انبثاق الدولة وتطورها واضمحلالها فى المستقبل.

وعلى اساس تحليل العصور الغابرة من التاريخ البشرى منذ المجتمع البدائى (هذا التحليل الذى سجلت كل جملة من جمله بالاعتماد على دراسة كمية هائلة من المواد التاريخية والسياسية)، بين انجلس عملية انبثاق الطبقات واصل الدولة ودورها فى الصراع الطبقى وخصائصها واشكالها فى مختلف اطوار التطور التاريخى.

وقد فضح انجلس فى هذا الكتاب كذب النظريات البرجوازية الزاعمة أن الدولة «فوق الطبقات» وبرهن على اساس الوقائع التاريخية على ان الدولة فى المجتمع الطبقى المتناحر ليست سوى اداة فى يد الطبقة المسيطرة لقمع الطبقة المظلومة واستغلالها. مثلا، كانت الدولة القديمة دولة ملاكى العبيد لقمع العبيد، وكانت الدولة الاقطاعية أداة النبلاء لقمع الفلاحين الاقنان، اما الدولة البرجوازية فانها أداة لاستغلال العمل المأجور من قبل رأس المال. وان هذا الحكم الاخير يعود الى الجمهورية البرجوازية اوفر ديموقراطية: «فى ظل هذه الجمهورية تتمتع الثروة بسلطتها بشكل غير مباشر، ولكن بصورة انجح مع ذلك: عن طريق ارشاء الموظفين ارشاء مباشرا (النموذج الكلاسيكى: الولايات المتحدة الاميركية) من جهة، وبشكل التحالف بين الحكومة والبورصة من جهة اخرى، هذا التحالف الذى يتم بشكل ايسر بقدر ما تتعاظم ديون الدولة وتكدس الشركات المساهمة بين ايديها لا وسائط النقل وحسب، بل حتى الانتاج بالذات وتجعل من البورصة مركزا اساسيا لها»*.

* انجلس، «اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة».

بيد انه ما دام التاريخ قد عرف فترات لا طبقات فيها وبالتالى لا دولة فيها، فهذا يعنى انه ستأتى، لا محالة، مرحلة جديدة اسمى للتطور التاريخى تزول فيها الدولة من الوجود. ان ديكتاتورية البروليتاريا ستقضى على كل استغلال للانسان من قبل الانسان وستقضى على الطبقات. كتب انجلس يقول:

« ان الدولة ستزول حتما مع زوال الطبقات. ان المجتمع الذى سوف ينظم الانتاج بشكل جديد على اساس المشاركة الحرة المتساوية بين المنتجين سوف ينقل جهاز الدولة كله الى حيث يصير آنذاك مكانه الحقيقى: الى متحف العتائق، بجانب المغزل اليدوى والفأس البرونزية » *.

ولقد عالج انجلس فكرة مماثلة حول اضمحلال الدولة فى كتابه « ضد دوهرينغ ». ان حكم انجلس هذا، وهو صحيح شرط انتصار الاشتراكية فى آن واحد تقريبا فى جميع البلدان او فى اغلبيتها، انما يتطلب التدقيق والتوضيح شرط انتصار الاشتراكية فى بلد واحد أو فى عدد من البلدان. ففى هذه الحالة لا بد لبلدان الاشتراكية ان تكون لها دول قوية للدفاع عن مكتسبات الاشتراكية ضد الاعتداءات من الخارج. فما دام خطر الاعتداء المسلح من البلدان الرأسمالية قائما فان الدولة البروليتارية ستستمر حتى فى ظل الشيوعية الا ان اشكالها وصلاحياتها ستتغير وفقا لتغيرات الوضع الداخلى والخارجى.

وعلاوة على كتاب « أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة »، ألف انجلس فى ذلك الحين كتابه الآخر « لودفيغ

* انجلس، « اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ».

فورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية » (١٨٨٨). وفى هذا الكتاب المركب من سلسلة من المقالات النقدية التى نشرتها فى عام ١٨٨٦ جريدة «الزمن الحديث» («نوي زايت») عن كتاب شتاركه حول فورباخ، حدد انجلس موقف الماركسية حيال سالفاتها فى ميدان الفلسفة. واعطى انجلس ايضا لمحة عن فلسفة هيغل ومذهب فورباخ مشيرا الى التأثير الذى احدثاه فى ماركس وانجلس عند ابداعهما مذهبهما الجديد. وفى الوقت نفسه، كشف انجلس العيوب الجذرية فى فلسفة هيغل المثالية وطابع مادية فورباخ المحدود. وفى مؤلفه هذا، كما فى سائر مؤلفاته، دافع انجلس عن حزبية الفلسفة وعالج جميع المسائل من زاوية الصراع بين المعسكرين الفلسفيين: المعسكر المثالى والمعسكر المادى.

وهناك ايضا الرسائل التى وجهها انجلس فى اوائل العقد العاشر الى ارنست وبلوخ ومهرينغ وشتاركنبورغ ولها اهمية نظرية بالغة. ففى هذه الرسائل قام انجلس ضد مبتذلى المادية التاريخية الذين كانوا يزعمون بأن العامل الاقتصادى هو العامل الفعال الوحيد فى المجرى التاريخى بينما البناء الفوقى السياسى والايديولوجى ليس سوى نتيجة منفعلة ولا تأثير له فى التاريخ. ان مثل هذا الابتذال للماركسية كان يؤول الى تفهم التاريخ تفهما جبريا باعتباره عملية آلية تجرى بدون تدخل الانسان وخارج ارادة الانسان. وقد بين انجلس انه لا وجود لفعل العوامل الاقتصادية الآلى وان الناس انفسهم يصنعون تاريخهم وان الشروط الاقتصادية فى المجرى التاريخى ليست بعامل محدد الا فى آخر المطاف.

كتب فى ٢١-٢٢ من شهر ايلول - سبتمبر - ١٨٩٠ لجوزيف بلوخ يقول:

«...ان العامل المحدد فى المجرى التاريخى، بحسب المفهوم المادى للتاريخ، هو **فى آخر الامر** انتاج وتجديد انتاج الحياة الواقعية. ولم يؤكد ماركس ولا أنا قط اكثر من هذا. فاذا كان ثمة أحد يشوه هذا الحكم اذ يزعم بان العامل الاقتصادى هو العامل **الوحيد** المحدد فانه يحول هذا الزعم الى جملة فارغة مجردة لا معنى لها. ان الوضع الاقتصادى هو الاساس، ولكن سائر اجزاء البناء الفوقى وهى: الاشكال السياسية للصراع الطبقى ونتائجه ونعنى بها الدساتير التى وضعتها الطبقة الظافرة بعد احراز النصر، الخ.، والاشكال القانونية، وحتى انعكاسات كل هذه المعارك الواقعية فى ادمغة المشتركين فيها، والنظريات السياسية والقانونية والفلسفية، والمفاهيم الدينية وتطورها لاحقا الى منظومات من العقائد، ان كل هذا يحدث تأثيره فى مجرى النضال التاريخى، حتى انه كثيرا ما يحدد **أشكال** هذا الصراع على وجه التفضيل».

وفى الرسالة التى بعث بها انجلس الى كونراد شميدت فى السابع والعشرين من شهر تشرين الاول - اكتوبر - ١٨٩٠ والتى طور فيها هذه الفكرة القائلة بان البناء الفوقى، وفى جملته سلطة الدولة، يؤثر تأثيرا معاكسا فى اقتصاد المجتمع، كتب يقول: «فلماذا اذن نناضل فى سبيل ديكتاتورية البروليتاريا السياسية اذا كانت السلطة السياسية عاجزة اقتصاديا؟»

كان انجلس يعبر عن استيائه لبعض «الماركسيين» المبتدئين ممن كانوا يعتقدون كل الاعتقاد بانهم قد

استوعبوا النظرية الجديدة على خير وجه وانه باستطاعهم تطبيقها فى الحال ما ان يتعلموا بعض احكامها الاساسية كيفما اتفق.

ولقد واصل لينين هذا النضال الذى بدأه انجلس ضد مبتذلى الماركسية. ففى النضال ضد «الاقتصاديين» والمناشفة الذين سقطوا فى حمأة المادية المبتذلة وجعلوا عدما دور النظرية المتقدمة ودور الحزب البروليتارى، انتقد لينين انتقادا ماحقا النظرية الانتهازية عن العفوية والذنبية والتلقائية ورفع عاليا اهمية النظرية الثورية والوعى ودور الحزب بوصفه قوة قيادية ثورية للحركة العمالية.

لم يستطع انجلس أن يكمل كتابه حول تاريخ ايرلندا ولا «ديالكتيك الطبيعة»، كما انه لم يقدر له ان يتم بعض المؤلفات الاخرى التى رسم لنفسه تأليفها.

مثلا، عزم انجلس على أن يكتب باللغة الالمانية كراسا حول دور العنف فى التاريخ. وكان ينوى، علاوة على الفصول الثلاثة من كتاب «ضد دوهرينغ»، ان يدرج فى الكراس فصلا اضافيا، رابعا، يلقى النور على دور العنف فى تاريخ المانيا ابتداء من عام ١٨٤٨. الا أن هذا العمل الذى بدأه انجلس فى عام ١٨٨٨، بقى غير منجز.

وكان من نيته كذلك تأليف تاريخ عن حياة ماركس بشكل مفصل، وتاريخ الاممية الاولى والحركة الاشتراكية الالمانية من عام ١٨٤٣ حتى عام ١٨٦٣. ولكنه لم يستطع ان ينشر سوى لمحة قصيرة عن حياة ماركس وعدة مقالات ومقدمات («ملاحظات حول تاريخ عصبة الشيوعيين»، و«ماركس و«الجريدة الرينانية الجديدة»»، والخ.) اوضح

فيها المرحلة الاولى من الكفاح الذى قام به مع ماركس فى سبيل انشاء حزب بروليتارى.

وهكذا، وان كان انجلس يعير الجبهة النظرية من الصراع الطبقى اهمية عظيمة، وان كان لا يرى فى ذلك الوقت من بوسعه ان يحل محل ماركس ومحله هو فى ميدان النظرية، الا انه لم يتمكن من انجاز عدد من المؤلفات النظرية التى رسمها للكتابة ولا اعداد مخطوطة المجلد الرابع من « رأس المال » (« نظريات القيمة الزائدة ») للطباعة.

وهذا مفهوم اذا أخذنا بعين الاعتبار ذلك النشاط الهائل الذى كان انجلس يقوم به آنذاك فى ميدان قيادة الحركة البروليتارية العالمية.

ففى مقدمة المجلد الثالث من كتاب « رأس المال » شرح انجلس بطء عمله فى اعداده واشار الى ان نهوض الحركة العمالية العالمية، يتطلب مساعدته اكثر فاكثر الامر الذى يصرفه عن اعماله النظرية. « الا أننى بعد ما اشتركت فى هذه الحركة اشتراكا نشيطا أكثر من خمسين عاما، أعتبر من واجبى أن أؤدى فورا الاعمال التى تنجم عن هذه الحركة ».

كان انجلس يدرك كل الادراك المسؤولية العظيمة التى تقع على عاتقه آنذاك اذ كان يجب عليه أن يقوم مقام ماركس فى ميدان النظرية وفى ميدان القيادة السياسية العملية.

كتب فى احدى رسائله لبيكر يقول: « لقد قمت فى حياتى كلها بالدور المعين لى: لقد كنت دائما العازف الثانى على الكمان بعد ماركس وارجو ان اعتقد بان ادائى كان لا بأس به. كنت مسرورا من روعة العازف الاول وهو

ماركس. واليوم، عندما أرى نفسى مضطرا فجأة الى ان احل محل ماركس فى مضمار النظرية والى أن اقوم بدور العازف الاول، صارت الهفوات محتمة لا مفر منها، وما من أحد يشعر بذلك أكثر منى. الا اننا لا نقدر ان نبصر حقا مدى فداحة الخسارة التى منينا بها مع موت ماركس، الا عندما تشحن الاجواء بعواصف اشد. ليس احد منا قادرا على سعة نظر ماركس التى ساعدته دائما، حينما اقتضى الامر عملا حازما، على ايجاد الطريق الصحيح وتوجيه الضربة فورا الى النقطة اللازمة. صحيح انه كان يحدث احيانا، فى فترات الهدوء، ان أكدت الاحداث صحة رأيى، لا رأيه، غير ان احكامه فى الاوضاع الثورية كانت دائما تقريبا غير خاطئة».

ولكى يستطيع المرء أن يدرك كل تعقد وعظمة مهمة القيادة للحركة الاشتراكية العالمية فى ذلك الحين، يجب عليه أن يأخذ بالحسبان **اتساع** هذه الحركة العظيم وتنوع ظروف النضال وطابعه فى مختلف البلدان. كان انجلس، اذ يقود الاحزاب الاشتراكية، يأخذ بعين الاعتبار، الى جانب السمات العامة، الخصائص والميزات الاصيلة التى يتسم بها تطور الحركة العمالية فى مختلف البلدان. كان يدرس كل بلد بامعان ومن شامل الوجوه ويتتبع مضمون الصحف الاشتراكية المتزايدة من يوم الى آخر، ويكتب المقالات التوجيهية لها ويتراسل مع عدد كبير من الاشتراكيين فى مختلف البلدان ويستقبل فى لندن المناضلين القادمين من اطراف المعمورة.

كتب لينين يقول: «بعد وفاة ماركس، اصبح انجلس، وحده، المستشار والمرشد للاشتراكيين الاوروبيين. واليه كان يأتى، لطلب النصائح والارشادات، الاشتراكيون

الالمان الذين لم تنفك قوتهم تنمو نموا سريعا رغم الاضطهادات الحكومية، وكذلك ممثلو البلدان المتأخرة: الاسبانيون والرومانيون والروس، الذين كان عليهم أن يتبصروا ويزنوا خطاهم الاولى. لقد كانوا جميعا ينهلون من الينبوع الدفاق، ينبوع معارف الشيخ انجلس وتجربته »*.

كان انجلس يقدم نصائحه وارشاداته ويناضل فى الوقت ذاته لتنفيذها عمليا منتبها لعمل كل حزب ومتدخلا بحزم حالما يلاحظ زيفا وانحرافا لاصلاح خطته. وكان يناضل بلا كلل سواء أضد التيارات الاصلاحية أم ضد الثورية البرجوازية الصغيرة المتطرفة.

أما الحركة الاشتراكية الانجليزية والامريكية فقد كان انجلس ينتقد بشكل خاص انعزالها عن الجماهير العمالية وروحها البدعية والعقائدية الجامدة وعدم قابليتها لمطابقة المذهب الماركسى مع الظروف الانجليزية والامريكية الملموسة.

كان يأخذ بعين الاعتبار خصائص هذين البلدين حيث كانت البروليتاريا، بسبب عدد من العوامل الاقتصادية والسياسية، عاجزة فى ذلك الحين عن أى عمل سياسى مستقل فكانت تنجر وراء عجلة البرجوازية التى كانت تتميز بمهارة كبيرة فى فن خداع العمال وافسادهم وارشائهم.

فان مهمة الاشتراكيين الرئيسية فى هذين البلدين كانت تتقوم فى حفز نشاط الحركة العمالية السياسى وفى انتشالها من سباتها، وتنظيم جماهير العمال على اساس نظرى وان

* لينين، «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٧٣.

كان قليل النضوج، قصد شق حاجز التأثير البرجوازى فى البروليتاريا.

لهذا السبب كان انجلس ينتقد انتقادا قاسيا الاشتراكيين الالمان فى امريكا الذين حولوا نظرية الشيوعية العلمية الى عقيدة جامدة وكانوا يحاولون فرضها على العمال الامريكيين المتأخرين من الناحية السياسية واللامبالين تجاه اى نظرية. وكتب انجلس يقول:

«ان الالمان لم يعرفوا كيف يجعلون من نظريتهم مقبضا قادرا على تحريك جماهير العمال الامريكان. ففى غالب الاحيان لا يفهمون هم انفسهم هذه النظرية ويطبقونها بشكل مذهبى عقائدى جامد مقدرين أنه يكفى أن يعرفها المرء عن ظهر قلب ليكون مسلحا لجميع حالات الحياة. فان النظرية، بالنسبة لهم، عقيدة جامدة وليست دليلا للعمل».

زد على ذلك ان الاشتراكيين الالمان فى الولايات المتحدة الاميركية ما كانوا يدركون ظروف الحركة العمالية الامريكية ولا طابعها، ولذا لم تتكلل دعايتهم بنجاح، طبعا. كانت الحركة العمالية الاميركية تسلك طريقها الخاص. كان انجلس يأخذ بالحسبان اصالة هذه الحركة ومستوى تطورهـا فنصح اشتراكيى اميركا ببذل جهد طاقتهم لمساعدة العمال فى محاولاتهم الاولى التى لم تكن قد نضجت بعد نضوجا كبيرا، فى انشاء منظمات لهم. وبهذه المناسبة، كان انجلس يشير الى الاهمية الكبرى «لجمعية فرسان العمل» على الرغم من مبادئها المتربكة (الامتناع عن السياسة، الاعتماد على التعاونيات كوسيلة «للاستعاضة عن نظام العمل المأجور بنظام صناعى تعاونى»، والخ..) التى كانت حينذاك تطابق مستوى العمال الاميركان.

كان انجلس يعتبر ان الاشتراكيين الامريكيين، بدلا من ان يقفوا موقف التشامخ والاهمال من مثل هذه المنظمات، يجب عليهم أن يعيروا اهتماما خاصا لهذه الحركة الجماهيرية للعمال وان يساعدوهم على أن يدركوا مهامهم نظريا وان يستشفوا عواقب اخطائهم، وجر العمال، بالتالى، على اساس دروس عملية ملموسة، الى النظرية الماركسية.

كان انجلس يرى رسالة الاشتراكيين الامريكيين فى «اشتراكهم»، مع التمسك بالخطة التى طبقها هو وماركس من عام ١٨٤٥ حتى ١٨٤٨، «فى كل حركة عامة حقا للطبقة العاملة قابلين نقطة انطلاقها كما هى عليه ورفع الحركة الى مستوى النظرية شيئا فشيئا مع تبيان ان كل خطأ وكل فشل انما هما نتيجة محتمة لآراء نظرية غير صحيحة فى البرنامج الاولى. كان على الاشتراكيين الاميركيين، على حد تعبير «البيان الشيوعى»، اذ يناضلون فى سبيل الاهداف المباشرة للحركة، أن يدافعوا فى الوقت ذاته عن مستقبل الحركة».

هكذا كان السبيل الواقعى الوحيد لانشاء حزب عمالى جماهيرى متقدم فى اميركا، السبيل الذى كان يستجيب لظروف الولايات المتحدة الاميركية والذى كان انجلس يناضل من اجله، وهكذا كانت الخطة التى كان يعلمها الاشتراكيين الاميركيين بصبر ودأب.

كان الوضع فى الحركة الاشتراكية الانكليزية شبيها نوعا. لقد طرأ على انكلترا فى العقد التاسع انتعاش الحركة العمالية الذى تنبأ به انجلس من زمان. وكان الاساس الاقتصادى والاجتماعى لهذه النهضة هو فقدان انكلترا

التدريجى احتكارها الصناعى وانحطاطها الاقتصادى الذى زاد من سوء وضع جماهير واسعة من العمال القليلى الاجرة. وعلى الرغم من نهوض الحركة الجماهيرية فى النصف الاول من العقد التاسع، لم تكن المنظمات الاشتراكية سوى عبارة عن شيع متناحرة تناحرا ضاريا تكاد لا تؤثر ادنى تأثير فى العمال. كان قادة هذه المنظمات، حسب تعبير انجلس، ضباطا لا جنود لهم. كانت تشبه فعلا طابور روبرت بلوم الشهير أثناء زحف الباد عام ١٨٤٩ اذ كان يتألف من زعيم واحد وأحد عشر ضابطا ونافخ بوق واحد وجندى واحد...

وفى انكلترا ايضا كان انجلس يسعى وراء تكوين ملاكات ماركسية معدة اعدادا نظريا جيدا ومرتبطة بالحركة العمالية الجماهيرية وقادرة على ارساء قواعد حزب بروليتارى حقيقى. كان يخوض نضالا دائبا ضد الاتحاد الاشتراكى الديموقراطى الانتهازى الذى كان يدّعى الاحتكار فى الحركة الاشتراكية الانكليزية وضد رئيسها هايندمان الذى كان يعتبره وصوليا عديم المبادئ، وقد أثبت المستقبل صحة هذه التهمة كل الاثبات.

ان انشقاق الاتحاد الاشتراكى الديموقراطى قد أعد باشتراك هاد من انجلس. ففى بيته كانت تجرى اجتماعات اعضاء هذا الاتحاد اليساريين، المعارضين. الا أنه رفض ايضا التضامن مع الرابطة الاشتراكية التى تولدت عن هذا الانشقاق، قبل أن يراها تثبت صحة خطتها فى حقل النشاط العملى. ولم تلبث الرابطة ان انحدرت الى الفوضوية فتركها انصار انجلس.

كان انجلس يهاجم بنفس الحزم «الجمعية الفابيانية» المتشكلة فى عام ١٨٨٤ والمؤلفة فى اغلبيتها من الكتاب

والعلماء والمثقفين على شاكلة سيدنى ويب. كان هؤلاء يقولون عن انفسهم بانهم اشتراكيون مع أن منظمتهم ما كانت فى الواقع سوى فرع للحزب الليبيرالى. كتب انجلس يقول: « ليست هذه سوى زمرة من شتى الوان « الاشتراكيين » البرجوازيين ابتداء من الوصوليين حتى الاشتراكيين العاطفيين ومحبى البشر الذين لا يجمعهم سوى الخوف من سيطرة العمال العتيدة وهم مستعدون لاى شىء فى سبيل درء هذا الخطر ولتأمين تسيير دفة الامور **لانفسهم**، اى « للمتعلمين » ».

لقد تميز النصف الثانى من العقد التاسع فى انكلترا بنهوض عاصف للحركة العمالية الجماهيرية – اى حركة العاطلين، وبتنظيم اولى التريديونيونات للعمال من ذوى المستوى المهنى الخفيض وبالاضرابات التى كان أهمها الاضراب العام الذى شنه عمال مرافىء لندن فى عام ١٨٨٩. لقد رحب انجلس بهذا الاضراب بسرور خاص اذ رأى فيه اول بادرة للانعطاف الذى أخذ يجرى فى الحركة العمالية الانكليزية. ومن دواعى حماسته رؤيته أن نسمة طرية ثورية أخذت تهب على الحركة العمالية الانكليزية التى طالما سادت فيها روح المحافظة والجمود من التريديونيونية القديمة، وان حركة جديدة فتية نشيطة شرعت تظهر فى جمهور العمال غير المعلمين، غير المختصين مثل عمال الغاز وعمال المرافىء والخ.، حركة يجب ان تكون قدوة لغيرهم من فصائل البروليتاريا.

لقد اشترك انجلس نفسه انشط الاشتراك فى هذه الحركة. وقد جمع حوله لفيفا من الاشتراكيين المجربين مثل ابنة ماركس ايليانور وزوجها آفيلينغ مع البروليتاريين

الذين كانوا يتبعونهما امثال توماس مان وجون بورنس وغيرهما. كانت أسرة آفيلينغ، حسب تعليمات انجلس، تقوم بنشاط عظيم فى الاحياء العمالية بلندن، فى ايست اند، داعية الجماهير العمالية ذات الميول الراديكالية، الى النضال فى سبيل يوم عمل مدته ثمانى ساعات وفى سبيل انشاء منظمة سياسية بروليتارية مستقلة. وبتوجيه من انجلس، كان الزوجان آفيلينغ وبورنس ومان يضطلعون بدور بارز فى تنظيم الاضرابات فى اواخر العقد التاسع وفى انشاء التريديونيونات للعمال غير المختصين.

وكصدى لحركة العقد التاسع الجماهيرية، بدرت محاولات فى بداية العقد التالى لانشاء حزب بروليتارى سياسى مستقل. وقد ايد انجلس انشاء حزب العمال المستقل، عام ١٨٩٣، الذى انضم اليه فى البداية الزوجان آفيلينغ ومان وغيرهما من انصار انجلس. وكان انجلس يعتقد انه من الممكن ان يتحول هذا الحزب الى حزب عمالى جماهيرى حقا شرط أن يسلك خطة صحيحة. ولكن سرعان ما تغلبت فى هذه المنظمة العناصر الانتهازية امثال رمسى مكدونالد وكير هاردى فانسحب انصار انجلس من صفوفها.

كان انجلس يرفض جميع الاقتراحات الرامية الى تأسيس منظمة بروليتارية عالمية جديدة اذ كان يرى أنه لم يحن الوقت لهذا ما دامت لم تتشكل بعد احزاب اشتراكية جماهيرية فى عدد من البلدان الرئيسية وما دام الوضع السياسى فى اوروبا واميركا لم يتفاقم الى حد يطرح بكل الحاح مسألة تنظيم اممية جديدة على جدول الاعمال.

كان انجلس يتصور لنفسه الامية الجديدة «منظمة شيوعية صرف» «سوف تتقيد بمبادئنا دون تحفظ»،

« منظمة لا للدعاية فحسب، بل للاعمال النشيطة ايضا ». غير انه كان يعتقد ان الوقت لم يحن لتأسيس مثل هذه « الاممية الحقيقية ». ولكنه، حينما احتدم الصراع فى اواخر العقد التاسع بين الماركسيين والجناح الانتهازى من الحركة العمالية وذلك حول مسألة عقد مؤتمر عمالى عالمى فى باريس عام ١٨٨٩، وحينما اخذت العناصر الانتهازية برئاسة الامكانيين الفرنسيين والاتحاد الاشتراكى الديموقراطى لهايندمان تستعد استعدادا نشيطا لانشاء منظمة عالمية، اندفع انجلس الى المعركة بحماسة الفتى لاحباط هذه المحاولات الرامية الى تأسيس اممية انتهازية.

ترك انجلس سائر اعماله لاكثر من ثلاثة اشهر واتخذ جملة من التدابير الحازمة لتخريب هذه الخطة ولتأمين نجاح مؤتمر الاشتراكيين العالمى الذى اقترح انعقاده فى باريس حزب العمال الفرنسى على نقيض الامكانيين. وقد انتقد انجلس فى رسائله قائدى حزب العمال الفرنسى غيد ولافارغ للبطء فى اعداد المؤتمر. وقد انّب كذلك ليبكنخت الذى كان، كعادته، يرغب فى مصالحة الطرفين المتعاديين والذى كان يحلم باندماج المؤتمرين بدلا من ان يعارض، باسم الحزب الالمانى ذى النفوذ، مؤتمر الامكانيين وان يستنفر، بالتالى، اشتراكيى سائر البلدان ضد هذا المؤتمر. والى جانب هذا النشاط، نظم انجلس بمساعدة اصدقائه ورفاقه فى السلاح، حملة نشيطة فى انكلترا ضد الاتحاد الاشتراكى الديموقراطى.

كان انجلس يرى فى النضال الذى احتدم حول مسألة انعقاد المؤتمر العالمى استمرارا للمعارك القديمة فى داخل الاممية الاولى واستمرارا للنزاع فى مؤتمر لاهاى. كتب

انجلس لزورغه يقول: «ان الخصم ما يزال نفسه مع فارق وحيد وهو أن راية الامكانيين حلت محل راية الفوضويين؛ وكما السابق، تباع المبادئ للبرجوازية مقابل بعض التنازلات ولا سيما مقابل المناصب للزعماء (اعضاء المجلس البلدى وبورصة العمل، والخ.) والخطة ما تزال نفسها».

ان نضال انجلس ضد الانتهازيين كانت المقدمة الضرورية التى أمنت النجاح لمؤتمر باريس الذى تأسست فيه الاممية الثانية. وقد باءت بالفشل الذريع محاولات الامكانيين واتباع هايندمان للاخذ بزمام الموقف لدن انشاء منظمة عالمية جديدة للبروليتاريا.

وقد أبدى انجلس ايضا مقاومة شديدة حازمة فى وجه زعماء التريديونيونات الانكليزية الانتهازيين الذين كان ماركس قد فضحهم فى مؤتمر لاهاى بوصفهم اناسا رشتهم الحكومة والبرجوازية فى بلادهم، والذين حاولوا أن يسيطروا على قيادة الحركة العمالية العالمية. وقد كان انجلس يحث المناضلين الاشتراكيين على مقاومة هذه المطامع ودعاهم الى أن يظهروا «أن البروليتاريا الواعية طبقيا فى اوروبا لا تنوى اطلاقا قبول قيادة اناس يرون نظام العمل المأجور نظاما خالدا لا يحول ولا يزول من الدنيا».

ان انجلس، الى جانب نضاله ضد الاصلاحيين والمصالحين، كان يكافح ايضا داخل الاممية الفوضويين و«اليساريين» اى العناصر الفوضوية امثال نيفنهايس. وحينما طرد مؤتمر بروكسل (عام ١٨٩١) الفوضويين من صفوف الاممية كان انجلس اول من رحب بهذا القرار.

لقد أتخذ مؤتمر باريس للاممية الثانية قرارا بالاحتفال كل عام باول أيار – مايو – كعيد عالمى للبروليتاريا. وقد رأى انجلس فى هذا العيد اول **عمل** اممى للبروليتاريا المكافحة. ففى مقدمته لطبعة المانية جديدة لـ « بيان الحزب الشيوعى » التى كتبها فى اول أيار – مايو – ١٨٩٠، عرض انجلس لمحة عن تاريخ هذا « البيان » منذ صدوره، وبين أن هذا التاريخ يعكس، بدرجة ما، تاريخ حركة العمال بعد عام ١٨٤٨. وتذكر انجلس انه، حينما اعلن مع ماركس منذ ٤٢ سنة هذا الشعار: « يا عمال العالم اتحدوا! »، كان عدد الذين ردوا على هذا النداء قليلا. غير ان حركة العمال قد تقدمت تقدما عظيما منذ ذلك الحين وكان أسطع برهان على هذا التقدم، فى نظر انجلس، الاحتفال باول ايار – مايو – عيدا عالميا لبروليتاريى الدنيا. « ان مرأى هذا اليوم سوف يبين للرأسماليين وكبار اصحاب الاراضى فى كل الاقطار أن عمال العالم متحدون الآن اتحادا حقيقيا فعليا. الا ليت ماركس الى جانبى ليرى بعينيه كل هذا! » *

وعلى الرغم من أن انجلس قد طعن فى السن، كان يحضر جميع مظاهرات اول أيار – مايو – التى كان يقوم بها عمال لندن. وكان دائما على منصة الخطباء. بيد أنه قد اقنع نفسه بأنه « لا يحسن الخطابة » فكان يفضل ألا يخطب فى هذه المناسبات.

وفى عام ١٨٩٣ حضر انجلس المؤتمر الثالث للاممية فى زوريخ، وألقى فى جلسته الختامية خطبة بالانجليزية

* ماركس وانجلس. « بيان الحزب الشيوعى ». الطبعة العربية، موسكو. ص ٤٣.

والفرنسية والالمانية. وكان متأثرا جدا من استقبال المندوبين الحار له فاعلن من على المنصة انه لا ينسب هذا الاستقبال اليه شخصيا، بل يقبله «بوصفه معاونا لهذا الرجل العظيم المعلقة صورته هناك» فاشار الى صورة كارل ماركس. قال انجلس: «لقد مر خمسون عاما منذ ان انضممنا، ماركس وانا، الى الحركة ونشرنا اولى المقالات الاشتراكية فى «الحوليات الفرنسية الالمانية». ولقد تقدمت الاشتراكية منذ ذلك الحين من فئات صغيرة حتى اصبحت حزبا جبارا يهتز كل العالم الرسمى خوفا منه. لقد مات ماركس، ولكنه لو بقى قيد الحياة الآن، لما كان احد فى اوروبا واميركا يمكنه ان يعتز بمثل هذا الاعتزاز المشروع اذ يرى نتائج العمل الذى كرس له حياته كلها».

لقد كان سفر انجلس الى زوريخ ظفرا حقا. وقد استفاد من هذا السفر فزار فيينا وبرلين. وخطب انجلس فى المدينتين فى اجتماعات حاشدة فاشار الى ان ما يلقاه من حفاوة وهتاف لا يعود الفضل فيه اليه شخصيا بل الى ماركس الذى كان، هو انجلس، مساعده وأخاه فى السلاح. قال فى فيينا: «اذا كنت قد فعلت شيئا لاجل الحركة خلال الخمسين عاما من اشتراكى فى هذه الحركة، فلست اطلب على ذلك جزاء ولا شكورا. ان خير ثواب لى هو انتم! (تصفيق). ان ثوابى هو العالم كله! لنا رفاق فى سجون سيبيريا وفى مناجم الذهب فى كاليفورنيا وفى كل مكان حتى فى استراليا... اننا قوة جبارة، قوة تخيف، وتقرر أكثر من غيرها. هذا هو الذى يبعث اعتزازى!»

وبعد ما تأسست الاممية الثانية اتسع نشاط انجلس السياسى والحزبى. كان يرعى الخطوات الاولى من المنظمة

الاممية الجديدة ويقاوم على الفور كل انحراف عن الخطة البروليتارية.

كان حزب العمال الفرنسي الذى يرأسه فى ذلك الحين جول غيد وبول لافارغ يقلقه اشد القلق.

كان انجلس فى رسائله الى بول لافارغ وزوجته لاورا لافارغ يشير الى الاخطاء التى ارتكبها لافارغ وغيره من الاشتراكيين فى البداية تجاه حركة بولانجية. كان انجلس يرى أن الاشتراكيين فى جميع البلدان يجب أن تكون مهمتهم الاساسية هى النضال ضد الخطر المتعاظم بحرب عالمية فكان يشرح بدأب للافارغ خطر الحركة البولانجية المفعمة بالروح الانتقامية والشوفينية الرجعية الى اقصى حد. وقد أشار فى رسالته الى بول لافارغ المؤرخة فى الثالث من تشرين الاول – اكتوبر – ۱۸۸۹ الى ان هذه الحركة تكاد تخمد انفاسها واردف يقول: «لقد كانت هذه هى النوبة الثالثة من الحمى البونابرتية: الاولى ببونابارت كبير حقا، والثانية ببونابارت مزيف، والثالثة برجل ليس حتى بونابارتا مزيفا بل هو مجرد بطل مزيف، جنرال مزيف، مزيف فى كل شيء، اذ كان جزؤه الرئيسى هو جواده الاسود. وقد كان الامر خطيرا حتى مع هذا الدجال المشعوذ وانكم تعرفون ذلك أحسن منى. فالنوبة الحادة والازمة قد انقشعت واننا لنأمل ألا يعود الشعب الفرنسى فيصاب بهذه الحميات القيصرية».

ان الانتصارات الانتخابية المهمة التى أحرزها حزب العمال الفرنسى فى مطلع العقد العاشر، أبرزت الميول الانتهازية لدى بعض من زعمائه الذين كانوا يحاولون تركيز نشاط الحزب الرئيسى على «صيد» الاصوات اثناء

الانتخابات. أما انصار غيد وغيرهم من الاشتراكيين الراغبين فى توسيع جناحهم البرلمانى الى أكبر ما يمكن، فقد انضموا الى الكتلة الجديدة من النواب الاشتراكيين الذين كانوا يتبعون ميلليران وجوريس. وبما ان انصار غيد ما كانوا يؤلفون فى هذه الكتلة سوى اقلية ضئيلة، فقد انتقلت القيادة فعلا الى ميلليران واتباعه. كان انجلس يجد هذا «الزواج الملفق» خطرا الى اقصى حد وكان ابدا ودائما يحذر المناضلين الفرنسيين من «خضوع الاشتراكيين لاتباع ميلليران الذين كان برنامجهم **العملى**، بلا مراء، راديكاليا اكثر منه اشتراكيا» وكان يشير الى أن القطيعة مع هؤلاء السادة لا بد منها ويجب الاستعداد لها.

وقبل أن يموت انجلس بعام واحد انتقد انتقادا شديدا آراء الانتهازيين فى المسألة الزراعية. وقد قام بذلك بمناسبة موافقة مؤتمر حزب العمال الفرنسى المنعقد فى نانت عام ١٨٩٤ على البرنامج الزراعى وبسبب بعض تصريحات فولمار حول المسألة الزراعية فى المانيا، تلك التصريحات التى لم ينتقدها قادة الحزب الاشتراكى الديموقراطى الالمانى انتقادا وافيا.

لقد تعهد حزب العمال الفرنسى فى برنامجه الزراعى بمهمة حماية ملكية الفلاحين من الزوال وذلك فى ظل الرأسمالية بدلا من أن يشرح للفلاحين الحتمية التاريخية والفائدة اللذين ينطوى عليهما الانتقال، بقيادة البروليتاريا الظافرة، من الاستثمارات الزراعية الصغيرة الى الاستثمارات الكبيرة المشتركة. كان الاشتراكيون الفرنسيون قد ساروا شوطا بعيدا فى هذا السبيل المريب فكانوا لا يعدون «بانقاذ» ملكية الفلاحين الصغيرة فحسب بل ايضا بالحفاظ على

المزارع التى كان الفلاحون الاغنياء المستأجرون يستثمرون فيها عمالا زراعيين مأجورين، اى يستثمرون العمل المأجور.

لم يبق الاشتراكيون الفرنسيون وحيدين اذ نادوا بهذه النظريات الانتهازية فى برنامجهم الزراعى. فقد اقترح فولمار فى مؤتمر فرانكفورت (١٨٩٤) للاشتراكية الديموقراطية الالمانية فى تقرير قدمه حول البرنامج الزراعى، عددا من التدابير المدعوة الى «انقاذ» الفلاحين من الخراب الذى يتهددهم. ولكى تكون نظرياته مقنعة أكثر اشار الى برنامج نانت وأردف قائلا ان «فريدريك انجلس قد استحسن هذا البرنامج». كان انجلس قد فضح انتهازية فولمار قبلئذ وكذلك انصاره الاشتراكيين الديموقراطيين البافاريين، وطلب من بيبل القطيعة تنظيميا مع فولمار. فوجد انجلس الآن أن الوقت قد حان لفضح برنامج نانت وفولمار على السواء فضحا علنيا. فكتب رسالة مفتوحة الى ادارة تحرير جريدة «الى الامام» أكد فيها أنه لم يؤيد البرنامج المقرر فى نانت بل شجبه، وأن انصار الحفاظ الى الابد على الملكية الصغيرة للفلاحين «يطلبون شيئا مستحيلا من الناحية الاقتصادية ويتنكرون للمبادئ ويعتنقون وجهة نظر رجعية». وهذا لا يعنى انه يجب على الحزب أن يعجل، بتدخله بنفسه، مجرى زوال الفلاحين الصغار؛ فلذا لا يمكن، من حيث المبادئ، معارضة التدابير الرامية الى جعل هذا الزوال المحتم أقل ايلاما للفلاحين. ولكن برنامج نانت لم يكن يقصد هذه التدابير فقط. لقد أعرب انجلس فى رسالته المذكورة عن نيته بالتكلم عن هذه المشكلة بشكل اكثر تفصيلا على صفحات جريدة «الزمن الحديث». ولم يلبث ان نشر مقالا بعنوان

« مسألة الفلاحين فى فرنسا والمانيا » (١٨٩٤) انتقد فيه موقف فولمار وموقف الاشتراكيين الفرنسيين الذين سلكوا سلوكا خطرا اذ اخذوا يكيفون برنامج الحزب البروليتارى مع أوهام الفلاحين بشأن الملكية الصغيرة.

كان انجلس قد اشار فى السابق ايضا غير مرة الى أن تدفق البرجوازيين الصغار والفلاحين على الحزب دليل على النجاحات الكبيرة التى احرزتها الحركة الاشتراكية الديموقراطية؛ فان انتساب هؤلاء يبرهن على ان البروليتاريا اصبحت حقا وفعلا طبقة قائدة. ولكنه كان يذكر ان البروليتاريا لن تستطيع أن تؤدى دورها التاريخى القيادى اذا سمحت لنفسها بتنازلات انتهازية للاوهام والمطامح البرجوازية الصغيرة والفلاحية.

مثل هذه التنازلات الانتهازية الفائقة الخطر بالضبط كان انجلس يرى فى برنامج نانت الذى وعد بخلود ملكية الفلاحين بدلا من أن يشرح للفلاحين أن « الانتاج الرأسمالى الكبير سيسحق استثماراتهم الصغيرة الضعيفة البالية على غرار ما يفعله القطار بعربة يدوية واقفة على طريقه ».

وفى الوقت نفسه شرح انجلس اهمية مسألة الفلاحين البالغة بالنسبة الى الاحزاب الاشتراكية. فلأجل الظفر بالسلطة السياسية، حتى فى اكثر البلدان تطورا من حيث الصناعة، يجب على الاحزاب الاشتراكية ان تقصد القرى وان تصبح قوة فيها. واذ اشار انجلس على الاحزاب العمالية بضرورة العمل فى الريف، عارض فى الوقت نفسه السعى الخالى من المبادئ وراء اصوات الفلاحين اثناء الانتخابات، والمحاولات الرامية الى اجتذاب فئات من الفلاحين لن تقف الى جانب البروليتاريا بسبب من وضعها.

كان انجلس ما يفتأ يشير الى ضرورة اتخاذ موقف متنوع من فئات الفلاحين المتنوعة. وقد رسم خطة الاحزاب الاشتراكية قبل استلامها زمام السلطة وبعد استلامها له بالنسبة الى الفلاحين الصغار والمتوسطين والكبار وبالنسبة الى كبار الملاكين العقاريين.

فلدى بحثه فى مسألة موقف الحزب الاشتراكى من الفلاحين بعد الاستيلاء على السلطة من قبل الطبقة العاملة، لم يتنبأ بالاشكال الملموسة للانتقال من الاستثمارة الريفية الصغيرة الى الزراعة الاشتراكية الجماعية، اذ ان طابع هذه الاشكال رهن بالظروف الواقعية وقت استيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية. ولهذا اقتصر على ذكر أعم الخطوط وأهمها من سياسة الطبقة العاملة الظافرة حيال الفلاحين الصغار. كتب يقول: «...يبدو انه عندما نأخذ بمقاليد السلطة لن يخطر ببالنا تجريد الفلاحين الصغار من ملكياتهم بالقسر (سواء أكان بتعويض أو بدونه) كما سنضطر الى عمله مع كبار الملاكين العقاريين. ان مهمتنا تجاه الفلاح الصغير ستتقوم اولا فى تحويل استثمارته الخاصة وملكيته الخاصة الى تعاونية لا بالعنف بل بالقدوة الصالحة مع تقديم مساعدة المجتمع لهذا الغرض. وسيكون لدينا، حتما، وسائل كافية لنبين للفلاح الصغير المزايا التى يجب أن تكون واضحة له منذ الآن».

وبين انجلس، آخذا بعين الاعتبار تعلق الفلاح بقطعة ارضه، أن البروليتاريا وحزبها حالما يصلان الى السلطة لن يألوا جهدا فى ترقية حياة الفلاح الصغير و«تسهيل انتقاله الى التعاونية اذا عزم على ذلك، وتركه فترة من الزمن

يفكر فى قطعة ارضه الصغيرة اذا لم يكن مستعدا لاتخاذ مثل هذا القرار».

أما فيما يخص الملكية الكبيرة من الاراضى فان مهمة البروليتاريا القابضة على زمام السلطة تتقوم ـ حسب رأى انجلس ـ فى تجريد كبار الملاكين المستثمرين من املاكهم كما هو الشأن مع الرأسماليين الصناعيين. وأما مسألة معرفة ما اذا كان هذا التجريد ينبغى أن يجرى بتعويض أم بدونه فهى منوطة بالوضع وقت استلام حزب الطبقة العاملة لمقاليد السلطة ولا سيما بسلوك هؤلاء الملاكين. قال انجلس: «نحن لا نعتبر ابدا ان التعويض لا يمكن قبوله فى أى حال من الاحوال. قال لى ماركس (وكم مرة!) ان من الارخص لنا لو استطعنا ان نفتدى انفسنا من كل هذه العصابة».

ان مؤلف انجلس «مسألة الفلاحين فى فرنسا والمانيا» اكتسب اهمية نظرية كبرى.

ان انتقاد برنامج نانت الزراعى قد أنزل ضربة قاصمة على العناصر الانتهازية لا فى الحزب الفرنسى فحسب، بل فى سائر احزاب الاممية الثانية ولا سيما الحزب الاشتراكى الديموقراطى الالمانى الذى كان ما يزال يحتفظ بمركزه فى طليعة الحركة العمالية العالمية. وبفضل تناسق اشكال العمل المشروعة وغير المشروعة وبفضل محاربة التيارات الانتهازية بقيادة ماركس وانجلس، لم ينعزل الحزب عن الجماهير فى ظروف القانون الاستثنائى بل انه نجح فى توسيع صلاته بها وتعزيز تأثيره حتى صار من أقوى الاحزاب فى المانيا. ولقد تأكد للطبقات المسيطرة فشل محاولات بيسمارك لعزل الاشتراكيين الديموقراطيين عن

الجماهير بوساطة القانون الاستثنائى. ونتيجة ذلك، رفض الرايخستاغ فى الخامس والعشرين من شهر كانون الثانى – يناير – عام ١٨٩٠ تمديد القانون ضد الاشتراكيين فاخذت الطبقات المسيطرة تستعمل منذئذ «نهجا جديدا» أكثر مرونة، خطة اكثر «لباقة»، سياسة التغازل مع الحركة العمالية.

وقد عرض انجلس نتائج النضالات البطولية للعمال الالمان ولحزبهم وذلك فى رسالة وداعية وجهها الى قراء جريدة «الاشتراكى الديموقراطى» التى كفت عن الصدور بعد الغاء القانون الاستثنائى بوقت قليل. وقد ذكر انجلس معارك عام ١٨٤٨ و«الجريدة الرينانية الجديدة» وكتب عن مرحلة القانون الاستثنائى يقول: «ان هذه الفترة ايضا كانت الى حد ما فترة ثورية منذ اللحظة التى اعيد فيها الحزب فى مجلس ويدن وابتدأ كفاحه «بجميع الوسائل» المشروعة منها وغير المشروعة».

وقدر انجلس تقديرا رفيعا تلك الحقبة التاريخية المجيدة فى تاريخ الحزب الاشتراكى الديموقراطى الالمانى، واوصى الحزب بالابقاء على جهازه السرى الذى انشئ فى زمن القانون الاستثنائى كى يستعمله من جديد اذا استأنفت الطبقات المسيطرة محاولاتها فى وضع حزب العمال الالمانى خارج القانون.

ان الغاء هذا القانون قد غير ظروف نشاط الحزب الاشتراكى الديموقراطى تماما، اذ اصبح فى وسعه ان يقوم بعمله فى الدعاية والترويج والتنظيم بشكل علنى مكشوف.

ونظرا لتغير خطة الطبقات المسيطرة، ظهرت بكل قوة وحدة مسألة خطة الحزب فاصطدم من جديد بازمة داخلية

شبيهة بالازمة التى ظهرت فى صفوفه فى العقد الثامن لدى اصدار القانون الاستثنائى.

اولا، برزت المعارضة الانتهازية «اليسارية» ونعنى بها «الشبان» (اطلقت عليهم هذه التسمية لانه كان على رأس هذه المعارضة فئة الكتاب والطلاب الشبان الذين كانوا يدعون بالدور النظرى والقيادى فى الحزب). وما كانت هذه الفئة تفهم ضرورة استعمال الامكانيات المشروعة فكانت تنادى بالتخلى الكامل عن العمل البرلمانى متهمة الحزب بكامله بالدفاع عن مصالح البرجوازية الصغيرة وبالانتهازية.

وحينما ادعت «الجريدة العمالية السكسونية»، لسان حال «الشبان»، أن انجلس متضامن مع المعارضة، تلقت منه ردا قاطعا. وقد فضح انجلس هذه الاكذوبة «الوقحة كل الوقاحة» واغتنم الفرصة لانتقاد خطة المعارضة وآرائها النظرية انتقادا قاضيا.

فان آراء «الشبان» النظرية، على حد تحديد انجلس، «ليست سوى تشويه فاضح للماركسية». وفى هذا السياق يورد انجلس جملة ماركس المشهورة حول هذا الطراز من «الماركسية» الذى كان جد رائج فى اواخر العقد الثامن بين بعض الاشتراكيين الفرنسيين: «كل ما أعرفه هو اننى لست ماركسيا».

اما خطة «الشبان» المغامرة والمنعزلة عن الواقع فكانت تصلح، بحسب تعبير انجلس، «ان تدفن، بمرافقة ضحكات العدو وقهقهاته المستحقة، أقوى الاحزاب حتى حزب يتألف من ملايين الاعضاء».

وقد سخر انجلس من غرور «الشبان» واوهامهم بصدد وزنهم فى الحزب واهميتهم. وبين لهم الطريق التى يجب ان

يقطعها عضو الحزب والخصال التى يجب ان يكتسبها قبل ان يشغل منصبا قياديا فى الحزب: «فليدركوا ان «تعليمهم الاكاديمى» الذى يتطلب، مع ذلك، مراقبة ذاتية صارمة، لا يخولهم رتبة ضابط مع الحق فى شغل منصب قيادى فى الحزب؛ ان كل عضو من اعضاء حزبنا يجب أن يبدأ خدمته جنديا؛ ولكى يشغل المرء فيه منصبا قياديا لا يكفى أن يظهر موهبة ادبية ومعارف نظرية بل يجب قبل كل شىء أن يعرف معرفة عميقة شروط نضال الحزب ويستوعب استيعابا قويا اشكال هذا النضال ويعطى الدليل على وفائه وحزمه وقوة طبعه كما يجب عليه، فى الاخير، الانتساب طوعا اختياريا الى صفوف المناضلين؛ وبكلمة، على هؤلاء، مع «تعليمهم الاكاديمى»، أن يتعلموا من العمال اكثر مما يتعلم العمال منهم».

هكذا كان انتقاد انجلس «للشبان» حتى قبل ان انتبذوا العمل البرلمانى وشنوا نضالهم المكشوف على الحزب. بيد أنه حين اتضح تطورهم نحو «اليسار» كل الوضوح اتخذ مؤتمر ايرفورت تجاه قادتهم القرار التالى: اما الخضوع لقرارات الحزب واما الخروج من صفوفه. فخرج ممثلو المعارضة من قاعة المؤتمر بشكل يلفت النظر وقطعوا صلتهم نهائيا بالحزب؛ وانزلق بعض منهم بعدئذ الى الفوضوية.

ان انعطاف الطبقات المسيطرة نحو «التنازلات»، الى جانب انتعاش العناصر «اليسارية» فى الحزب، قد ادى ايضا الى اشتداد نشاط العناصر الاصلاحية والانتهازية بشكل سافر. فان هجوم الجناح اليمينى من الحزب بعد الغاء القانون الاستثنائى – وهذا ما تنبأ به انجلس منذ زمن

طويل – قد وجد تعبيره قبل كل شيء فى تصريحات فولمار. فقد كان هذا يعتبر هذا «النهج الجديد» من الحكومة دليلا على «نية طيبة حقا تجاه العمال»، وقد صاغ خطة الحزب الاشتراكى الديموقراطى على هذا النحو: «يدنا منبسطة للنية الطيبة، وقبضتنا مشدودة للنية السيئة».

وانطلاقا من افتراضه ان حكومة الطبقات المسيطرة يمكنها ان تعمل «لصالح الشعب كله»، انكب فولمار على تحريف النظرية الماركسية حول الدولة. ولقد نجم عن موقفه هذا، بشكل منطقى، انكاره للثورة ثم الزعم بان المجتمع الجديد يكون نتيجة «التطور التدريجى السلمى».

لم يكن فولمار بالاشتراكى الديموقراطى الوحيد الذى يفكر على هذه الشاكلة فى هذه الحقبة من الزمن. فان تغير تكتيك الطبقات المسيطرة فى المانيا بعث نوبة جديدة من اللاسالية لدى العناصر البرجوازية الصغيرة فى الحزب، وولد أوهاما اصلاحية جديدة. ولكن، اذا كان قادة الحزب قد عارضوا «الشبان» بحزم وشدة فانهم لم يناضلوا بحزم نفسه ضد العناصر اليمينية الاصلاحية.

كان انجلس يخشى ألا يكون ليبكنخت وسائر زعماء الحزب الاشتراكى الديموقراطى الالمانى قادرين على القضاء على الهجمات المتزايدة من قبل الانتهازيين فى الحزب. فان انجلس، على الرغم من تقديره لبعض اعمال كاوتسكى، هذا المفكر النظرى البارز فى الحزب، لاحظ لديه مع ذلك بعض نواحى سلبية تجلت بشكل خاص فى نشاطه النظرى والسياسى فيما بعد: العقائدية الجامدة والكلامية، وعدم الكفاءة فى امتلاك الديالكتيك المادى، وروحه التافهة الضيقة الافق، واخيرا، – كما كتب انجلس فى رسالة الى أدلر –

انعدام « الصلة بحركة الحزب الحقيقية » . واردف انجلس يقول « انه متحذلق وكلامى بالسليقة ويعقد ابسط الاشياء بدلا من أن يحل المسائل المعقدة » .

كان انجلس يشعر بنفس الشعور من القلق بشأن برنشتاين الذى كان يظهر فى ذلك الحين بازدياد سعيه وراء « التخلص » من التأثير الذى أحدثه فيه انجلس حينما كان يقوم باعباء التحرير فى جريدة « الاشتراكى الديموقراطى » ولا سيما بعد انتقال هذه الجريدة من سويسرا الى لندن. قال انجلس عن برنشتاين فى رسالة مؤرخة فى الثانى عشر من تشرين الاول – اكتوبر – ١٨٩٣ : « انه لم يصبح بعد كما يجب أن يكون. ان هوسه انما هو الانهماك فى التفاصيل التافهة، ويذكر كل يوم أكثر فاكثر بعمه الحكيم من « جريدة الشعب » (« فولكسزاتونغ »)*.

وحتى بيبل نفسه الذى كان انجلس يقدمه على غيره من قادة الحزب الاشتراكى الديموقراطى الالمانى، ما كان يظهر دائما قادرا على النضال بثبات وانسجام ضد العناصر الانتهازية فى الحزب على الرغم من جميع ميزاته البارزة.

وفى مثل هذه الظروف، انبثق خطر انعكاس تأثير العناصر الانتهازية المتعزز فى نص البرنامج الذى كان يجرى الاستعداد للتصديق عليه فى مؤتمر الحزب فى ايرفورت عام ١٨٩١ بدلا من برنامج غوتا القديم. وقد اقترح انجلس، آخذا هذا الخطر بعين الاعتبار، نشر « نقد برنامج غوتا » فى المجلة النظرية للحزب الاشتراكى الديموقراطى « الزمن الحديث » . وقد كتب ماركس هذا النقد فى عام ١٨٧٥

---

* المقصود هنا آرون برنشتاين، المحرر فى جريدة « جريدة الشعب » البرجوازية الصغيرة.

خصيصا من اجل قادة الحزب ولم يكن قد نشر بعد للجمهور. ولكن هذا الاقتراح اصطدم بمعارضة قيادة الاشتراكية الديموقراطية الالمانية فى بادئ الامر. ولم يستطع انجلس أن يحمل كاوتسكى على طبع «نقد برنامج غوتا» فى المجلة التى يرأسها الا بعد تهديده بنشر هذه الوثيقة فى فيينا.

كان انجلس يدرك كل الادراك قوة الضربة التى سينزلها فى الانتهازيين بنشر هذه الوثيقة التى انتقد فيها ماركس اوهام اللاساليين الاصلاحية وصاغ فيها باوسع شكل وجهة نظره حول ديكتاتورية البروليتاريا وطرق الانتقال الى الشيوعية. كتب فى السابع عشر من كانون الثانى – يناير – عام ١٨٩١ لزورغه يقول: «ان العدد السابع عشر من «الزمن الحديث» سيحدث تأثير القنبلة المنفجرة لانه سوف ينشر نقد ماركس لمشروع برنامج ١٨٧٥. وهذا سوف يسرك الا انه سيسخط ويغيظ الكثيرين فى المانيا». لقد كان تنبؤ انجلس صحيحا. «فالقنبلة» اثارت الذعر والاستياء فى المعسكر الانتهازى.

أما كاوتسكى فبعد ما نشر «نقد برنامج غوتا» تحت ضغط من انجلس، بادر فى الوقت نفسه الى انكار رأى ماركس حول لاسال. قال فى العدد الواحد والعشرين من «الزمن الحديث»: «ان رأى ماركس حول لاسال ليس برأى الاشتراكية الديموقراطية الالمانية». وعلاوة على ذلك، عاد كاوتسكى ونشر فى مجلته مقالة مقتبسة من جريدة «الى الامام» وموجهة ضد «نقد برنامج غوتا»، بوصفها «ترياقا» له. وكانت هذه المقالة التى كتبها ليبكنخت، حسب كل احتمال، تحتوى «تحفا» من هذا النوع: «ان الاشتراكيين الديموقراطيين الالمان ليسوا

ماركسيين ولا لاساليين بل هم مجرد اشتراكيين ديموقراطيين ».

وكان المقال المذكور – على النقيض من « نقد برنامج غوتا » – يتخذ موقف الدفاع عن المبادئ الانتهازية التى كانت اساسا للتوحيد المنتوى فى غوتا. جاء فى المقال: « ان هذا المؤتمر كان غرضه **توحيد الكتلتين لا صياغة مبادئ علمية.** كان يجب الاختيار بين مجمع علمى اكليريكى ومؤتمر اشتراكى توحيدى ». لقد كانت هذه صيغة كلاسيكية حقا للفرق بين النظرية والنشاط العملى، هذا الفرق الذى صار فيما بعد خاصية لاحزاب الاممية الثانية.

وقد أعلن غريللنبرغر، وهو نائب اشتراكى ديموقراطى، من على منصة الرايخستاغ، ان حزبه لا يشاطر آراء ماركس حول مسألة ديكتاتورية البروليتاريا.

فانطلاقا من ذلك كله، قرر انجلس أن يلقى قنبلة جديدة فى معسكر الانتهازيين وهى: « المقدمة » لكراس ماركس « الحرب الاهلية فى فرنسا ». وفى هذه المقدمة، ثار انجلس على « وسواس احترام الدولة » المنتشر فى المانيا شديد الانتشار لا بين البرجوازيين فقط بل بين كثير من البروليتاريين ايضا. فبين فى هذه المقدمة، على النقيض من الرأى الشائع بان الدولة هى اداة عدالة وحقيقة خالدتين، انها « ليست سوى جهاز قمع طبقة من قبل طبقة أخرى وان هذا لا اقل شأنا فى الجمهورية الديموقراطية مما هو عليه فى المملكة ».

وقد اورد مثالا على ذلك الولايات المتحدة حيث توجد، على حد تعبيره، « عصابتان كبيرتان من المضاربين

السياسيين تأخذان بشكل دورى زمام سلطة الدولة وتستغلانها بافسد الصورة ولاخس الغايات».

ولقد عارض انجلس النظريات الانتهازية حول التحول التدريجى الى الاشتراكية فى ظل الدولة البرجوازية القائمة، بتجربة كومونة باريس التى أكدت عمليا ان الطبقة العاملة، بعد ما استولت على مقاليد الحكم، «ولكيلا تفقد ثانية الحكم الذى ظفرت به آنفا، يجب عليها ان تطيح بجهاز الاضطهاد القديم جميعه، الذى كان يستخدم سابقا ضدها، هذا من جهة؛ وكان عليها من جهة اخرى، ان تحمى نفسها من نوابها وموظفيها بجعل تفويضهم جميعا، ودون استثناء، عرضة للالغاء فى اى لحظة»*.

وقد ختم انجلس «المقدمة» بهذه الكلمات الموجهة مباشرة ضد الانتهازيين فى الاشتراكية الديموقراطية الالمانية:

«فى الآونة الاخيرة، شرع رعب ناجع من كلمتى «ديكتاتورية البروليتاريا» يستبد من جديد بالتافهين الضيقى الافق من الاشتراكيين الديموقراطيين. هل تريدون ان تعرفوا، ايها السادة المحترمون، كيف تبدو هذه الديكتاتورية؟ انظروا الى كومونة باريس. هكذا كانت ديكتاتورية البروليتاريا»**.

ان هذه الحملة التى قام بها انجلس ضد الانتهازية والتى رحب بها اعضاء قاعدة الحزب، قد ازعجت كثيرا بعض القادة الاشتراكيين الديموقراطيين ذوى الميول الى

---

* ماركس. «الحرب الاهلية فى فرنسا». الطبعة العربية. موسكو. ص ١٨.

** ماركس. «الحرب الاهلية فى فرنسا». الطبعة العربية. موسكو. ص ٢١.

المصالحة، فاعربوا عن استيائهم لانجلس حتى انهم كفوا عن التراسل معه موقتا. ولكن انجلس لم يتأثر لمثل هذه التظاهرات. كتب يقول: «اذا كانوا يعتقدون أن وخزاتهم تستطيع أن تثقب اديمى العتيق السميك المدبوغ جيدا، فانهم على ضلال من أمرهم».

وقد اسرع انجلس لينزل ضربة جديدة فى الاصلاحية و«البلاهة البرلمانية» فى الحزب. وقد اتاح له المشروع الجديد للبرنامج الاشتراكى الديموقراطى، على حد قوله، فرصة أخرى لانزال ضربة فى «الانتهازية المسالمة» وفى فكرة ««التحول» المرح - المتواضع - الحر لزريبة الخنازير العتيقة «الى مجتمع اشتراكى»».

لقد قدم انجلس فى سياق انتقاده لمشروع البرنامج الذى كان يجب أن يناقش فى مؤتمر الحزب المقرر انعقاده فى ارفورت عام ١٨٩١، تحليلا مفصلا للقسم النظرى من هذا البرنامج مع مطالبه الاقتصادية والسياسية. والاهم من هذا التحليل هو ملاحظاته النقدية حول المطالب السياسية.

لقد عارض انجلس بحزم المحاولات التى تستهدف أن تفرض على الحزب الرأى القائل ان النظام السياسى القائم فى المانيا يتيح للاشتراكية الديموقراطية الالمانية التوصل الى مطالبها كلها بطريق مشروع سلمى. ولقد كان انجلس حاذرا بشكل كاف لكيلا يقيد يديه فى مسألة الاشكال الملموسة الممكنة فى المستقبل للانتقال الى الاشتراكية فى شتى البلدان. «فى وسع المرء ان يتصور لنفسه تحول المجتمع القديم تحولا سلميا الى نظام جديد فى بلاد تحصر فيها المجالس الشعبية التمثيلية كل السلطة فى يدها، ويمكن فيها عمل كل شىء بالطرق الدستورية، ولكن شرط

أن تتمتع انت بتأييد غالبية الشعب... » اما فى المانيا، بحكومتها المطلقة السلطة، وبرلمانها الذى وصفه ليبكنخت وصفا صائبا « بورقة تين الحكم المطلق » والذى لا يملك أية سلطة فعلية، فان الوضع بعيد كل البعد عن أن يكون كذلك. وقد فضح انجلس الاوهام الانتهازية التى تزعم بامكان اقامة نظام جمهورى، بله مجتمع شيوعى، بشكل سلمى ودونما اراقة الدماء فى ظل مثل هذا النظام السياسى.

ان ملاحظات انجلس النقدية هذه حول مشروع البرنامج المذكور كان لا بد لها ان تحدث تأثيرها. ففى مؤتمر ارفورت، بادر بيبل وزينغر وغيرهما من زعماء الحزب الى انتقاد الآراء الانتهازية سواء منها « اليسارية » ام اليمينية. وتحت ضغط هذا الانتقاد آثر الانتهازيون أن يلوذوا بالمناورة وعمدوا الى الانسحاب. وطرأت على مشروع برنامج ارفورت بعض التغييرات. وعلى الرغم من ان هذا البرنامج كان خطوة الى الامام بالنسبة الى برنامج غوتا، الا انه، رغم انتقاد انجلس، قد احتفظ بنقص اساسى حاسم اذ لم يكن يحتوى اى بحث عن ديكتاتورية البروليتاريا. وقد كان حزب العمال الاشتراكى الديموقراطى فى روسيا هو الحزب الوحيد فى الاممية الثانية الذى أقر فى مؤتمره الثانى (١٩٠٣) برنامجا صاغ فيه مسألة ديكتاتورية البروليتاريا صياغة واضحة وذلك بفضل النضال الذى خاضه لينين والبلاشفة.

ان انجلس، فى نضاله على جبهتين فى صفوف الاشتراكية الديموقراطية الالمانية ــ ذلك النضال الذى كانت له أهمية كبيرة على الصعيد الدولى، قد صوب ناره الحامية بشكل رئيسى على الاصلاحيين وانصار « الانسجام الاجتماعى »

الداعين الى التحول التدريجى والسلمى الى الاشتراكية وفضحهم كاشتراكيين مزيفين واعداء ألداء للطبقة العاملة.

ومن جهة أخرى كافح انجلس ايضا اولئك الذين لا يودون أن يأخذوا بالحسبان خصائص المرحلة التاريخية المعنية ولا يدركون الخطة التى يجب تطبيقها فى الظروف الناشئة لاعداد الطبقة العاملة للثورة الظافرة واقامة ديكتاتورية البروليتاريا.

وبعد ما صار فى امكان الاشتراكية الديموقراطية الالمانية أن تعمل بشكل مشروع، حمل انجلس على جميع الذين ينكرون ضرورة استخدام «الشرعية البرجوازية» لتوسيع الدعاية للافكار الاشتراكية وتقوية المنظمات العمالية وتعميق وعى البروليتاريا الطبقى وزيادة تراص صفوفها. وحارب انجلس الساسة الميالين الى الفوضى والعاجزين عن فهم ان ظروف الشرعية تسمح للاشتراكية الديموقراطية كسب جماهير جديدة وجديدة من اجل الثورة الاشتراكية.

غير انه لم يفتأ ينبه الحزب من أن تنامى نجاحات الاشتراكية الديموقراطية فى الانتخابات فى الرايخستاغ وتزايد عدد الاصوات التى حصلت عليها يشكلان فى مرحلة معينة خطرا على الطبقات المسيطرة يبلغ من الشدة درجة ستحملها يوما على الغاء هذه الشرعية البرجوازية التى سنتها بنفسها لتلجأ الى العنف ضد الطبقة العاملة وحزبها وحتى الى الحرب الاهلية.

وبالفعل، لم تلبث الطبقات المسيطرة فى المانيا أن شعرت بانها مقيدة بالشرعية البرجوازية التى سنتها. ففى شهر كانون الاول ـ ديسمبر ـ ١٨٩٤ طرح مشروع قانون

جديد ضد الاشتراكيين على الريخستاغ بحجة ان ثمة انقلابا مزعوما يدبره الحزب الاشتراكى الديموقراطى. اما فى الواقع، فان قسما من الطبقات المسيطرة ولا سيما اصحاب الاراضى، كان يرغب فى القيام بانقلاب ونسف الدستور والقضاء على حق الاقتراع العام بغية حشر الاشتراكية الديموقراطية فى ضائقة العمل السرى بشكل اشد مما فى فترة القانون الاستثنائى.

وعندما كان الريخستاغ يناقش القانون ضد الانقلاب، كتب انجلس «مقدمة» لمؤلف ماركس «النضال الطبقى فى فرنسا ١٨٤٨-١٨٥٠» الذى نشرته مجلة «الجريدة الرينانية الجديدة. نظرات فى الاقتصاد السياسى» فى عام ١٨٥٠، والذى صدر للمرة الاولى بطبعة على حدة فى عام ١٨٩٥. وقد بين انجلس فى «مقدمته» لهذه الطبعة أن الطبقات المسيطرة هى التى تهتم بالانقلاب فى هذه المرحلة، لا الاشتراكية الديموقراطية. وقد اشار الى أن الشرعية فى ظروف المانيا الراهنة تفيد الاشتراكية الديموقراطية لأن العمل المشروع الطويل الدائب هو الذى يوسع اكثر فاكثر تأثيرها فى الجماهير ويخنق الطبقات المسيطرة غيظا فيجعلها تصيح: «الشرعية تقتلنا!» ولهذا كانت الطبقات المسيطرة تود لو أن تستفز البروليتاريا وتجرها الى اعمال فجة وتنزلها الى الشارع لتنهال عليها برصاص البنادق وطعنات الحراب وتعمل فيها القتل والذبح.

وقد اشار انجلس فى «المقدمة» الى التغيرات التى طرأت على خطة قتال الشارع منذ عامى ١٨٤٨ و١٨٧١.

فبين أن الجيش صار قويا، وغدا يملك اسلحة أقوى ويستطيع أن ينقل وحداته بسرعة بفضل السكك الحديدية الجديدة، وان الشوارع الطويلة المستقيمة فى الاحياء المبنية حديثا فى المدن الكبيرة تسهل عمل المدافع والبنادق الحديثة.

ثم تساءل قائلا:

«أهذا يعنى أن قتال الشارع لن يلعب فى المستقبل أى دور؟ لا، أبدا. هذا يعنى فقط أن الظروف منذ عام ١٨٤٨ صارت أقل ملاءمة للمحاربين المدنيين وأكثر ملاءمة للجيوش. ان قتال الشارع لا يمكن فى المستقبل ان يكلل بالظفر الا اذا صححت هذه النسبة غير المفيدة بعوامل اخرى». وما هى هذه العوامل؟ يجيب انجلس: لا بد فى قتال الشوارع فى المستقبل من الانتقال من تكتيك المتاريس القديم المنفعل الى تكتيك الهجوم المكشوف مما يتطلب من الجماهير استخدام قوى أعظم. ولا بد من التأثير المعنوى فى نفوس الجيش لجعل الجنود يمتنعون عن اطلاق الرصاص على الشعب. ان الواجب الاهم للحزب خلال هذه المرحلة هو، حسب رأى أنجلس، اعداد القوى لمعارك المستقبل وكسب الجماهير الواسعة، ومن جملتها الفلاحون الكادحون، الى جانب الاشتراكية الديموقراطية.

«يجب أن نسهم باستمرار فى هذا التزايد (لقوى الحزب الجماهيرية – المؤلفة) الى أن يصبح أقوى من النظام الحكومى المسيطر، ويجب ألا نبدد فى قتال الطليعة كتيبة الصدام هذه التى تتعزز يوما بعد يوم بل ينبغى الحفاظ عليها سليمة حتى اليوم الفاصل – هذه هى مهمتنا الرئيسية».

هذه هى الافكار الاساسية التى وردت فى «المقدمة» «للنضال الطبقى فى فرنسا». وكانت هذه المقدمة آخر ما قدر لانجلس ان ينشره.

ولدى نشرها وجد نفسه مضطرا الى كتابة بعض مقاطعها باسلوب اكثر احتراسا، وذلك تنازلا عند الحاح قادة الحزب فى المانيا الذين طلبوا من انجلس ان يأخذ بالحسبان الوضع المتوتر الناشىء فى البلاد على أثر المناقشات التى جرت فى ذلك الحين فى الرايخستاغ حول القانون ضد الانقلاب. كتب انجلس لكاوتسكى فى الخامس والعشرين من شهر آذار - مارس - ١٨٩٥ يقول: «ان نصي **انا** قد ضعف بعض الشىء بسبب عدم حزم اصدقائنا البرلينيين وخوفهم من سن القانون ضد محاولات الاطاحة بالنظام القائم، عدم الحزم الذى اضطررت، على الرغم من كل شىء، الى أخذه بعين الاعتبار فى تلك الظروف».

بيد أن هذا كان غير كاف فى نظر بعض قادة الاشتراكية الديموقراطية الالمانية. فقرروا تشويه نص انجلس بكل بساطة. وكم كان سخط انجلس عظيما حينما وجد فى جريدة «الى الامام»، لسان حال الحزب، مقتطفات من «المقدمة» منشورة بدون موافقته و«مرتبة - كما كتب فى اول نيسان - ابريل - ١٨٩٥ لكاوتسكي - بشكل ظهرت انا فيه مسالما محبا للعمل المشروع مهما كان الثمن». وقد احتج انجلس احتجاجا شديدا لدى ليبكنخت على هذا التشويه لافكاره وطلب نشر النص الكامل «للمقدمة» فى «الزمن الحديث» كى «يمحو هذا التأثير الشائن».

لم يقتصر انجلس على الاعراب عن احتجاجه الشديد لدى بعض زعماء الاشتراكية الديموقراطية الالمانية بل

رأى ضروريا أن يطلع قادة احزاب اخرى ولا سيما لافارغ على هذه الحادثة المشينة. فكتب الى لافارغ فى رسالة مؤرخة فى الثالث من شهر نيسان – ابريل – ١٨٩٥: «ان ليبكنخت قد عبث بى حسنا. فقد أخذ من «مقدمتى» لمقالات ماركس حول فرنسا فى اعوام ١٨٤٨ – ١٨٥٠، كل ما يمكن أن يفيده للدفاع عن **الخطة المسالمة المناهضة للعنف، مهما كان الثمن**، هذه الخطة التى فضل أن ينادى بها منذ بعض الوقت ولا سيما فى هذه الآونة التى يجرى فيها اعداد القوانين التعسفية فى برلين. ولكن هذه الخطة لا أوصى بها الا **لالمانيا اليوم ومع تحفظ كبير ايضا.** ان هذه الخطة بالنسبة الى فرنسا وبلجيكا وايطاليا والنمسا لا يمكن أن تتبع فى مجملها ولسوف تكون غير ممكنة التطبيق فى المانيا غدا».

وفيما بعد، شرع الانتهازيون امثال برنشتاين يشوهون الوقائع، ويزعمون بوقاحة أن انجلس قد عدل آراءه وسلك سبيل الاصلاح فى «المقدمة» وهى آخر ما طبع له حال حياته. انهم لم يخجلوا من الافتراء على هذا الرجل الذى كرس حياته كلها للكفاح من اجل ديكتاتورية البروليتاريا ولم يفتر لحظة عن فضح خطر الاصلاحية والانتهازية.

كان انجلس يرى فى الحرب التى أخذ شبحها يرتسم فى الافق بوضوح اكثر فاكثر، عاملا من العوامل يمكنه ان يغير بشدة ظروف نضال الاشتراكية الديموقراطية الالمانية وبالتالى، خطتها. فكان يتابع بقلق الاعداد للحرب والتقارب بين روسيا وفرنسا، هذا التقارب الذى تنبأ به ماركس فى النداء باسم مجلس الاممية العام فى سنة ١٨٧٠،

وتأليف الحلف الثلاثى بين المانيا والنمسا وايطاليا. وكان يعلن ان الحرب المقبلة، على خلاف «الحروب المحلية» السابقة اى الحروب بين بعض الدول المنفردة، سوف تجرى على صعيد دولى وسوف تتميز باتساعها التدميرى بشكل لا مثيل له.

لقد اشار انجلس، وهو فى اواخر حياته، الى بعض الوقائع الجديدة فى تطور الاقتصاد الرأسمالى كظهور الشركات المساهمة والتروستات ودور البورصة والبنوك المتزايد فى الصناعة والزراعة وفى توظيف الرساميل فى الخارج بشكل اسهم. كتب انجلس يقول: «ثم احتلال المستعمرات. فهذا الفعل هو الآن فصل البورصة بكل بساطة، البورصة التي تقاسمت فى صالحها الدول الاوروبية افريقيا منذ بضعة اعوام، واستولى الفرنسيون على تونس ونونكين.

اعطيت افريقيا، فعلا، على سبيل الايجار الى الشركات (النيجر، افريقيا الجنوبية، افريقيا الالمانية الجنوبية الغربية والشرقية). وثم امتلاك ماشونالند وناتال، من قبل رودس، لأجل البورصة».

ولكنه لم يكن فى مستطاع انجلس ان يستوعب ما طرأ على الاقتصاد العالمي والسياسة العالمية من تغيرات رئيسية لم تكن ابان حياته غير ان ارتسمت معالمها ولم تكتسب طابعاً واضحاً ومحدداً الا فى عصر الاستعمار الذى لم يبلغه انجلس. ولهذا لم يكن فى مستطاع انجلس ان يحدد طابع الحرب المقبلة بوصفها حرباً استعمارية.

لقد حلل أنجلس الوضع الدولى فى مقالتيه: «السياسة الخارجية للقيصرية الروسية» (١٨٩٠) و«الاشتراكية فى

المانيا» (۱۸۹۱) وفى عدد من رسائله الى الاشتراكيين فى مختلف البلدان فكان يرى دائما فى القيصرية الروسية الحصن الرئيسى للرجعية الاوروبية الذى يجب على اشتراكيى اوروبا الغربية ان يشنوا عليه نضالا مستميتا. وكان يرى فى الوقت نفسه فى المانيا البلد الذى ستنضج فيه الظروف عما قريب للثورة الاشتراكية. كان انجلس يعتقد ان انتصار القيصرية الروسية المتحالفة مع فرنسا على المانيا سيلقى بالحركة العمالية الالمانية بعيدا الى الوراء، وكان مقتنعا لذلك بانه يجب على الاشتراكيين الالمان فى حالة نشوب الحرب أن يهبوا للدفاع عن وطنهم. وقد اشار الى ان الدفاع الحقيقى عن المانيا لا يمكن أن تؤمنه سوى الطرق الثورية ووصول الاشتراكية الديموقراطية الى السلطة مع العلم انه يجب على الاشتراكية الديموقراطية ان ترأس الحرب الثورية على غرار حرب اليعاقبة عام ۱۷۹۳*.

* ان الحرب العالمية التى اندلعت نيرانها فى عام ١٩١٤ لم تكن تحمل الطابع المرسوم فى مقالات انجلس المكتوبة خلال العقد التاسع واوائل العقد التالى. ولكن هذا لم يمنع الاشتراكيين الشوفينيين الالمان عن تبرير خطتهم الخائنة، خطة تأييد حرب النهب الاستعمارية التى قامت بها حكومت «هم» متذرعين بموقف ماركس وانجلس العائد الى عهد آخر تماما، الى عهد من الماضى البعيد ولى الى الابد بلارجعة.

لقد حارب لينين الاشتراكيين الشوفينيين خلال الحرب العالمية الاولى وبين التبدلات الجذرية التى طرأت على نسبة القوى الرجعية فى الميدان الدولى فى عصر الاستعمار فقال: «لقد كفت القيصرية، عن فطنة وبلا مراء، عن ان تكون الحصن الرئيسى للرجعية، اولا لانها تحظى بمساندة الرأسمال المالى العالمى، وبخاصة رأسمال فرنسا، وثانيا، بسبب ثورة ١٩٠٥... وقد توفى ماركس وانجلس قبل المرحلة الاستعمارية. اما اليوم، فقد نشأ نظام قبضة (٥ او ٦) من الدول الاستعمارية «الكبرى» التى تضطهد كل منها امما اخرى...» (لينين. «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٤٤٣-٤٤٤).

وقد لاحظ انجلس بقلق نضوج خطر نشوب حرب عالمية، فراح يحث اشتراكيى العالم كله على النضال النشيط فى سبيل السلام. وكان يعتبر أن اعظم اهمية تاريخية عالمية للثورة الاشتراكية لا تكمن فحسب فى «تحرير الطبقة العاملة وجميع افراد المجتمع بلا استثناء» بل ايضا فى القضاء النهائى على جميع انواع الحروب التى تحمل للانسانية مصائب لا حصر لها. «ان التعاون الدولى المخلص بين شعوب اوروبا لن يكون ممكنا الا حينما يكون كل شعب من هذه الشعوب سيدا تاما فى بلده».

* * *

نظرا لتفاقم الوضع الدولى ولاقتراب مرحلة من المعارك الثورية الجديدة، كان انجلس يعير اهتماما خاصا لروسيا ولتطورها الداخلى وآفاق الثورة الروسية.

ان هذه البلاد الشاسعة التى تمتد من شرق اوروبا حتى الشرق الاقصى والتى كانت تحدث تأثيرا هائلا فى الشؤون الاوروبية كانت من زمان تسترعى انتباه ماركس وانجلس. وبما ان الحركة الديموقراطية الجماهيرية المستقلة لم تكن بعد قد اتسعت فى داخل روسيا، وبما ان القوى الثورية التى بمستطاعها الاطاحة بالقيصرية لم تكن بعد قد نضجت فيها، فقد كان مؤسسا الشيوعية العلمية يروجان من على صفحات «الجريدة الرينانية الجديدة» لحرب ثورية ضد القيصرية الروسية بوصفها أقوى حصن للرجعية فى اوروبا.

ومن هنا كان ينبع عطفهما الخاص وتأييدهما النشيط لحركة التحرر الوطنى البولونية الموجهة ضد القيصرية الروسية والتى كانت فى تلك الحقبة «تتعاظم اهمية وتحتل

مكانا بارزا من الوجهة الديموقراطية لا بالنسبة الى روسيا كلها او الى جميع البلدان السلافية فحسب، بل بالنسبة الى اوروبا كلها ايضا »*.

لقد أكدت القيصرية الروسية صحة تنبؤات ماركس وانجلس اذ لعبت فى حينه، خلال ثورة ١٨٤٨-١٨٤٩، دور « دركى اوروبا » وارسلت جيوشها الى هنغاريا لقمع الانتفاضة الوطنية التحررية والثورية الديموقراطية.

وفى الفترة التى تلت هذه الاحداث، كان ماركس وانجلس لا يفتآن يتتبعان بامعان السياسة الخارجية للقيصرية الروسية والتطور الداخلى الجارى فى روسيا على السواء. وقد اتاحت لهما معرفتهما اللغة الروسية والادب الروسى تكوين فكرة دقيقة عن روسيا وشعبها المئة مليون وثقافته كما اتاحت لهما نظريتهما العلمية من جهة أخرى النفاذ الى لب التطور الاجتماعى فى روسيا بشكل اعمق من أى واحد من معاصريهما.

كان ماركس وانجلس يتتبعان بلا كلل تشكل القوى الاجتماعية التى أخذت تقوض دعائم القيصرية الروسية من الداخل، والاستياء الخطر المتزايد فى صفوف الفلاحين الروس بسبب وضعهم الذى كان يتردى يوما بعد آخر.

لقد بين انجلس فى عدد من مقالاته ان الغاء القنانة فى روسيا لم يقض على التناقضات الاجتماعية القائمة فى البلاد، بل انه قد زادها تفاقما وجعل رواسب الاقطاعية اصعب احتمالا. وقد تنبأ انجلس بصدد الاصلاح الزراعى فى روسيا فى عام ١٨٦١ حين قال: « ان هذا القرار

---

* لينين. « حق الامم فى تقرير مصيرها ». الطبعة العربية. موسكو. ص ١٥٧.

التحررى العظيم الذى هللت له الصحافة الليبيرالية فى اوروبا، لم يفعل غير ان خلق قاعدة متينة وحدد الضرورة المطلقة للثورة العتيدة».

ان يقظة الفلاحين ونهوض الحركة الثورية الديموقراطية فى روسيا ساقا ماركس وانجلس الى الاستنتاج أن هذه البلاد سوف تقدم فى المستقبل دفعة شديدة للثورة فى اوروبا. «ان روسيا هى طليعة الحركة الثورية فى اوروبا» ـ هذا ما كتبه ماركس وانجلس عام ١٨٨٢ فى مقدمة الطبعة الروسية «لبيان الحزب الشيوعى».

كان انجلس، على غرار ماركس، يدرس بامعان التطور الاقتصادى فى روسيا ويتتبع العلم والادب الروسيين. وقد شكر انجلس دانيلسون، مترجم «رأس المال» الى الروسية، على المجموعة الاخيرة من الكتب الروسية التى ارسلها اليه، فكتب فى شهر اذار ـ مارس ـ ١٨٩٢ أنه من بين هذه الكتب «كان كتاب مندلييف هو الاطرف». ان معرفة العلم الروسى والتفكير الاجتماعى المتقدم فى روسيا اتاحت لانجلس أن يقدر تقديرا عاليا خصال الشعب الروسى الخلقية والفكرية «هذا الشعب العظيم الموهوب هبة رفيعة» كما كتب فى رسالة أخرى لدانيلسون فى تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ١٨٩٣. كان انجلس يثق بالشعب الروسى وبقوته وبحزمه. كتب انجلس لدانيلسون يرد عليه اذ كان هذا يشتكى من المصائب التى يسببها نهوض الرأسمالية والصناعة الكبيرة لجماهير الشعب الواسعة فى بلاده فقال: «ان أمة عظيمة كامتكم ستتغلب على أية ازمة».

وكان انجلس يقدر اسمى التقدير الشباب الروس الثوريين بسبب التفانى الذى يسعون فيه وراء الحقيقة

العلمية ووراء النظرية الثورية حقا. وكان ماركس قد اشار الى أن كتابه « بؤس الفلسفة » (١٨٤٧) وكتابه « مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى » (١٨٥٩) لم يقرآ فى مكان كما قرئا فى روسيا. وتجدر الاشارة كذلك الى أن « رأس المال » قد ترجم اولا الى اللغة الروسية. وان الانباء التى كان ماركس يتلقاها حول الحماسة التى استقبل بها العلماء والشباب الثوريون فى روسيا كتاب « رأس المال » جعلته يستنتج أن كتابه فى هذه البلاد « قد قرئ وقدر أكثر من أى مكان آخر ». وقد كانت تآليف انجلس تجد لها فى روسيا استقبالا لا يقل شأنا عن كتب ماركس. كتب انجلس عن كتابه « ضد دوهرينغ » يقول: « ... ان هذا الكتاب قد احدث فى روسيا على وجه الخصوص تأثيرا ما كنت اتوقعه ابدا ».

وحينما انتقدت المهاجرة الروسية بابريتز فى احدى رسائلها الى انجلس شباب بلادها، تلقت هذا الجواب: « يلوح لى انك تخطئين بعض الخطأ بحق مواطنيك. فانا وماركس ليس لدينا ما يحملنا على الشكوى منهم. واذا كانت ثمة بعض المدارس التى امتازت بحماستها الثورية اكثر منها بدراساتها العلمية، واذا كانت كذلك ولا تزال مختلف الاضاليل، فثمة ايضا، من جهة أخرى، فكر نقاد وابحاث متفانية فى مضمار النظرية الصرفة، جديرة بالامة التى أنجبت دوبروليوبوف وتشيرنيشيفسكى. اننى لا اقصد الاشتراكيين الثوريين النشيطين فحسب بل كذلك المدرسة التاريخية والنقدية فى الادب الروسى الذى يفوق كثيرا كل ما انتجه من هذا النوع العلم التاريخى الرسمى فى المانيا وفرنسا. ان افكارنا والعلم الاقتصادى الذى أعاد صهره

ماركس بشكل جذرى وجدت تفهما وعطفا طيبا على الدوام حتى بين الثوريين العمليين».

كان ماركس وانجلس يتراسلان بانتظام مع الثوريين والاشتراكيين الروس امثال لافروف ولوباتين ودانيلسون وفيرا زاسوليتش وغيرهم ويساعدانهم على ادراك المهام التى يمليها عليهم التاريخ واكمال رجولتهم الشخصية بمعرفة قوانين التطور التاريخى الموضوعية وبتفهم الظروف الملموسة للنضال فى روسيا والخطة التى يجب انتهاجها وفقا لهذه الظروف.

ولهذا كانا يشجبان بشكل قاطع نظريات «الشعبيين» الطوباوية وآراءهم حول الطابع الاصيل، كما كانوا يزعمون، لتطور روسيا غير الرأسمالى، وحول الطبيعة الاشتراكية لمشاعات الفلاحين والخ. كانت الشعبية العقبة الاساسية فى وجه انتشار الماركسية فى روسيا.

وقد بين انجلس فى مقاله ضد تكاتشيف «العلاقات الاجتماعية فى روسيا» (١٨٧٥) وفى مقالات اخرى الى اية درجة قليلة كانت نظريات الشعبيين تطابق الوقائع التاريخية والواقع الروسى. فالملكية المشاعية للارض، مثلا، ما كانت خاصية روسيا الاصيلة، اذ انها كانت موجودة ايضا لدى شعوب أخرى من فجر الحضارة. وقد برهن انجلس على خطأ الشعبيين الزاعم أن الفلاح الروسى، رغم انه مالك قطعة من الارض، كان ميالا الى الاشتراكية أكثر من بروليتاريى اوروبا الغربية المحرومين من كل ملكية.

وقد بين انجلس أن التطور الاقتصادى المحتم فى روسيا وثورتها الصناعية وتوسع سوقها الداخلية ونهضة تجارتها تقوض اسس مشاعات الفلاحين وتفسدها وتعزز

فيها التفاوت الاقتصادى وانه، الى جانب الملاك الاقطاعى، يظهر فى القرى المرابى، «الكولاك»، «الميرويد» (الفلاح المقرش) (ان هذه الكلمات كان انجلس كثيرا ما يكتبها بالروسية) وان الفلاحين الروس يتحولون الى بروليتاريين. وقد اشار انجلس الى ان هذا التحول يجرى فى ظروف المشاعة الفلاحية بشكل بطيء ومؤلم بخاصة.

هل هذا يعنى أن روسيا كان محكوما عليها أن تجتاز، كالغرب، فترة طويلة من التطور الرأسمالى وانحلال المشاعة الفلاحية او ان الملكية المشاعية يمكنها ان تنتقل مباشرة الى الشكل الارفع، الى الملكية الاشتراكية؟ كان الثوريون الروس كثيرا ما يطرحون هذا السؤال على ماركس وانجلس.

ففى مقدمة الطبعة الروسية «لبيان الحزب الشيوعى» (١٨٨٢) اجاب ماركس وانجلس عليه كما يلى:

«اذا أدت الثورة الروسية الى نشوب ثورة بروليتارية فى الغرب، وكانت الثورتان احداهما تتمم الاخرى، فان ملكية الارض المشاعية الحالية فى روسيا يمكن أن تكون نقطة انطلاق لتطور شيوعى»*.

وعلى النقيض من الشعبيين، بيّن ماركس وانجلس أن الملكية المشاعية لا يمكن أن تتولد عنها الاشتراكية بدون مساعدة ثورة بروليتارية فى البلدان المتقدمة، ما دامت الاشتراكية تتطلب، كمقدمة تاريخية لها، وجود الرأسمالية مع ازدهار القوى المنتجة وحدة التناقضات الطبقية الخاصة بهذا النظام. ولكنهما اعتبرا فى الوقت ذاته أن البلدان التى سلكت توا سبيل التطور الرأسمالى، شرط انتصار البروليتاريا فى البلدان المتقدمة وبمساعدتها

* ماركس وانجلس. «بيان الحزب الشيوعى». موسكو. ص ١٤.

النشيطة، يمكنها ان تستخدم بقايا الملكية المشاعية كوسيلة لتعجيل مجرى الانتقال الى المجتمع الاشتراكي.

وقد عاد انجلس بعد موت ماركس أكثر من مرة الى هذا السؤال. فقد اشار في عدد من المقالات وفي رسائله الى الثوريين الروس الى أنه منذ الوقت الذي كتب فيه مع ماركس المقدمة الواردة في الطبعة الروسية «للبيان الشيوعي»، تقدم تفسخ المشاعة الفلاحية الروسية تقدما ملحوظا، واحرزت الرأسمالية في روسيا نجاحات. وقد كانت هذه التبدلات الطارئة على روسيا قد حالت دون تكرار الجواب الذي قدمه مع ماركس على السؤال حول مصير المشاعة عام ١٨٨٢. ولم يأخذ انجلس على نفسه امر الحكم بدرجة سلامة المشاعة الا انه كان يعتقد بانه يجب قبل كل شيء الاطاحة بالاستبداد القيصري، ولا بد من الثورة في روسيا لتجنب اندثار المشاعة التام.

وقد رحب انجلس بحرارة بظهور اوائل الماركسيين المنضمين الى جماعة «تحرير العمل» في روسيا. وكان يعتز بظهور اناس في الحركة الثورية الروسية تخلوا عن نظريات الشعبيين ليتبنوا مذهب البروليتاريا العالمية — الشيوعية العلمية.

وقد رأى انجلس ان استيعاب الثوريين الروس وممثلي البروليتاريا في روسيا للنظرية الماركسية هو الشرط الاساسي لثورة ظافرة في هذه البلاد. وكتب في رسالته الى فيرا زاسوليتش يقول: «ان نظرية ماركس التاريخية هي بالنسبة لي الشرط الاساسي لكل خطة ثورية **واعية ومتماسكة**؛ ولكي نجد هذه الخطة يكفي لنا ان نطبق النظرية على الظروف الاقتصادية والسياسية للبلاد المعنية».

ففى رسائله الى فيرا زاسوليتش وبليخانوف، سعى انجلس وراء تقديم المساعدة الى جماعة «تحرير العمل» على «ايجاد الخطة» اللازمة فى ظروف روسيا.

وحذر الماركسيين الروس من العقائدية والمدرسية الغريبتين تماما عن روح مذهب ماركس. وقد روى الكاتب الروسى فودين، عضو الحلقة الاشتراكية الديموقراطية فى ذلك الحين، أن انجلس، فى حديث معه فى لندن عام ١٨٩٣، دعا «الروس، وليس الروس فقط، الى التفكير مثلما كان فكر ماركس لو كان مكانهم بدلا من أن يكثروا من الاستشهادات باقوال ماركس وانجلس. وبهذا المعنى وحده تجد كلمة «ماركسى» « raison d'être » (مبرر وجودها).

وكان انجلس يقدر تقديرا عاليا النشاط الذى تقوم به جماعة «تحرير العمل» بشأن ترويج الماركسية ولكنه كان يشير فى الوقت نفسه على ممثليها بضرورة حل جملة من المشاكل ولا سيما المسألة الزراعية فى روسيا حلا علميا مستقلا. كان يشير الى اهمية هذه المهمة سواءا من حيث تطوير نظرية ماركس الاقتصادية ولا سيما مذهب الريع العقارى، ام من حيث النشاط الثورى العملى فى روسيا. وقد كان معجبا بموهبة بليخانوف الرائعة فكان يعبر عن رغبته فى رؤيته يهتم بهذه المسألة الاساسية بالنسبة الى روسيا. ومعروف ان لينين هو الذى قام فيما بعد بهذه المهمة.

كان انجلس يلاحظ بقلب ملؤه الفرحة خلال سنوات حياته الاخيرة، تقدم الاشتراكية الى الشرق والجنوب الشرقى من اوروبا، وظهور مواقع اشتراكية على ابواب آسيا وسواحل

البحر الاسود وبحر ايجه. كان يعارض انذارات وتهديدات القيصر بالاعمال الاشتراكية من المناضلين الطليعيين من البروليتاريا الروسية وفؤاده يزهو بالاعتزاز.

لقد مات انجلس قبل انشاء حزب بروليتارى حقيقى فى روسيا، وقبل الثورة الروسية التى اضطلعت بدور نقطة الانعطاف فى التاريخ، كما تنبأ بذلك غير مرة. ان امله فى ان «يلقي نظرة على القرن العشرين» وفى أن يشهد نهوضا ثوريا جديدا فى اوروبا لم يقدر له أن يتحقق.

بيد انه ظل يحتفظ حتى النفس الاخير بايمانه الراسخ فى انتصار الطبقة العاملة المقبل، وفى حتمية مجىء عصر جديد فى تاريخ البشرية، هو عصر الشيوعية. لقد رد انجلس على محرر المجلة الايطالية «العهد الجديد» الذى رجاه ان يحدد بايجاز المضمون الاساسى للعصر المقبل بالقياس الى العصر القديم الذى وصفه دانته بهذه الكلمات: «بعض الناس يسيطرون، وبعضهم الآخر يعانى وطأة الآلام»، فاورد كلمات «بيان الحزب الشيوعى» النبوئية:

«على انقاض المجتمع البرجوازى القديم بطبقاته وتناقضاته الطبقية يبرز مجتمع جديد تكون حرية التطور والتقدم لكل عضو فيه شرطا لحرية التطور والتقدم لجميع الاعضاء».

* * *

وعلى الرغم من ان انجلس قد تخطى سنه السبعين، الا انه ظل نشيطا وخفيف الحركة ومليئا بالحيوية كأنه شاب فتى. ان المرء حين يراه نشيطا ممشوقا قوى البنية لم يكد الشيب يشتعل فيه لا يستطيع ان يقدر سنه باكثر

من خمسين عاما. كتبت ايليانور ماركس: «لو أن المرء قدر عمر انجلس من شعره، لكان اصغرنا جميعا».

لم تكن معنويته معنوية الشيخ العجوز اذ انه احتفظ بحيوية العقل وفرح الحياة والشعور بالفكاهة، وقد كانت ايليانور على حق حين قالت انها ما كانت تعرف احدا افتى منه. وقد روت ايليانور عن الرحلة التى قام بها انجلس الى الولايات المتحدة عام ١٨٨٨ معها ومع زوجها وصديقهم الكيميائى المشهور شورلمر، فقالت أن انجلس كان اكثرهم مرحا ونشاطا. كان يتجول على ظهر السفينة مهما كان الطقس، وعندما يجد عائقا لم يكن يتردد عن القفز من فوقه. كذلك سافر انجلس الى النروج برفقة شورلمر عام ١٨٩٠.

لقد احتفظ حتى آخر ايام حياته بقدرته الهائلة على العمل وبطاقته، وظل يواصل عمله الذى كان، من حيث سعته، فوق طاقة عشرة رجال. وكانت كمية المراسلات وحدها تدهش المرء: فكانت الرسائل والجرائد بجميع اللغات الاوروبية تنهال يوميا على البيت الواقع فى ريجنتس بارك رود. ولكنه كان دائما يجد الوقت لقراءتها وللاجابة على الرسائل ولابداء رأيه فى جميع الاحداث.

كان شديدا ودقيقا ومنهجيا فى عمله ويحتفظ فى بيته بنظام صارم دائم. «ففى الحجرتين الكبيرتين الوضيئتين اللتين كان يعمل فيهما، وعلى طول جدرانهما كانت تقف الخزانات المليئة بالكتب، لم تكن من ورقة على الارض، اما الكتب – عدا مجموعة منها على طاولة العمل – فقد كانت جميعا فى اماكنها... ولم يكن أقل اهتماما بشخصه: فقد كان دائما رشيقا مهندما فكان يبدو كأنه

مستعد دائما لاستعراض... اننى لم أعرف شخصا يرتدى زمنا طويلا نفس البدلة فلا تفقد ابدا شكلها وتظهر دائما كأنها جديدة. واذا كان مقتصدا على نفسه فلا يسمح لنفسه بان ينفق الا مـا يقدر انه ضرورى جدا، فقد كان ذا جود لا حد له على الحزب وعلى الرفاق فى الحاجات التى يطلبونها منه »*.

كان منزل انجلس محجة الناس من جميع انحاء العالم. ففى يوم الاحد بشكل خاص، عندما كان انجلس يستقبل الناس بشكل تقليدى، كان المرء يسمع الكلام يدور عنده بمختلف اللغات. ان الذين اسعدهم الحظ وتمتعوا بحضور هذه السهرات فى بيته، كانوا يحتفظون الى الابد بذكرى هذه السهرات التى جعلها انجلس رائعة بفضل حيويته الساحرة ومرحه الذى لا ينضب له معين.

كان بيته مفتوحا دائما لعدد كبير من الزوار ولكن ليس لجميع الناس. لقد علمته تجربته السياسية الطويلة والغنية ان يتوجس من الاشخاص غير المعروفين او المريبين فكان يطرد بدون أى مراعاة اولئك الذين لوثوا شرفهم بخيانة قضية البروليتاريا. كتبت ايليانور ماركس تقول: «ان الشىء الذى لا يغتفره انجلس ابدا هو قلة الوفاء والاخلاص. ان امرءا ليس مخلصا مع نفسه او ليس وفيا للحزب لن يجد لدى انجلس ابدا حسن الوفادة »**.

وعلى الرغم من مآثر انجلس السامية ازاء الحركة العمالية العالمية، فقد ظل، كعادته، أبسط رجل وأكثره

* « قصص عن ماركس وانجلس ». الطبعة العربية. موسكو. ص ٥٣.

** « قصص عن ماركس وانجلس ». الطبعة العربية. موسكو. ص ١٩٤.

تواضعا. فحينما علم أن الجوقة التابعة لجمعية العمال الشيوعية التثقيفية فى لندن تعد برنامجا تكريميا لعيد ميلاده، توجه الى اعضائها راجيا منهم بالحاح ان يتخلوا عن هذه النية وكتب لها يقول: «كنت أنا وماركس دائما ضد كل تظاهرة عامة مخصصة لفرد من الافراد ما عدا بعض الحالات عندما تكون هذه الاعمال تستهدف غرضا مهما؛ وقد كنا نعارض بشكل خاص التظاهرات المخصصة لشخصينا حال حياتنا». ان آيات التكريم والتقدير التى خصته بها الاحزاب الاشتراكية بصفته قائدا حبيبا مرموقا لهذه الاحزاب، كان يردها كلها الى ماركس. وحينما انهالت عليه البرقيات والتهانى والهدايا ومقالات الصحف الاشتراكية بمناسبة بلوغه السبعين من العمر، كتب يقول: «لقد اتاح لى قدرى ان اقطف ثمرة المجد والتقدير اللذين زرع بذورهما رجل ارفع منى بكثير هو كارل ماركس. أما فيما يخصنى فيمكننى أن اعد باننى ساخدم بنشاط البروليتاريا بما تبقى لى من الحياة كى أكون جديرا، ولو فى المستقبل، بما انهال عليّ من التكريم». وكان قد استأذن ان يرفع هذه الامجاد الى قبر ماركس، بمثابة اكليل الشرف.

كتب لينين يقول: «لقد كان حبه لماركس، حياً، وتكريمه لذكراه، ميتاً، لا حد لهما. فهذا المناضل الصارم، والمفكر الشديد كان يتمتع بروح محبة على نحو عميق» *.

كان انجلس يجل ذكرى ماركس ويعتز اعتزازا عميقا بنجاح القضية التى ناضلا من اجلها معا، وكان يقوم بعنف على من يحاولون الافتراء على ماركس ويلحقون،

---

* لينين. «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ص ٧٢-٧٣.

بالتالى، الاذى بالحركة العمالية العالمية. فعندما قام شخص يدعى برنتانو واتهم ماركس انه شوه تصريحات غلادستون، بادر انجلس الى فضح هذا المفترى فى كراس خاص. كان احترامه مقدسا لا لذكرى ماركس وحسب بل كذلك لذكرى جينى، زوجة ماركس، التى قال عنها فى كلمة القاها على قبرها: «انها لم تشاطر زوجها مصيره واعماله وكفاحه وحسب بل انها اشتركت فيها اشتراكا نشيطا باسمى وئام وأشد عاطفة». ان محبة انجلس الشديدة لرفيقه فى السلاح امتدت بعد موت ماركس الى بناته. فقد قام بحملة للدفاع عن ايليانور افيلينغ (ماركس) اذ كان اتهام زوجها يمسها بشكل غير مباشر. كتب لكيلى – فيشنيفسكايا يقول: «أوصانى ماركس بأن ارعى بناته كما كان هو يفعل ذلك لو بقى قيد الحياة وألا آلو جهدا فى أن أجنبهن أذى كل افتراء. وسوف أقوم بذلك ولو مقابل خمسين لجنة تنفيذية».

وقد كان انجلس يكرم اكراما عميقا الصديقة الوفية لاسرة ماركس هيلين ديموث التى كانت خادما وانتهى بها الامر ان صارت فردا من افراد الاسرة والتى قالت عنها ابنة ماركس ايليانور بانها «اكرم النساء». وبعد وفاة ماركس استقرت هيلين ديموث عند انجلس تدبر شئون بيته اذ كان انجلس ارملا بعد وفاة زوجته ليزى (١٨٧٨). كتب انجلس لزورغه فى الخامس من شهر تشرين الثانى – نوفمبر – ١٨٩٠ غداة وفاة هيلين ديموث: «لقد كنا معها آخر «الحرس القديم» ما قبل ١٨٤٨. وها انذا الآن وحيدا من جديد. فاذا كان قدر لنا، ماركس وانا، ان نعمل بهدوء، ماركس سنوات طويلة وأنا فى هذه السنين السبع



المحل فى جوار ايستبورن حيث رمى فى البحر باناء يحتوى رماد انجلس

الاخيرة، فمرد الفضل فى ذلك بشكل خاص الى هذه المرأة».

كان انجلس يرى والكآبة تأكل قلبه كيف كانت صفوف اصدقائه وصحبه القدماء تقل ويغيبون واحدا واحدا. أما هو فكان يعلل نفسه بالامل فى ان يعيش الى اليوم «الذى يحمل معه انتصار البروليتاريا ويقضى على التناحرات الطبقية والحروب بين الامم ويتحقق السلام والسعادة فى البلاد المتمدنة».

كان يأمل فى ان ستتاح له الفرصة للاشتراك النشيط فى المعارك العتيدة الحاسمة، ولكنه كان يأسف لشيء واحد هو أنه ما عاد قادرا على امتطاء صهوة الجواد. كان العيش يعنى بالنسبة اليه العمل، والعمل يعنى الكفاح والنضال. كان يتشوق بان يكرس حتى بقية حياته للنضال فى سبيل القضية البروليتارية. «لتكن اللحظة التى سأصبح فيها عاجزا عن النضال، لحظة موتى» – هذا ما صرح به جوابا على التهانى بمناسبة بلوغه السبعين عاما.

ولكن وقر السنين ازدادت وطأته. ففى الرابع من كانون الاول – ديسمبر – عام ١٨٩٤، كتب انجلس لزورغه انه بلغ الخامسة والسبعين من العمر وانه يشعر بنشاط أقل من السابق رغم ان قواه ما تزال سليمة ولديه القدرة على العمل. وحينما كتب هذه السطور، كان مرض رهيب يقوض جسمه وأخفاه الاطباء عنه وهو سرطان المرئ. ولم تلبث آلام حادة أن اثقلته. قال فكتور آدلر الذى جاء الى لندن حينذاك ان انجلس كان يحتملها «بجلد وحتى بدعابة» ولما شعر بدنو أجله كان ينتظر الموت بهدوء وجلد.

وفى الخامس من شهر آب – اغسطس – ١٨٩٥ حوالى

الساعة الحادية عشرة مساء توقف قلب فريدريك انجلس عن الخفقان الى الابد.

كانت جنازته، حسب وصيته، من أكثر الجنازات تواضعا. فقد حضر الاجتماع التأبينى رفاق السلاح وانصاره وأقرب اصدقائه، اى حوالى ثمانين شخصا فقط. وقد مثل ليبكنخت وزينغر الحزب الاشتراكى الديموقراطى الالمانى ومثل بيبل الحزب الاشتراكى الديموقراطى النمساوى بناء على طلب هذا الحزب، ومثل لافارغ حزب العمال الفرنسى، ومثلت ايليانور ماركس – آفيلينغ وكفيلش حركة العمال الانكليزية، ومثل أنسيل البلجيكيين، ومثلت فيرا زاسوليتش وستيبنياك (كرافتشينسكي) الروس، ومثل فاليرا الايطاليين. وقد ارسلت الحركة العمالية فى هولندا وبولونيا وبلغاريا ممثلين عنها ايضا. وقد القى خطب التشييع ليبكنخت وبيبل ولافارغ وصموئيل مور، صديق انجلس الحميم وغيرهم.

وقد احرق جثمان انجلس وفقا لوصيته الاخيرة وحمل وعاء الرماد الى شاطىء البحر قرب ايستبورن وهو ركن كان الفقيد يحب أن يستريح فيه، وهنالك القى الى امواج البحر العاصفة فى ذلك اليوم الخريفى.

* * *

توفى فريدريك انجلس فى عام ١٨٩٥، اى على عتبة عصر جديد هو عصر الاستعمار. وفى هذا العصر، طرح التاريخ امام الطبقة العاملة جملة من القضايا المعقدة لم يأت فى مؤلفات ماركس وانجلس اى جواب مباشر ووافٍ عليها. فكان لا بد من تطوير النظرية الماركسية الثورية وفقاً

للظروف التاريخية الجديدة التى يجرى فيها نضال البروليتاريا الطبقى.

ولكن الماركسية واجهت بالضبط فى هذه الاثناء محنا جدية. فبعد وفاة انجلس، رفع الانتهازيون السافرون من طراز برنشتاين رؤوسهم، وسلكوا سبيل تحريف الماركسية، واعادة النظر فى اسسها الجذرية بروح اصلاحية. وفضلاً عن «النقاد» السافرين، ظهر فيما بعد «ماركسيون» من طراز كاوتسكى حولوا اكثر فاكثر هذا المذهب الخلاق الحى الى عقيدة جامدة ميتة، الى مجموعة من الصيغ والاستشهادات الجافة المفصولة عن الحياة.

واذا كانت الماركسية قد تخلصت من غائلة التحريف والابتذال فى تلك المرحلة التى كانت تتقرر فيها مصائر هذا المذهب الثورى العظيم التاريخية، فان البروليتاريا العالمية والبشرية التقدمية بأسرها مدينتان فى هذا للنظرى العبقرى وزعيم الطبقة العاملة فلاديمير ايليتش لينين وللحزب البلشفى الذى انشأه، لهذا الحزب الجديد الطراز.

فى مستهل القرن العشرين، كانت الزعامة فى الحركة البروليتارية الثورية العالمية «...قد انتقلت الى الروس، وقد كانت من قبل، فى مختلف مراحل القرن التاسع عشر، للانجليز ثم للفرنسيين ثم للالمان» (لينين). فان روسيا، التى كانت عقدة جميع تناقضات الاستعمار، وبلداً يقف على عتبة ثورة ديموقراطية برجوازية كان لا بدّ لها، حسب كل الدوافع والاسباب، ان تتحول الى ثورة بروليتارية، قد اصبحت مذ ذاك مركز الحركة الثورية.

ان لينين، الذى أعمل الفكر بتوتر على دراسة وحل مجمل القضايا التى طرحها العصر الجديد، لم يدافع عن

الماركسية ويرد عنها غائلة التحريف والابتذال وحسب، بل طور الماركسية ايضاً استناداً الى تجربة الطبقة العاملة فى روسيا، الى التجربة الجديدة للبروليتاريا العالمية وحركة التحرر العالمية. وانطلاقاً من جوهر الماركسية، لم يتردد لينين عن الاستعاضة عن بعض الموضوعات والاستنتاجات التى تقدم بها ماركس وانجلس والتى ولى زمنها بموضوعات واستنتاجات جديدة تناسب العصر التاريخى الجديد. مثلاً. اكتشف لينين قانون اقصى التفاوت فى التطور الاقتصادى والسياسي فى عهد الاستعمار، واستناداً الى هذا القانون، توصل الى استنتاج مفاده ان صيغة ماركس وانجلس السابقة القائلة باستحالة انتصار الاشتراكية فى بلد واحد بمفرده لم تعد تناسب الظروف التاريخية الجديدة وان من الممكن فى هذه الظروف الجديدة ان تنتصر الثورة الاشتراكية اولاً فى بلد واحد بمفرده، على حدة.

ودافع لينين وحزب البلاشفة عن الماركسية وطوراها، وكافحا فى الوقت نفسه بلا كلل ولا وهن من اجل تطبيقها فى الحياة. ان ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى التى قادها حزب البلاشفة قد دشنت عهداً جديداً فى تاريخ الانسانية، عهدا يتقوم مضمونه الاساسى فى الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية.

ان بناء المجتمع الاشتراكى فى الاتحاد السوفييتى هو اعظم انتصار احرزه المذهب الماركسى اللينينى. والاشتراكية، التى حولها ماركس وانجلس من طوباوية الى علم، غدت مذ ذاك واقعاً فعلياً، وتجسدت فى الحياة.

وجاء نشوء بلدان الديموقراطية الشعبية فى اوروبا وآسيا، وتشكل وتطور النظام الاشتراكى العالمى انتصاراً جديداً للماركسية اللينينية. فان اكثر من مليار انسان – اى اكثر من ثلث البشرية – يبنون الحياة الجديدة تحت راية الماركسية اللينينية. وهذان الانتصاران التاريخيان العالميان دفعا حركة التحرر الوطنى فى البلدان المستعمرة والتابعة دفعة جبارة. فاطل عهد تحرر الشعوب المظلومة فى آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية.

ان الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى والاحزاب الشيوعية والعمالية الشقيقة فى سائر البلدان تلخص التجربة الهائلة التى كدستها وتكدسها الجماهير الشعبية من مختلف البلدان والقارات فى نضالها الثورى، وتطور المذهب الماركسى اللينينى تطويراً خلاقاً وفقاً للوضع التاريخى الجديد وللظروف الملموسة فى هذا البلد او ذاك.

محتويات